

فكرته الإسلامية

نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي
تأليف

ل . ماسينيون

الأستاذ بجامعة باريس

وعضو المجمع اللغوي الملكي المصري

ه . ا . ر . جب

أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

وعضو المجمع اللغوي الملكي المصري

ك . ك . برج

جامعة لندن

ج . كامبفهاير

جامعة برلين

لفتنانت كولونل فرار

بالجيش الهندي سابقا

أشرف على تحريره الأستاذ ه . جب ،

ونقله عن الإنجليزية

محمد عبد الهادي آل فوزيرة

اليسانسيه في الفلسفة مع درجة الشرف الأولى

والطالب بكلية الآداب بالجامعة المصرية بالجيزة

راجع الترجمة وقدم لها الأستاذ ه . جب ،

محتويات الكتاب

خطاب الأستاذ «جب» الذي يأذن فيه بترجمة الكتاب ونشره

كلمة المترجم

مقدمة الأستاذ «جب» للترجمة العربية

الفصل الأول : مقدمة للمشرف على التحرير

الفصل الثاني : إفريقية (ماعدامصر) للأستاذ لويس ماسينيون بجامعة باريس.

الفصل الثالث : مصر وآسيا الغربية للأستاذ ج . كامبغماير بجامعة برلين.

الفصل الرابع : الهند للفتانت كولونل م . ل . فرار

بالجيش الهندي سابقا

الفصل الخامس : إندونيسيا للأستاذ ك . ك . برج بجامعة لندن.

الفصل السادس : وجهة الإسلام للمشرف على التحرير

فهرس

مصور العالم الإسلامي

خطاب الأستاذ «جب» الذي يأذن فيه بترجمة الكتاب ونشره .

PROFESSOR H. A. R. GIBB

SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES
(UNIVERSITY OF LONDON)

FINCHBURY CIRCUS, E.C.2.

في ٢٦ أبريل ١٩٤٢

حضرة الفاضل محمد عبد الهادي أبو ريده
قد تلقيت خطاكم بسور زائد
وعرضت طلبكم في الحال الى المستر
Goellance صاحب المطبعة الذي له
حق نشر الكتاب "مير الاسلام"
وقد استقبل المشروع بالرضى والاستحسان
وتفضلوا بقبول التحية والسلام

Wahid

كلمة المترجم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد فربما كنت محتاجا لشيء من الأمانة عن سبب ترجمة هذا الكتاب الذي أقدمه بين يدي قراء العربية، فقد وقع في يدي منذ عام وما كدت أتم قراءته حتى أحسست بياعث شديد يغثنى على ترجمته لأنه ألم بأطراف موضوعه بقدر ما يتسع لذلك كتاب صغير الحجم لا يقصده به تفصيل موضوع البحث بل الإشارة إلى أهم ما يسترعى النظر فيه . ولا ريب أن لموضوع الكتاب من خطر بقدر ما فيه من طراقة لأن الباحثين في الإسلام والمسلمين لم يعنوا بتناول الناحية الاجتماعية والدينية والفكرية إلا قليلا ، وإذا كان المسلمون قد طال اتصالهم بأوروبا واشتد تأثيرهم بالمدينة الأوروبية خيرا وشرها فقد أصبحنا في حاجة إلى ما يكشف لنا عن مدى تطور الشعوب الإسلامية وعن خطوات هذا التطور وظروفه التاريخية والعوامل التي ساعدت عليه وعن مسلك المسلمين إزاء المدينة الغربية ومقدار قبولهم أو رفضهم لها وعن وسائلهم في حل مشكلاتهم الحاضرة وما أصابوا من نجاح ثم عن وجهة الإسلام في مجلته ومحاولته التوفيق بين أنظمتها وبين العصر الحديث . جاء هذا الكتاب وإفيا بهذا الغرض لأنه يوجه أكبر العناية إلى تحليل تيارات الفكر الداخلية بين شعوب الإسلام وما يتردد بينهم من نزعات ويفصل ما يشغل بالهم من الناحية الدينية والاجتماعية ، ويكاد القارئ العربي لا يجد كتابا يحمل له الكثير من شئون المسلمين مع تراث بلادهم واختلاف لغاتهم وتنوع مشكلاتهم على طريقة علمية وبقلم باحثين حقاق كهؤلاء الأفاضلة الذين عني كل منهم بدراسة الناحية التي كتب عنها وخبر

شونها بنفسه .

هذا ما بعثني على مكتبة الاستاذ د جب ، مستأذنا في ترجمة الكتاب ونشره ،
وقد أذن لي بعد عرض طلبي على صاحب الحق في طبع الكتاب كما يرى في
صورة خطابه إلي ، ولما حضر الاستاذ إلى مصر عرضوا في المجمع اللغوي للملكي
المصري أسعدني الحظ بمقابلته فذكرم بمراجعة كثير من الكتاب على الأصل
الانجليزي وضحى في ذلك بالكثير من وقته الثمين وأوضح كثيرا بما في الكتاب
وكتب مقدمة للترجمة العربية فله الشكر كله على ذلك .

ولم أجد في ثنايا الكتاب كثيرا بما يحتاج إلى التعليق ، ولم أعلق إلا على بعضه
في اختصار لكي أترك القارئ مع المؤلف وجها لوجه ولكي تكون مهمتي
قاصرة على نقل ما في الكتاب في إخلاص ودقة وعرضه للقارئ ليرى فيه
رأيه ، وربما رأى القارئ العربي ما يسترعي نظره لأول وهلة ، وهذا طبيعي
لاختلاف وجهة نظر الباحثين ولأن الباحث الخارجى يستطيع أن يتبين في
حياة المسلمين نواحي قد تفوتهم ، ورأى الغير - مهما يكن - لا يخلو من فائدة ،
ويجب على المسلمين أن يقرؤوا كل ما يكتب عنهم ليروا أنفسهم من وجهة نظر
الغير ، ولا ريب أن في هذا الكتاب كثيرا من النظرات الصادقة في شؤون المسلمين .
وقد ترجمت الكتاب أثناء دراستي ولم أشرع في طبعه إلا بعد امتحان الليسانس
وأرجو أن أكون قد وقفت في اختياره وفي ترجمته بقدر ما تسمح بذلك ظروف
طالب مجتهد في اقتصاد بعض وقته لعمل كهذا يكلف من يضطلع به مشقة كبيرة ،
وأختم كلمتي بتكرير الشكر للاستاذ د جب ، ولكل من ساعدني وأيدني في
أمر هذا الكتاب ٩

القاهرة في ١٤ صفر سنة ١٣٥٣ (٢٧ مايو سنة ١٩٣٤)

محمد عبد الهادي أبو بريدة

الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب بالجامعة المصرية

مقدمة للترجمة العربية

بقلم الأستاذ «جب»

كنت أتحدث يوماً إلى صديق زار البلاد الشرقية كثيراً فسألني: «هل تدلني على كتاب يصور لي حالة المسلمين في جملتهم؟ فلقد قرأت كتباً كثيرة غير أن كلا منها لا يتناول إلا جزءاً صغيراً من بلاد الإسلام ومعظمها لا يتناول إلا الناحية السياسية، وإنما أريد كتاباً يصف حياة المسلمين في جميع مناطق الإسلام الكبرى ويبين كيف تأثروا بما انتشر فيهم من الأفكار الروية ويصف ما بينهم من علاقات وما يشغل عقولهم من آراء إلى غير ذلك»، فأجبته: «إن الكتاب الذي يفى بحاجتك لم يكتب بعد فيما أعلم، فقال: «ولماذا لا تكتب مثل هذا الكتاب؟»

صادفت فكرته مني ارتياحاً ولكن أني لا، بل أني لكائن من كان أن يكتب كتاباً كمذا؟ فبلاد الإسلام متعددة، ولغات شعوبه متغايرة أشد التغاير، ولا بد لمن يريد الإجابة عن سؤال صاحبي أن يخبر تلك الشعوب عن كتب، وأن يقرأ ما يكتبون على اختلاف لغاتهم، وأن يعرف العربية والفارسية والتركية والأوردو والبنجابية والجاوية ولغة الملايو؟ وإذا عرف أحدهم اللغات جميعاً فهل في طوقه أن يقرأ عشر معشار ما كتب بها؟

لم يكن بد إذن من تقسيم هذا العمل بين نفر من العلماء لكل منهم خبرة خاصة بناحية معينة. لكن أمر تأليف الكتاب لم يقف عندهما الحد، فلكي يدرس كل إقليم دراسة وافية لا بد من كتاب ضخم، فلم يكن بد من أن نختار بعض بلاد الإسلام ونترك على الرغم منا بعض البلاد التي لها نصيب قليل أولاً نصيب لها البتة في حركة الأفكار العامة في العالم الإسلامي مثل وسط أفريقيا ووسط

آسيا، ثم استقر الرأي أخيراً على أن نخصص فصلاً لكل من آسيا الغربية والهند وإندونيسيا، ولما كان للمغرب مشكلاته الخاصة في علاقاته بأوروبا رأينا أن نجعل له فصلاً صغيراً. وبعد أن عرف الذين اضطلعوا بكتابة أربعة الفصول المذكورة غاية هذا الكتاب في جملته والاستئلة التي لا بد من محاولة الإجابة عنها أعطى كل منهم مطلق الحرية في أن يكتب ماشاء كيف شاء من غير أن يتقيد إلا بعدد الصفحات، والحق أنهم اختلفوا اختلافاً عظيماً في مناهج البحث وفي عرض المسائل، تنعكس من كتابة كل منهم صورة الظروف الخاصة بالناحية التي يكتب عنها. وليس لي في هذا المقام أن أطيل في وصف ما تحويه تلك الفصول وما يمتاز به كل منها، ولكن إشارتي إلى نقط قليلة ربما تعين قارئ هذه الترجمة العربية. ولا يدور بخاد القارئ أن يجد في مجمل كهذا وصفاً مفصلاً لجميع نواحي حياة المسلمين في المغرب وآسيا الغربية والهند وإندونيسيا، فهناك كتب كثيرة منها الفث ومنها السمين تناول حياة هذه البلاد وحياة أهلها، فأما الذي يرمى إليه مؤلفو هذا الكتاب فهو أن يحلوا تيارات الفكر التي تعبر عن حالة المسلمين ثم النزعات التي تتردد بينهم ليراها القارئ الأوروبي اللبيب الذي له بعض الخبرة بحياة البلاد الشرقية.

فيرينا الأستاذ ماسينيون مثلاً مشكلة العمال الذين اتصلوا أكثر من جميع من عداهم من المسلمين اتصالاً وثيقاً بالحياة الأوروبية جنوداً مجبرين في الجيش أو مرتزقين في مصانع فرنسا والذين لا يزالون على تمسكهم بمبادئ الصوفية الإسلامية كما يمثلها أهل الطرق. أما في آسيا الغربية فإن المهمة أكبر وأشد تعقيداً ذلك أن تمايز الطبقات والشعوب وما تعرضوا له من مختلف أنواع الاتصال العقلية والاجتماعية كان من أثره إيجاد عدد كبير من الظواهر لكل ظاهرة دلالاتها ومكانها في حياة عصرنا الحاضر، وكان للاستاذ كما مبفاير أن يختار من بين هذه الظواهر ما يراه أكبر دلالة، وقد اختار— وأحسن الاختيار—

التنظيم الجديد في الحياة الاجتماعية والعقلية، لأن هذا التنظيم ظاهرة جديدة كان لها أثرها في إيجاد إرادة عامة وغاية عامة ، وبعد أن اختار إحدى الجمعيات — لا لأنها أهم ولكن لأنها تمثل نشاط سائر الجمعيات — أرانا تحليلاً مفصلاً لتكوينها وأغراضها ووسائلها :

أما في الهند فإن المشكلة تختلف عن ذلك، لأن الصراع بين ثقافة الإسلام والثقافة الهندوكية قد جعل الناحية السياسية اليوم في المكان الأول، ونرى المسلمين كما يصفهم الكولونيل « فرار » جبهة متحدة للدفاع عن مبراهم الدين والسياسي أمام الأخطار التي يخشونها من أغلبية الهندوك الساحقة في الحياة السياسية الجديدة للهند. وفي أندونيسيا شيء من هذا حيث يظهرنا الاستاذ برج على عدد هائل من المسلمين ولكنه منزلة مشتهرة يواجه الحياة الجديدة بقلق، ويجهد لكي يضع برنامجا يسير عليه أمام مختلف العقبات التي لا تواجهها أي جماعة إسلامية أخرى .

سيجد القارئ في هذه الفصول الأربعة ما يعينه على تمثل الحياة التي تحتلج فيما بين المسلمين ، وما الفصل السادس إلا مثل هذه المحاولة لتأخير المواقف، ورب ناظر آخر ممن تجعلهم الظروف أقدر على التحليل يرى رأيا آخر في العوامل الموجودة . فيرفع من شأن بعضها مما يرى أنه لم ينل تقديراً كافياً ويقلل من قدر ما يحسب أنه قدر أكثر مما يستحق ، ولا إخال باحثانزها يرى أن الصورة التي عرضتها محرقة تحريفاً شديداً ، وإني لا رجب بالترجمة العربية التي قام بها صديق محمد عبد الهادي أبو ريذة أفندي الطالب بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، وكما أريد بالنسخة الانجليزية أن تعين القارئ الأوروبي على أن يرقب بعين العطف حركة الأفكار بين المسلمين فاني آمل أن تعين النسخة العربية قراءها على أن يقدروا الوحدة الجوهرية التي هي المطمح الذي يجاهدون في سبيله والتي تربط شقي العالم الغربي (١)

(١) الذي يتكون في رأى المؤلف من العالم الإسلامي ومن أوروبا .

الفصل الأول

مقدمة

إن الإسلام في نظر الجمهور يعد قبل كل شيء ديناً — نظاماً من العقائد والعبادات — يقرن بذات النبي محمد (عليه الصلاة والسلام) ويسجل أقواله المحفوظ في القرآن، (١) ونحن نسمى أتباعه محمديين أو مسلمين أو «مسلمان» — وبعدها الأخصائيون بأرقام إجمالية وتفصيلية لبيان توزيعهم وقوتهم النسبية ومكانة الإسلام بوجه عام بين أديان العالم — وإن كان معظم هذه التقديرات غير دقيق حتى لتفاوت بما قد يبلغ عشرات الملايين — تبيننا أدق هذه الإحصاءات أن مجموع معتقي الإسلام يتراوح بين ٢٤٠ و ٢٥٠ مليوناً أي ما يزيد على مجموع سكان الأمريكتين من هؤلاء ١٨٠ مليوناً في آسيا (في الهند ما يزيد قليلاً على ٧٠ مليوناً وما يقرب من ٥٠ مليوناً في أندونيسيا وحوالي ٤٠ مليوناً في آسيا الغربية والباقيون في الصين وسيبيريا) وفي أفريقية ما يزيد على ٥٠ مليوناً حيث يزيد حقا عدد المسلمين على غيرهم من متبعي سائر الأديان المنظمة أضعافاً مضاعفة وحيث يكونون ما لا يقل عن ثلث سكان القارة، يضافه إلى ذلك ملايين عديدة من المسلمين ما يزالون في أوروبا وأكثر ما يوجدون في ولايات البلقان وفي روسيا الجنوبية .

ومسألة «وجهة الإسلام» بالمعنى الديني و«الكلامى» الضيق، لها عند هذه الملايين أهمية حيوية، كما أنها ليست عندنا مسألة نظرية محضة، فلقد عرفنا حق المعرفة أن بواعث الناس ووسائلهم ومثلهم العليا في حياتهم اليومية إنما

(١) يريد المؤلف حكاية ما يعتقده جمهور غير المسلمين ممن ليست لهم بالإسلام دراية خاصة لأنهم لا يفرقون بين القرآن والحديث، والسكل عندهم كلام النبي عليه السلام، أما المسلمون فيعتقدون أن القرآن كلام الله وأن الحديث تبين النبي .

تصدر عن عقائدهم المتغلغلة في نفوسهم ، ونجد في الاسلام بخاصة -
أن المكان الذى تبوأته التعاليم الدينية كان دائماً من العظمة بحيث لا نستطيع
إغفال ناحية العقيدة عند إلقاء أى نظرة على النزعات الحديثة في العالم الاسلامى .
على أنه بينما نجد المسائل الدينية من غير شك أساس كثير من النزعات الحديثة -
في الفكر حتى مع عدم ظهورها للعيان نرى أن تطور العقيدة والمظاهر الدينية -
إنما هو ناحية واحدة (وثانوية الآن) من معضلة أكبر كثيراً .

الحق أن الاسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ، إنه أعظم من
ذلك كثيراً ، هو مدنية كاملة ، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا العالم المسيحى .
ولم نقل المسيحية وقلنا الصين بدل أن نقول ديانة كونفو شيوس : يشمل
الاسلام مزيجاً كاملاً من الثقافات التى نمت حول الاصل الدينى أو ارتبطت
به في معظم الاحوال مع تعديل قليل أو كثير فهو مزيج ذو خصائص يتميز
بها في تكوينه السياسى والاجتماعى والاقتصادى وفي تصوره للقانون وفي
نظريته الخلقية ونزعاته العقلية وأساليبه في الفكر والعمل ، وهو بعد يضم عدداً
عظيماً من الشعوب المختلفة في الجنس واللغة والخلق والاستعدادات الموروثة .
غير أنها على اختلافها مرتبطة لابلوسية العقيدة المشتركة فحسب ، ولكنها
ترتبط ارتباطاً أشد قوة بتشاركها في ثقافة واحدة وخضوعها لشرعية واحدة .
واتخاذها تقاليد واحدة .

وأعجب من هذا ، التوزيع الجغرافى الشاسع للشعوب الاسلامية فهى .
تمتد بلا انقطاع من الساحل الاطلسى في غرب افريقية إلى السودان وتسير
مع السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط إلى مصر وآسيا الغربية ومن .
هناك تمتد مع سواحل البحر الأسود وبحر الخزر في قلب سيبيريا وتسير
شرقا في منغوليا . وتمتد مع ساحل افريقية الشرقى إلى خط عرض مدغشقر
وتخترق سلاسل جبال الهمالايا إلى سهول الهند ، وهنا يتقطع امتداد الكتلة .

أول مرة ولكن بعد أن تتفرع منها جماعات كبيرة مشورة في البنغال وغيرها من أقاليم الهند تبدأ سلسلة جديدة في شبه جزيرة الملايو وتمتد متصلة في مجموع جزر الهند الشرقية حتى تنتهى في جزر الفلبين الجنوبية، وتوجد فيما عدا هذه المساحات جماعات صغرى منعزلة على حدود الصين الغربية وفي جنوب أفريقيا. وإذا نظرنا إلى العالم الإسلامى على المصور ألفيناه يشبه هلالين عظيمين يخرج قرنا كل منهما من مركز مشترك في آسيا الغربية ويكون الشمالى منهما نطاقا يربو عرضه على ألف ميل ويحيط بأوربا من أقصاها إلى أقصاها تقريباً ويفصلها جغرافياً عن البلاد الناصية بالسكان في جنوب آسيا وشرقها، ويحيط الذراعان الدقيقتان من الهلال الجنوبي بالمحيط الهندي إلا في بعض أجزاء الهند وسيلان حيث ينقطع امتدادهما.

ولعل من سداد الرأى توقعنا أن يكون انتشار الإسلام على هذه الأصقاع الشاسعة واشتماله على أجناس كثيرة وتقاليد قديمة أمرين سيحولان دون بلوغ وحدة حقيقية في المدنية الإسلامية وأنه رغم اتحاد المظاهر الدينية فإن بقاء العادات التى رسخت قديماً وأساليب التفكير المختلفة في طبيعتها اختلافا لا يدع لاتفاقها سيلا سيؤثر تأثيراً قوياً في ثقافة كل إقليم على حدة حتى لا يترك مجالاً لتقاليد شاملة ولا لآى وحدة تامة في الشعور وحتى يوجد عدداً من الثقافات الاقليمية الإسلامية. لقد كان حتماً أن يحدث بالفعل شيء من هذا ويمكننا - كما يظهر من عناوين فصول هذا الكتاب - أن نتبين يقيناً في كل جهة رئيسة خصائص تميزها إلى حد ما عن سائر جهات العالم الإسلامى وليس عجباً أن تتمايز الثقافات ولكن العجب أن أصول المدنية ونزعات الفكر بقيت واحدة بوجه عام على رغم كثرة العوامل التى تعمل على الاختلاف ونستطيع أن نتبين لهذه الظاهرة ثلاثة أسباب رئيسية.

أول ما نلاحظ، أن اتساع رقعة الإسلام الحاضرة لم يكن إلا إلى حد ما

عقبة توسع منتظم بين قرن وقرن، وإنما حدث بوثبات سريعة متقطعة . فالفتوحات العربية بين سنتي ٦٣٠ و ٧٥٠ رفعت العلم الاسلامي على البلاد الممتدة من إسبانيا ومراكش إلى وسط آسيا وظل داخل هذه الحدود زهاء قرنين ونصف قرن بعد ذلك، وبين ١٠٠٠ و ١١٠٠ م امتد الحكم الاسلامي على مبادي أربع: في غرب افريقيا وآسيا الصغرى وآسيا الوسطى وشمال الهند، وامتدت منه موجة أخرى بعد قرنين فتفرع فيما بين ١٣٠٠ و ١٤٠٠ م في شبه جزيرة البلقان وفي مناطق « استبس » روسيا وسيريا وباقي الهند وإندونيسيا، وعلى هذا كانت لوحة العالم الاسلامي فيما قبل ١٤٠٠ م عظيمة الشبه بها اليوم عدا زيادات صغيرة حدثت منذ ذلك الحين أهمها في أفريقية . ومن أعظم آثار هذا الاتساع المتوالب أن الاسلام لم يتعرض أثناء تشييد مدنيته لثقافات متباينة تتنافس في التأثير فيه، وكانت المدة ما بين ٧٥٠ و ١٠٠٠ م هي دور التكوين الذي طبعت فيه المدينة الاسلامية في طورها بالطابع المميز لها والذي لماتفقده إلى يومنا هذا .

وهنا لابد أن نقف قليلا لنفحص عن كثر مسألة ذات مساس كبير بالمعضلة الاسلامية عامة . جريتنا على أن نعد الاسلام ديناً شرقياً وثقافته ثقافة شرقية حتى لنميل إلى إغفال الخصائص الحقيقية للمدينة الاسلامية وحتى ليفوتامكانها الصحيح وخطورتها في تاريخ الجماعة البشرية . لقد عرفنا منذ زمان بعيد أن الرأي القديم القائل بأن الاسلام خرج من بلاد العرب في صورة كاملة ثابتة لا تتغير هو رأي زائف ليس فيه إلا طرف من الحقيقة فقط ، فإن الاسلام ظل طيلة قرنين على الأقل ديناً مرناً بعض المرونة حتى في ميدان العقيدة الدينية . ولا شك في أن أصوله الأساسية تقررت على صورة نهائية ولكنها لم تتم حتى صارت « علم كلام » ، آخر الامر إلا بعد جدل دام طويلاً ، ثم إن الدين الاسلامي في ذاته واحد من مجموعة الأديان التي تشمل إلى جانبه المجوسية واليهودية والمسيحية وهو يقاسمها نفس المبادئ الأساسية (١) ومن ثم فهو من أول (١) ربما يريد مثلاً فكرة التأليه أو الشعور بالعلاقة بين الانسان ومدير الكون .

الامر ينتمى لما يمكن أن نسميه مجموعة الأديان الغربية تميزاً لها عن مجموعة الأديان الشرقية الهندية والصينية . أضف إلى ما تقدم أن هذه الصبغة الغربية زادت قوة فيما بعد لأن العالم الخارجى الذى انتشر فيه الإسلام من بلاد العرب . كان هو العالم الاغريقى الذى ورث المدينة اليونانية- الرومانية، وكانت الفتوحات الإسلامية الأولى كلها تقريباً داخل العالم الاغريقى ، ولهذا كانت المؤثرات الخارجية التى صاغت المدينة الإسلامية إغريقية وفارسية ، وتغلغلت الثقافة اليونانية فى صميم الحياة لعقلية للمسلمين، وعلم الكلام نفسه مدين لـأرسطو (١) . من أجل ذلك كانت الثقافة الإسلامية ظاهراً وفى جوهرها من الطراز الغربى . واتصالنا بها أوثق من اتصالنا بثقات الهند أو الشرق الأقصى فتسميتها « شرقية » تسمية خاطئة . هى شرقية لا بالمعنى المطلق بل شرقية فى موطن امتدادها . فحسب، كما أنها هى من المدينة الغربية فرعها الشرقى الذى تشارك فيه فى كل العصور اليهود والمسيحيون الشرقيون تحت كنف المسلمين .

ولم تأت سنة ١٠٠٠ م حتى كل هذا التطور فى الإسلام من عقيدة محضة إلى مجتمع متشعب النواحي حتى إذا وثب إلى ما وراء حدوده القديمة بعد ذلك . ويمكن لنفسه فى أقاليم ذات ثقافة موروثة أخرى لم يفعل ذلك وهو بمروته الأولى بل انتقل ثقافة متماسكة تامة انضج حملها معه أينما ذهب . من أجل ذلك كان الإسلام فى الهند وإندونيسيا هو الوارث الروجى للاسكندر وحامل لواء المدينة الاغريقية وإن كان قد هضمها وصبغها بصبغته (وربما نجد مثلاً على ذلك أن الإسلام وحده من بين الأديان الغربية رفع الاسكندر إلى ما يقرب من مكان الأنبياء) (٢) ورغماً عن تكيف المظاهر الدينية بما يلائم العرف

(١) اتخذ المتكلمون من منطق أرسطو وفلسفته أداة تعينهم على تناول مسائل .

علم الكلام التى قررها الإسلام .

(٢) لم يذكر فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة القوية اسم « الاسكندر » . ولكن ذكر اسم « ذى القرنين » وهذه الشخصية الأخيرة كما يصورها الإسلام .

الأقليمي ولاسيا بين الطبقات الدنيا فان الاسلام أبى أن يسلم بيته الجديدة
أو أن يعيد النظر في نزعه أو أصوله ، بل إنه على النقيض من ذلك رفع لواء
التوحيد عاليا أمام التفكير الهندوسي والوثني وكان من أثر التباين بينه وبينهما
أن صار أصلب مقاومة وأقوى تشبثاً بأهداب ثقافته .

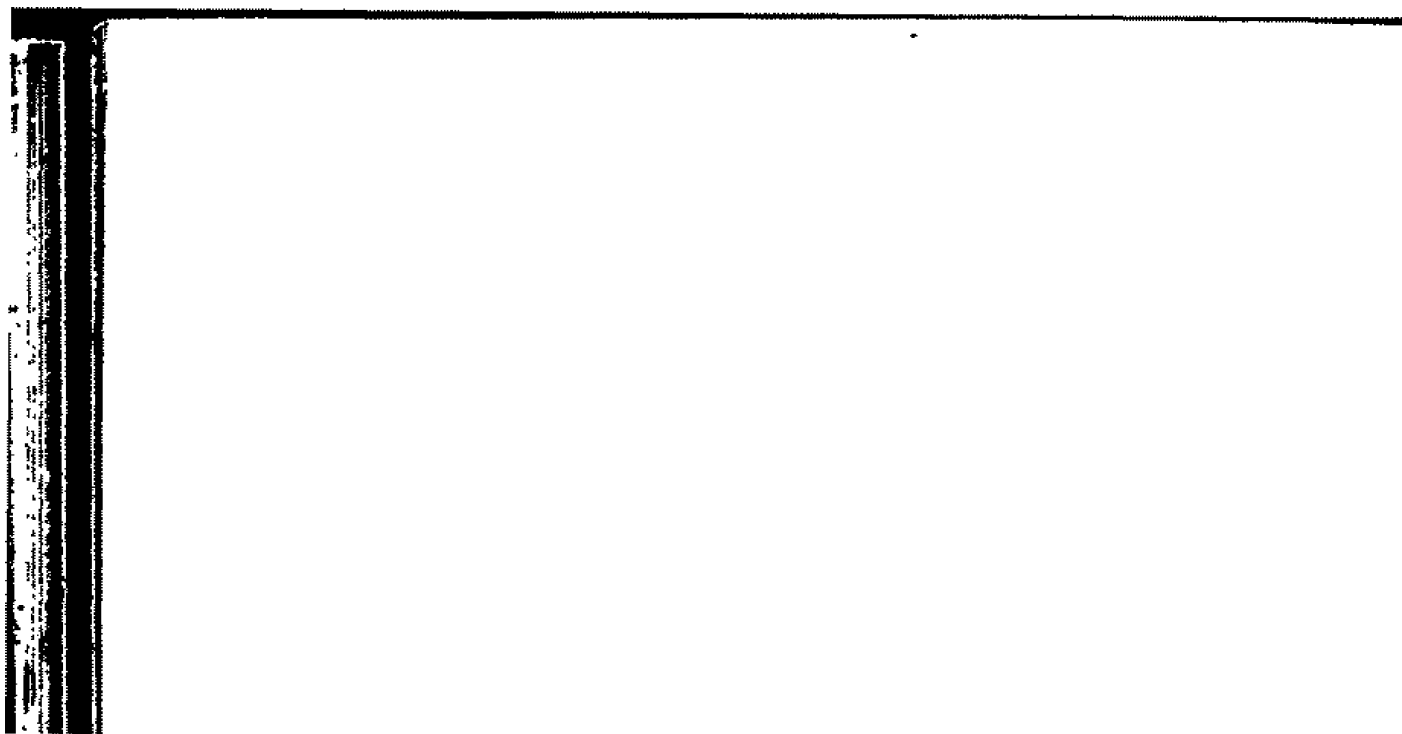
وقد اقترنت بهذا ظاهرة خاصة صحبت انتشار الاسلام وكانت السبب
الثاني في وحدة ثقافته تلك هي قوة الثقافة الإسلامية الفتية على إضعاف ذكرى
الثقافات الموروثة ، بل على محوها في بعض الأحيان من نفوس معتقية وإحلال
تاريخ الاسلام وتقاليد السالفة محلها . نسي الناس في كل الاقطار تهراباً ما
كان لهم من ماض قبل الاسلام — نسي المصريون فراعتهم وبطالستهم ونسي
الأتراك خواقينهم وهلم جرا ، ورجعوا إلى بلاد العرب والخلفاء الأولين
يتخذون منهم أسلافاً روحيين . ولا يناقض هذا أن عناصر من تلك الثقافات
القديمة أخذت واتصلت بالثقافة الإسلامية المحلية لأن هذه العناصر فقدت عملها
وما كان يحيط بها قديماً من الأفكار الدينية وانتظمت في نسق التقاليد
الإسلامية العامة ، ويمثل هذا الأذعان لسلطان الاسلام زادت قوة دعوته
وكسب وسيلة جديدة لنشر تقاليده وتعاليمه .

ومع هذا كان من المحتمل أنه كلما زاد انتشار الاسلام وزاد تحويره لتقاليد غربية
الجوهر عن كنهه الصحيح حتى تلائم أغراضه كلما صار المثل الأعلى على الوحدة التي
يسعى لصناعتها عرضة للخطر وصارت رسالته الحقيقية عرضة لأن تضعف أو تضل
السبيل ولكن عاملاً ثالثاً انبثرت لهذا الخطر وهو الاختلاط الدائم الذي ظل

تغاير شخصية الاستكندر التاريخية ولعل السكاتب قد أحسن في التقليل من شأن هذا
المثال لأن ما يقال حول قدي القرنين الوارد ذكره في القرآن ليس من القوة والوضوح
بحيث يكون رفعا من الإسلام لشأن الاستكندر المقدوني على النحو نادر هذه السكاتب
أن يلاحظ .

قائما بين أنحاء العالم الاسلامي ولاسيا بين الاطراف ومركز الاسلام في مصر
 وآسيا الغربية ، وكان الحج أقوى عامل في توثيق عرى هذا الاختلاط لانه
 فرض محتم مرة على الأقل في العمر على كل مسلم يستطيع إليه السيل ، وسنرى
 أن فرض الحج لا يزال حافظاً مزيتة الاول عامل على إحياء الحجة الدينية
 وتقوية الايمان بالوحدة الاسلامية ، وبلى الحج مباشرة في العمل على التوحيد
 الروحي الجهود التي بذلها دعاة الاسلام من أتباع الطرق الصوفية المخلصين الذين
 يجهدون في كل ناحية في المحافظة على الايمان وإذكاء لهيبه في قلوب أفراد الناس ،
 ومهما كان في كثير من فروع الطوائف الصوفية الصغيرة من إسراف ورغما عما
 يشوبها من الهنات فإن الطرق الصوفية في مجلتها لعبت ولا سيما في البلاد النائية
 الاحدث عهداً بالاسلام دوراً مشمراً في نشر العقائد والعبادات الاسلامية .
 ويجب أن ننحصر بالذكر عاملاً من العوامل التي لا تمت إلى الدين بصلة :
 والتي ساعدت أيضاً على تحقيق هذه الغاية ذلك هو الاتصال الذي نشأ من
 التجارة في العصور الوسطى وظل قائماً في العصور التالية بفضل تقدم وسائل
 المواصلات التي أوجدتها الجهود الأوروبية ، وعلى هذا فإن تقاليد الاسلام
 الخالصة وتأثيرات ثقافة كانت تقوى على الدوام في البلاد الاحدث عهداً
 بالاسلام بفضل الجهود التي تضاعف عليها المهاجرون من المركز الاصل والعلام
 المحليون الذين كانوا يرجعون إلى أوطانهم الاصلية بعد سنوات يقضونها
 طلباً للعلم في مكة أو القاهرة أو غيرها موطنين العزم على تطهير الاسلام في
 بلادهم من المساويء والبدع التي لا تتفق وتعالىه .

كان الامر الخالص لهذه العوامل أنها أوجدت وصانت في العالم الاسلامي
 كله ثقافة وتقاليد متينة التماسك إلا تكن قد بلغت تمام كمالها قائماً تسترعى
 النظر بحق إذا ما نظرنا إلى أجزائها المتباعدة واختلاف أصول أجناسها ولغاتها .
 بدت مناة تلك الثقافة في شيوع الكتابة العربية وظهرت بدرجة أقل من ذلك



سئرى بعد قليل بأدث من أول الأمر إلى ربط الدين بالسياسة ، بل إلى ربط علم الكلام بالسياسة ، وقد أكد هذه النزعة الأصلية ما تلا ذلك من صوغ القانون الإسلامى والتنظيم الاجتماعى ، وكان يمكن لرجلنا فى أوائل القرون الوسطى أن يفهموا هذا جيداً - وقد فهموه فعلاً - ويجب ألا يعزب عن بالنا دائماً أننا ندرس مجتمعاً لا تزال تتردد فى صميمه بكل قوة هذه الفكرة التى كانت شائعة فى العصور الوسطى ، والحق أن نمو هذه الفكرة فى الإسلام فاق كثيراً ما وصلت إليه فى أوروبا وإن طمست العلاقات التى بين مختلف نواحي الحياة بسبب النقص الذى تكاد تمتاز به كل أنظمة الحياة الاجتماعية الإسلامية فيما يبدو من تنظيمها ، فتجد أن النظام الإدارى كان يبدو أحياناً منفصلاً عما يحيط به من ثقافة الإسلامية ، ولكن مائة الصلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتماعية كانت ركناً أساسياً من فكرة المسلمين عن نظام العالم حتى كان اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة فى الإسلام ، وبالعكس ربما كان النشاط السياسى - وكثيراً ما كان - هو العلامة الظاهرة للعيان على اضطراب تمتد أصوله فى الشعور الدينى أو الحالة الاقتصادية أو أى ناحية أخرى من الحياة الاجتماعية .

وإذا عرفنا سر تكوين المجتمع الإسلامى الذى يشبه تكوين مجتمعات العصور الوسطى نكاد لا نكون بحاجة إلى برهان طويل على أن انتحام أفكار أو نزعات جذبية على المسلمين فى أى ناحية من نواحي الحياة كان ينجم عنه غالباً - وأحياناً فى فجأة مفرقة - سلسلة كاملة من الحركات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية التى تؤثر فى مظهر الفكرى والمادى كأثيراً عميقاً ، وإن ظهور هذه الحركات بسرعة فى السنوات الأخيرة والعنف الذى قاومت به التقاليد والعادات القديمة أحدثا فى العالم الإسلامى كله حالة قلق وخروج نفسى لا نملك أنفسنا إزاءه من تذكر تلك الأزمة التى اجتازتها أوروبا إبان

حركة النهضة والأصلاح الديني وإن كان من الطبيعي أن تكون ذات مميزات خاصة بها . وإن هذا القلق لمو محور محضلة الإسلام الحاضرة ومنشأ السؤال الذي تقصد الفصول التالية أن تجيب عنه بقدر ما يتسع المقام .

ولكى نفهم كنه الأزمة التي يجتازها العالم الإسلامى الآن ولكى نفهم كل ما للحركات الحديثة من خطورة يجب أن نرجع بالطبع إلى ما قبل ارتباطات الجيل الحاضر . وأول ما نرمى إليه في الصفحات التالية هو أن نبرز على حدة وفي صورة صغيرة تلك الأسباب العامة التي أدت إلى هذه الأزمة وبهذا نفحص السلاح الذي تهيأ للشعوب الإسلامية من طول صلتها بالثقافة الإسلامية والذي ستواجه به هذه المعضلات الجديدة . يجب أن تبين المثل العليا التي أشربتها والمؤثرات التي صاغت في ذلك القلب وعناصر القوة أو الضعف التي تستمد منها من ماضى تاريخها وبدون الاستئثار بضوء هذه الحقائق لا يمكن أن نقدر خطورة التطورات المحلية المختلفة حق التقدير وخطورة العوامل التي أثرت في مجرى الأحوال في المناطق الأربعة الرئيسية في العالم الإسلامى التي سنتناولها بالبحث في الفصول التالية .

إن طريقة انتشار الإسلام أسبغت عليه من أول الأمر صفة الدين الغالب ففي حين أن الدين ذاته لم ينشر بالسيف وجد الدعوة إليه في ظل السيادة الإسلامية أكثر الظروف مساعدة لنشاطهم في تحويل الناس إلى دينهم ولقد اقتنع متبعو الإسلام جميعا بفكرة أن الإسلام دين قاهر ، وجد المتكلمون ما يؤيدها في القرآن وجعلها الفقهاء أساساً لشرحهم الشريعة الإسلامية وقبلها الجمهور كأنها حقيقة بديهية ونظر الناس إلى انتشاره على هذا النحو كأنه تدبير من الله وأنه أكبر برهان على أنه من عنده .

ولكن عاق حركة الانتشار هذه على الدوام عقبات كثيرة من أهمها مقاومة الممالك المسيحية الأوربية ولقد حدث قبل في حياة محمد (عليه الصلاة

والسلام) أن بدأت تتشابك سيوف المسلمين والمسيحيين وظلت كذلك حتى اليوم ولهذا ظل العالم المسيحي الأوروبي لا المسيحية علواً سلام إلا لرغم العلاقات الودية التي كانت بين المسلمين والمسيحيين أفراداً أو بين الجماعات الإسلامية والمسيحية في ناحية ما . أمام سلك المسلمين حبال رعاياهم المسيحيين فقد كان غير ذلك فهو لاء أدوا خدمات نافعة زارعين ودافعي ضرائب وموظفين في الإدارة ونظراً لضعفهم عوملوا بتسامح غير أن هذا التسامح كان مشوباً بنوع من الانفة الاستقرابية التي أنزلتهم إلى مكانة وضيفة وكانت آخر الأمر أشد إيذاء للمسلمين والمسيحيين جميعاً من التعصب الصريح التام . على أن الدولة الإسلامية ظلت بعيدة عن أن تدمج في ذاتها الرعايا غير المسلمين حتى جاء اليوم الذي أرغمت فيه الامبراطورية العثمانية على أن تذوق وبال ضيق فكرة اشتراك المواطنة في الاسلام تلك الفكرة التي ترجع إلى العصور الوسطى وتحرم غير المسلمين من حقوق المشاركة في الوطن .

على أن مثل ذلك التسامح الذي لم يخلص من شوائب السخط ما كان يمتد إلى العالم المسيحي خارج حدود دار الاسلام ، وقد كانت الخصومة الكامنة حتى في وقت السلم تربى روحاً من الريبة وسوء الظن لا تقبل المصالحة ويستطيع أي حادث تافه أن يضر نراها في أي لحظة وربما كانت معارضة الاسلام لأوروبا — كما يجادل البعض — ركناً أساسياً فيه وربما كانت أحد الأسباب التاريخية للحركة الإسلامية في آسيا وأفريقية حينما أشار العرب الإشارة التي طال انتظارها لتحرير الشعوب الشرقية التي كانت تحت حكم الامبراطورية الرومانية من ظلم واضطهاد حكومة رجال الدين الأوروبية وإدارتها ومن الطبيعي أن تتوقع أن يكون العداء للعالم المسيحي على أشده في الهلال الواسع الذي يواجهه أوروبا . أما على الجناح الآخر من العالم الاسلامي فقد كانت الهندوكية (Hinduism) أكبر عقبة في طريق الاسلام وكانت لذلك ألد

خصومه وحيثما كانت الهندوكية ضعيفة كما في جزر الهند الشرقية سهل اكتساحها سياسياً ولكنها في الجزء الأعظم من الهند ثبتت أمام كل الهجمات وتحينت الفرصة — كالممالك المسيحية الأوروبية — حتى أحست في القرن الثامن عشر بأن لديها القوة الكافية على أن تبدأ في رد الهجوم ومع ذلك يجب ألا تغفل أن الإسلام في المحيط الهندي ظل وثيق الصلة بالمراكز العنصرية للعالم الإسلامي في آسيا الغربية وأنه تحت تأثيرها سرى فيه شعور رغبة من العالم المسيحي كالذي ساد في الولايات القديمة من الإمبراطورية الرومانية تلك الرغبة التي ازدادت — بحق — حينما اتصل الطرف الجنوبي الشرقي من العالم الإسلامي اتصالاً مباشراً بممثلي العالم المسيحي بعد القرن السادس عشر .

إلا أن الشقة كانت أضيق بين العالمين الإسلامي والمسيحي في القرون الوسطى حتى أنها لا تقاس بما صارت إليه بعد ذلك وكان من أسباب ذلك أن كلا من المجتمعين قام على أسس كثيرة الشبه وأن الأفكار السائدة في كليهما كانت متطابقة تقريباً وأن كلا منهما اشترك بدرجة كبيرة في جعل الدين محور نظره إلى الكون ولقد يكونان عدوين يصر كل منهما على استئصال الآخر ولكن كان كل منهما يفهم صاحبه على الأقل وكانا يتحاربان بأسلحة مادية وروحية واحدة وكان هناك سبب آخر أكبر خطراً هو التأثير الملطف الذي أحدثته العلاقات التجارية من وراء ستار ففي هذه النقطة التقى المجتمعان لاعلى أنهما متساويان لحسب ولكن على أنهما متعاونان أيضاً وقد بذل كلا الجانبين حتى إبان الصراع الحاد في الحروب الصليبية أقصى جهده لصيانة ما كان بينهما من تجارة . وإن الموقع الجغرافي للعالم الإسلامي قد أغدق عليه فوائد اقتصادية عظيمة فبفضل وقوعه على الطرق التجارية للدنيا القديمة كان يتحكم في المسالك البرية والبحرية جميعاً بين أوروبا وآسيا كما أن امتداده مع طول ساحل المحيط الهندي واضطلاع بحارته ومناجريه بالأعمال مكنه من احتكار التجارة البحرية

حتى ثبوا مكانه اللائق به في حياة العالم الاقتصادية وأنشأ علاقة تجارية مزدهرة مع البلاد المجاورة يرجع بعضها إلى مبادلة غلاته الخاصة من طبيعية وصناعية ولكن الجزء الأكبر منها يرجع إلى قيامه بنقل وتلقي تجارة المحيط الهندي وكان من أثر ذلك أنه تمتع بما يمكن أن يسمى حياة اقتصادية عادية بل إنه استطاع بفضل اتصاله المنتظم بالشعوب الأخرى وثقافتها أن يظل مسائرا لها بل أن يفوقها من بعض الوجوه في تقدم الوسائل الاقتصادية والفنية وفي المدنية المادية بوجه عام .

ولكن قدر لهذه الحالة الطيبة أن يتبعها تدهور اقتصادي متواصل وقد جاءت أول ضربة للتقدم التجاري في العالم الإسلامي من داخله فقد أصبحت الصناعة ثم التجارة تحت سيطرة الحكام المسلمين شيئا فشيئا يترزون منها الأموال بالوسائل التعسفية الجائرة إلى أن اختفتا بالتدريج بسبب الاحتكار وضرائب التصدير والإيراد الفادحة حتى ليخيل للإنسان أخيراً أنه لولا مطالب أوروبا وحدها لما بقي للحركة التجارية شأن يذكر ثم أن انتشار الصناعة الأوروبية كان قبل قد أغرق الأسواق حتى لم يترك مجالاً لمنتجات المصانع الإسلامية وكانت ثروة مصر في آواخر العصور الوسطى تستمد غالباً من التجارة الهندية التي تمر بها . وأما ثمانية الضربات القاضية فقد أتت من أن أوروبا اهتمت إلى أن العالم الإسلامي يمكن أن تؤخذ عليه السبل طبعياً واقتصادياً في أن واحد إذا فتح الطريق البحري إلى غرب أفريقيا والهند ولم تكن نتيجة هذا قاصرة على نزف أكبر معين للرخاء الاقتصادي ولكنه جعل العالم الإسلامي في عزلة لا يتصل بجيرانه اتصالاً ذا أثر وقضى عليه بالكساد الاقتصادي وبكل ما يصحبه من الآثار في الحياة العقلية والأدبية للامة .

وربما كان عسيراً على العالم الإسلامي لفقره بفساد الحكم الداخلي وبسبب منافسة خصومه المسلحة أن يظل قائماً على قدم المساواة مع خصمه الذي كان

تفوقه المادى يزداد كل عام . غير أن ضعفه ظل مستتراً زماناً طويلاً وراء
القوة الحربية المسيطرة للامبراطورية العثمانية وملوك العجم وحكام المغل
في الهند تلك القوة التى حالت دون أن يحس المسلمون بما سيتبع مباشرة عن
موقفهم الجديد وإن بقاء هذه الحكومات لم يكن من شأنه إلا جعل الحصار من
الخارج أشد وطأة للعزلة التى فرضوها على أنفسهم . ولبعد هذه الامبراطوريات
عن أن يصل إليها تيار الأفكار الجديدة الخصب الذى ربما كان يساعدها على
مواجهة صروف ذلك الزمان المتقلبة فانها ظلت تجرى على التقاليد السياسية —
الدينية التى ورثتها عن الاسلام فى العصور الوسطى ودفعتها إلى أقصى نتائجها
وإذا رجعنا إلى موقفنا الذى نقفه فى التاريخ إلى ذلك النظام كله ألقيناه حالة
تأخر عظيم يخفيه الستار الامبراطورى ووجدنا أنه لن يقوى على المحافظة على
كيانه إلى الأبد فى عالم متقلب .

وفى تلك الاثناء سار العالم المسيحى فى الهجوم الاقتصادى بخطوات سريعة
فالشركات التجارية الأوروبية لم تقف يباغت من المنافسات الدولية عند
احتكار حمل تجارة الدنيا القديمة فحيثما كانت السلطة السياسية المحلية تدعو إلى
التدخل كانوا يحلون حكمهم المباشر عليها وبذلك بدسوا ينشرون سلطانهم
السياسى شيئاً فشيئاً على بلاد إسلامية مختلفة وبدسوا فى نفس الوقت يشقون
بالقوة منفذاً فى العالم الإسلامى لمنتجاتهم الخاصة منافسين مصنوعات البلاد
المحلية . وإن الكفاح الذى انتهى بتوطيد هولنده قدمها فى جزر الهند الشرقية
وانجلترا قدمها فى الهند لا شهر من أن يذكر ولكن الناس لا يدركون دائماً أن هذا
الكفاح جرى غالباً على حساب الدول الإسلامية ولا هم يعنون بوجه عام
عناية كافية بالتدخل الاقتصادى الذى سار مقارناً لهذا النشاط السياسى وانتشر
فى مساحات أبعد مدى من تلك التى كانت هدف المطامع السياسة الأولى .
هذه الناحية من التدخل الأوروبى من الخطورة بحيث يحسن أن أقبس

شاهداً يكشف لنا عن وسيلتين مختلفتين تم بهما ذلك التدخل . لما احتل البرتغاليون هرمز في الخليج الفارسي في القرن السادس عشر قطعوا كل صلة بحرية بين الهند وفارس ليفوزوا باحتكار هذا الطريق ويقص الرحالة شاردين (Chardin) هذه الحكاية أحسن القصص : « حينما كانت تذهب أى فتم من تجار الفرس إلى هرمز طالبين إلى البرتغاليين أن يأذنوا لهم بالسفر كان رئيس البرتغاليين في هرمز يسألهم عما هم ذاهبون من أجله إلى جزر الهند الشرقية وأى نوع من البضائع يريدون أن يشتروا فأذا أجابوا قادمهم إلى مخزن المدينة حتى إذا أراهم المقادير الهائلة من تلك البضائع قال لهم : هنا ماتريدون فاشتروه أولاً وإن بقى معكم مال أمرنا أن يؤذن لكم بالسفر إلى جزر الهند الشرقية : وبهذه الصرامة كان البرتغاليون يرغمون التجار الأجانب إما على أن يعودوا أصفار الأيدي وإما أن يتناعوا منهم ما أرادوا من بضائع بأى سعر يرضيهم ، وقد نشأ عن هذا أن الفرس عقدوا معاهدة مع الانجليز على أن يتشاركوا في مهاجمة هرمز على شرط أن يقتسموا الغنيمة وأن يسمح للانجليز بحلب بضائع معفاة من الرسوم إلى بندر عباس وأن يكون لهم نصف الضرائب الجمركية على كل البضائع المستوردة . استولوا أخيراً على هرمز عام ١٦٢٣ م . وسمح للبضائع الانجليزية بالدخول معفاة من الرسوم حسب الاتفاق ومع ذلك فقد أخل بنصوص المعاهدة على الدوام وفي ١٦٧٠ م رفع المفوضون الانجليز إلى الحكومة الفارسية شكوى رسمية لهذا السبب . أخفقت الشكوى في بلوغ غرضها ولكن الامر كما يقول شاردين صدقاً ، الحق أن الفرس ملومون في هذه النقطة لان المعاهدات يجب أن تحترم إلى أقصى ما فيها ولكن يجب أن تقر بانهم يشكرون لسماحهم للتجارة الانجليزية بالدخول في جميع أنحاء إمبراطوريتهم معفاة من كل أنواع الضرائب ولدفعهم كل عام خمسين ألف جنيه نظير خدمة كانت تؤدي قبل ذلك بخمسين عاماً ويمكن أن يقال إنه دفع

لهم من أجلها حتى في ذلك الحين مبلغ أكثر مما تستحق .

وإن النتيجة النهائية للمنافسة بين الصناعات المحلية المختلة إلى حد ما وبين الجهود المنظمة للاستيلاء على السوق الشرقي لتصرف نتاج المصانع الأوروبية هذه النتيجة لم تكن محلا للريب طويلا وربما كان فتح تجارة النقل إلى أوروبا مباشرة مما بعث نشاطا مؤقتا في بعض الصناعات الوطنية ولكن جلب البضائع إلى الشرق كان لا بد مؤديا آخر الأمر إلى تأخيرها أو القضاء عليها . وكان بحسب البلاد الآسيوية هذه الخسارة الاقتصادية العظيمة ولكن الأوروبيين بتشجيعهم لإخراج المواد الخام لمصانعهم الخاصة قيدوا حياة هذه البلاد الاقتصادية بالحياة الاقتصادية في بلادهم وفرضوا عليها من الضعف الاقتصادي وعدم الاستقلال ما لم تستطع التخلص منه بسهولة . لم يفلت المسلمون من الضرر الشامل ومع أنهم لم يبدوا في إدراك كل ورطات موقعهم الاقتصادي إلا منذ عهد قريب جداً فانهم لما عرفوا الحقيقة زادت بالطبع من حقهم وعدائهم للذين أثارتهم أول الأمر أسباب سياسية واجتماعية - دينية .

وحتى آخر القرن التاسع عشر كان هذا التدخل السياسى والاقتصادى فى البلاد الإسلامية متركزاً فى الغالب على الهلال الجنوبى وكان سيره بطيئاً بعض البطء ونكاد لا نرى دليلاً على أن مسلمى آسيا الغربية وتركيا كانوا متأثرين تأثراً جدياً بما يقسم لآخوانهم فى الهند وأندونيسيا لأن حياتهم السياسية كانت من التدهور بحيث لا تسمح لهم بأن يهتموا اهتماماً جدياً بالحركات السياسية فى أى مكان ومع هذا فإن التدخل الأوروبى بعد أن بدأ بحملة نابليون على مصر زادت خطواته فجأة فى القرن التاسع عشر وأخذ يغزو الهلال الشمالى كذلك وسرعان ما تجسد شيخ السلطان المسيحى فى شكل عدو المسلمين اعتداء سريعاً يكاد يكون وحشياً : وهل نعجب من أن المسلمين بجميع طبقاتهم قد شعروا بانتهاك أعظم مشاعرهم حينما رأوا بلادهم تقع واحدة بعد أخرى

في قبضة أعدائهم الأقدمين وحينما أدركوا أنه لولا ما بين الممالك الأوروبية من أحقاد لاخفت آثار الاستقلال الإسلامي دفعة واحدة ويجب أن نعترف أيضاً أن مسلك الأوروبيين أنفسهم والمكافة الممتازة التي تمتعوا بها في ظل الامتيازات وإساءة كثير من أشخاص لاخلاق لهم استعمال هذه الامتيازات كل هذه قلما كان من شأنها أن تسكن روعهم وقلأحس المسلمون — إن حقاً وإن باطلاً — أنهم أنفسهم وأن دينهم وكل عزيز لديهم يعتبر في عين الأجنبي من متعلقات مدنية متحطة معها كانت هذه الحقيقة مستترة وراء الاختلاط الظاهري وليس يسرنا أن نضطر إلى إعادة ذكرى هذه الحقائق ويجب علينا أن نقابلها مسرورين بأمثلة مشهورة لثبث العكس ولكن الأمانة تقضى علينا أن نسلم بأن قلة الرأفة والعطف من جانب الأوروبيين كان من شأنها أن تجعل الضريبة أقسى مما كان يصح .

ولقد كان مسلك العالم الإسلامي في مجموعه حيال هذا الانقلاب الذي اعتري الأوضاع المقررة مسلكاً تمازجه دهشة وحقن كظيم . رأى المسلمون الدنيا قد انقلبت رأساً على عقب وكان سبب ذلك أمامهم سرأ غامضاً وحدث إلى جانب هذا ميل طبيعي من جانبهم إلى أن يزدادوا انكماشاً في أنفسهم وأن يولوا الدخلاء أديارهم وأن يسيروا سيرتهم راجين أن تعيد الأيام الأمور إلى نصابها أخيراً فكانوا بهذا يؤكدون من جديد صفة تقليدية تميزت بها الحياة السياسية الإسلامية . فنذاً أكثر من عشرة قرون كان فقهاء الإسلام يلقنون الناس بمناسبة وبغير مناسبة وجوب طاعة أولى الأمر سواء أ كانت حكومتهم شرعية أو معتصبة وقد عزز القابضون على السلطة أنفسهم هذا المبدأ بطريقة مؤكدة له حتى يخيل إلينا أن الهدوء السياسي فطري في الشعوب الإسلامية . وإن تحمل الظلم وفساد الحكم دون شكوى : هذا التحمل الذي ملأ الباحثين الأوروبيين دهشة أدى إلى رمي الإسلام بأنه عقيدة

الاستسلام والخضوع ولكن هذا لم يكن البتة أكثر من بعض الحقيقة ذلك أن الاستسلام بهذا المعنى المطلق أقرب لأن يكون نتيجة منه لأن يكون سبباً فإن الغفلة السياسية التي أظهرها جمهور السكان حيال التغيرات السياسية كانت ترجع غالباً إلى أسباب طبيعية أقواها الفقر الاقتصادي .

على أنه إذا كان الاستسلام للأقدار والحوادث السياسية من المميزات التي يمتاز بها مسلك جمهور المسلمين فقد كانت في العالم الإسلامي عناصر أخرى سلكت حيال الضغط الأوروبي مسلكتاً يخالف ذلك مخالفة كبيرة وبأثير بواعث أخرى فقد أشفق الحكام على سلطانهم وعلى المزايا التي أغدقوا عليها وعلى حياة البذخ التي تمتعوا بها على حساب رعاياهم وعلى ما لهم من عزة السلطان وخاف زعماء الدين على سلامة العقيدة . كان الخطر بيناً للفريقين وربما كان ينتظر أن يوحى إليهما أن يتحدا ويعملا معا دفاعاً عما ورثوه وكان الزعماء المسلمون السياسيون على الأقل من الحكمة بحيث أدركوا أنهم إن استطاعوا أن يعثوا من عواطف رعيته الدينية جيشاً ينصرهم قدر وأعلى أن يواجهوا اعتداءات العالم المسيحي بحصن منيع ويمكن أن ترى أول دلائل هذه النزعة في نص المعاهدة التي أرغمت فيها دولة إسلامية قوية لأول مرة أمام دولة مسيحية على أن تتنازل عن النخلة التقليدية للإسلام حيال المسيحية . فقد تعهد الباب العالي صراحة بمقتضى نصوص معاهدة " كوجك قايينارجه " التي أبرمت بين روسيا وتركيا في ١٧٧٤م ألا يعوق بأي طريقة من الطرق حرية إقامة الديانة المسيحية ولا يضع عقبات في سبيل تشييد كنائس جديدة وإصلاح الكنائس القديمة . قد تبدو هذه مسألة تافهة ولكن روسيا أحدثت بهذين الشرطين ثلعة في الشريعة الإسلامية التي ينصت حرية إقامة الدين المسيحي منعت في شدة وصراحة تشييد كنائس جديدة وإصلاح الكنائس

القديمة (١) وفي نفس الوقت اعترفت المعاهدة بحق ، السلطان بحكم ، أنه خليفة الدين الاسلامي صاحب السيادة ، في أن يحمي مصالح المسلمين أينما كانوا وأن يشرع لهم في حدود الطاعة الواجبة عليهم ، للقوانين التي تملها عليهم شريعتهم ، . هذا التأكيد المتكرر لمهام الخلافة وحقوقها السياسية ليتمتع بها سلاطين آل عثمان قدرله أن يلعب دوراً هاماً فيما تلا ذلك من تاريخ العالم الاسلامي حتى أن زيادة الانسحاب فيه قليلا لا تعد مضيعة للوقت والجهد . وكانت دعوى هذه الحقوق في جوهرها رجوعاً إلى دور قديم من أدوار التاريخ الاسلامي ومحاولة لصقل سلاح ونظام يصلحان للعصر الحديث بعد أن نبذا منذ قرون وإن لم يعزبا عن شرح المسلمين للنظرية السياسية وفق ما يمتازون به من محافظة على القديم .

إن الخليفة بحكم منصبه ووظيفته هو الشخص الذي يتمثل فيه السلطان الديني للشيعة الاسلامية هو الشخص المنوط بحفظ سلطان الشريعة الأعلى من الاعتداء في الخارج والعصاة في الداخل جميعاً ولما كان الخليفة مقيداً بالشريعة فلا يباح له تعديلها أو تأويلها من تلقاء نفسه ولكنه مكلف بمهمة تنفيذ أحكامها فحسب وفي اضطلاله بهذا العبء خول مطالبة جميع المسلمين بطاعة لا تردد فيها كالتى تجب عليهم للشيعة نفسها فنصبه إذن سياسى في جوهره ولكن الدعائم التى تقوم عليها سلطته دينية قبل كل شىء ومن ثم كان

(١) ربما كان هذا الكلام في حاجة إلى تفصيل فلقد جاء في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع قه حنفى ٧ ص ١١٤ مانصه « ولوانهدمت كنيسة فلهم أن يبنوها كما كانت وأما في القرى أوفى موضع ليس من أمصار المسلمين فلا يمنعون من إحداث الكنائس والبيع كما لا يمنعون من إظهار بيع الخمر والخنازير ، . فالمنع من إحداث كنائس جديدة إنما هو الأمصار .

الزعماء والمعلمون الدينيون هم أجدر من يثق بالخليفة بتأييدهم ويركن آمنا غاية الأمن إليهم ونستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه الحقيقة لم تكن غائبة عن أفهام مستشاري السلطان عبد الحميد الأول حينما وضعت نصوص معاهدة « كوجك قاينارجه » .

ولكن عوامل كثيرة حالت دون تحقيق هذه الخطة تحقيقاً كاملاً فإن الأيام العظيمة في القرن السابع والثامن حين كان يحكم العالم الإسلامي بحذاقيره خليفة واحد قد تركت أثرها في المثل الأعلى للحكومة الإسلامية ولكن التباين بين المثل الأعلى والواقع صار يزداد شيئاً فشيئاً في القرون التالية فوجب الطاعة المطلقة المفروضة على الرعية قوى في الحكام شهوة الحكم ، الأوتوقراطية ، وجاء وقت انتقلت فيه السلطة ، الأوتوقراطية ، من قبضة الخلفاء إلى قبضة حكام ليس لهم صفة دينية وكان واجب الخضوع للسلطة القائمة لا يزال مؤسساً من الناحية النظرية على المبدأ الديني القائل بأن الحكم هبة من الله ولكن حل محل الاجلال الديني القديم الأذعان للأمر الواقع إذعانا يشوبه التذمر . واتخذ زعماء الدين بوجه خاص مسلكاً بعيداً بعض البعد عن القابضين على السلطة الزمنية ولما سقطت الخلافة العباسية تحت ضربات المغل في ١٢٥٨ م ساد الرأي القائل بأن الخلافة من حيث هي هيئة ذات سلطان قد أفلت شمسها وعلى ذلك لم تكن في العالم الإسلامي خلافة بأي معنى صحيح لهذه الكلمة مدة تزيد على خمسة قرون وانمحي على مر الزمان شعور الولاء والتقديس الذي كانت تبعثه في النفوس .

ولكن التأكيد المتكرر للخلافة (وإن أصبحت شبحاً) لم يكن في ذاته ألبتة حركة فارغة ليس فيها رجاء فان العقيدة التي قامت عليها الخلافة وهي ضرورة الوحدة في العالم الإسلامي ظلت كما رأينا عنصراً قوياً في الفكر الإسلامي موجداً بين الشعوب الإسلامية صلة من التراحم الذي لم يفلح

الانحلال السياسى فى القضاء عليه والذى يمكن مئى تولته الزعامة الصحيحة أن يكون أساساً لاستفزاز جهود عامة للدفاع عن قضية الاسلام وربما كان المأمول من الماثرة على إذاعة الدعوى العثمانية التى كانت تعززها القصة (التى يظهر أنها أذيعت حوالى ذلك الوقت) القائلة بأن آخر ممثل صورى للخلافة العباسية نزل عن حقوقه للسلطان العثمانى فى ١٥١٧ م (١) . أن تبعث ما كان يحيط بمنصب الخلافة قديماً وأن تخلع على السلطنة العثمانية ثوباً من المهابة الدينية التى تحشد تحت لوائها كل قوة الاسلام المعنوية وقوته المادية إن اقتضى الأمر لحماية ميراثه من العالم المسيحى .

ولكن تلك الخطة كانت تعوقها عقبات خطيرة متأصلة فى الكيان السياسى للعالم الاسلامى بصرف النظر عن العوامل الخارجية أيا كانت . ولعل القارىء قد لاحظ أننا فى وصفنا للوحدة فى العالم الاسلامى وجهنا عنايتنا للأواصر الدينية والثقافية ولم نذكر شيئاً قط عن الروابط السياسية . ولهذا سببه الوجه ذلك أن التاريخ السياسى للجماعة الاسلامية سار على وتيرة خاصة به لم تنسق قط أوهى اتسقت نادراً مع حياتها الداخلية ولعل تناول هذه النقطة فى هذا المقام يبعد بنا عن موضوعنا وستبدو بعض الأسباب الرئيسية مما قيل فى مكان آخر من هذه الصفحات إنما الذى يعنينا الآن هو النتائج وهذه على الأقل ليست موضعاً للشك وأهم ما يعنينا ليس هو تكرار انحلال الامبراطوريات الاسلامية بل هو انقسام العالم الاسلامى تدريجياً الى مناطق متمايزة اتسعت بينها الشقة السياسية على الدوام وكان هذا الانقسام ينزع قبل سقوط الخلافة الى فصل منطقة فارسية - تركية (تركية فى القيادة فارسية - اسلامية فى اللغة والثقافة) فى الشمال الشرقى لمنطقة عربية فى الجنوب الغربى مع تحديد الحركات السياسية

(١) يشير الى تنازل الخليفة العباسى للسلطان سليم الاول .

في كل منها بما يتناسب مع اتساعها . وقد ازداد الانفصال في القرون التالية حينما ساعد ضغط المغل في الوسط على اتساع العالم الاسلامي سياسياً بامتداد المنطقة الفارسية — التركية من كلا جانبيها ولذلك كان النزوع متجهاً إذ ذاك بكل قوته إلى نقل السلطة من المركز إلى الأطراف أكثر مما كان متجهاً إلى السعي المخفوق وراء وحدة سياسية جديدة .

وفي فجر القرن السادس عشر نشأ وضع مشوم بقيام إمبراطورية فارسية جديدة لم تكثف بقطع صلة الاتراك العثمانيين بالشرق والهند ولكنها باعتناقها مذهب الشيعة ديناً للدولة حالت دون التنظيم السياسي العام من جديد . وفي نفس الوقت تقريباً ابتلعت الإمبراطورية العثمانية الجزء الأكبر من المنطقة العربية الأولى مع ما يمتاز به من خواص الثقافة العربية الإسلامية ومن ثم سارت الحدود الرئيسية إذ ذاك بين الشمال والجنوب : في الغرب الإمبراطورية العثمانية (مع بقاء مرا كش مستقلة في المغرب الأقصى) وفي الوسط فارس الشيعية وفي الشرق إمبراطورية المغل في الهند وأندونيسيا وقد ظل هذا التقسيم إلى أيامنا هذه . من أجل هذا فإن محاولة إيجاد خلافة عثمانية لتكوين وسيلة لايجاد وحدة سياسية أقوى تأثيراً لم يكن يرجى لها النجاح والحالة هذه إلا في المنطقة الغربية لأن فارس وقفت حائلاً منيعاً دون أي انتشار فيما عدا ذلك

ومن جهة أخرى كان يمكن لحطة الجامعة الإسلامية أن تركز إلى استنفار الرأي العام مؤيداً لا غرضها وأن تأمل أن قوة الرأي العام ذاته ستنتهي إلى عمل منظم ولكن التقاليد السياسية للعالم الاسلامي اعترضت الطريق هنا مرة أخرى ذلك أن ألف عام من الاوتوقراطية الحقود التي تعمدت اتباع سياسة القضاء على كل أثر للنشاط السياسي بين رعاياها ، بأعنف الوسائل ، ألف عام من الاستسلام السياسي أمر المسلمون فيها باسم الدين أن يؤدوا الطاعة العمياء

حتى لحاكم فاسد الاخلاق إلقاء ضرر أكبر قد ينشا عن الحرب الأهلية والفوضى ، هذه الالف عام أودت بكل الوسائل التي تعين على تنظيم الجهود العامة للدفاع عن مصالح الجميع ومع أنه أتى وقت نهيات فيه من جديد القدرة على التنظيم السياسى وذلك بتأثير نفس العوامل التي حاولت فكرة الجامعة الاسلامية أن تجتنبها إلا أن ذلك لم يتم إلا حينما كانت فكرة الجامعة الاسلامية العثمانية تلفظ النفس الأخير. وما كانت تستطيع فكرة الجامعة الاسلامية في تلك الأثناء أن تعمل إلا عن طريق الوسائل الادارية القائمة تأتمر إتهاراً آلياً بما يصدر إليها من عل فكانت لذلك فاقدة أهم عنصر فيها وهو السير بقوتها الذاتية . وقد كان أكبر عامل مساعد لحركة الجامعة الاسلامية أن العالم الاسلامى كان في كل مكان واقفاً موقف المدافع ومتلهفاً على العثور على وسيلة تعينه على أن يستعيد سلطانه على مصائر أموره . وأى شيء أكثر تمشياً مع طبيعة الأشياء من أن يتمس تلك الوسيلة أولاً في الشعور بالوحدة الدينية الذى كان على كل حال أكبر قوة مشتركة ؟ على أن حاجة المسلمين إلى التعاضد ، تلك الحاجة التي ربما كانت نفسية أكثر مما كانت مادية هي التي وضعت المظهر الدينى في المكان الأول وقد عولت فكرة الجامعة الاسلامية على مثل عليا وعواطف يألفها ويشترك فيها كل المسلمين ماعدا فرقة الشيعة وتعزها التعاليم والتقاليد الاسلامية الأولى ولو أن أصحابها سعوا إليها في ثبات ونزاهة في قضية الاسلام لا تشويهاً شائبة ، وبخاصة لو أن زعماءها فهموا الواقع حق الفهم وكانوا قادرين على الملاءمة بين سياستها ووسائلها وبين القوى الجديدة التي كانت تجتاح العالم الاسلامى لتبين أنها ناجحة آخر الأمر ولكنها باعادتها للعالم الاسلامى احترامه لنفسه وثقته بها سبباً في رخاء اقتصادى جديد لا في انعاش سياسى لحسب وربما كان يسرى في رسالة البرنس « مترنخ » المشهورة التي بعث بها إلى المصلحين الأتراك الأولين ، روح من التهمك أقل وبعد نظر صادق أكثر مما

نسب لها أحيانا : « أقيموا حكومتكم على أساس احترام أنظمتكم الدينية التي هي دعامة وجودكم دولة قوية ، سايروا الزمان وابحثوا عن مطالبه ، أدخلوا النظام في إدارتكم وأصلحوها ولكن لا تقلبوا أوضاعها بأن تستبدلوا بها الأنظمة التي لا تليق بكم والتي تعرض الحاكم لعار الجهل بقيمة ما يتلف وما يحل محله . . . نصح للباب العالي ألا يقلد الدول التي يتعارض تشريعها الأساسي مع تقاليد الباب العالي وأن يتحاشى في عناية إدخال الإصلاحات التي ليس من شأنها إلا تفكيك عرى الوحدة في البلاد الإسلامية لأنها ستكون في هذه الحالة صفراً من كل قوة منشئة منظمة ، .

والواقع أن فكرة الجامعة الإسلامية رغم عدم تواربها عن الأنظار ورغم أن أنصارها سعوا لها الفينة بعد الفينة طول القرن التاسع عشر حتى بلغت ذروتها في حكم السلطان عبد الحميد الثاني قدر لها أن تنحطم على صخرتين أولاهما أخلاق الأشخاص الذين ادعوا الخلافة ومطامعهم وفساد إدارتهم ولست بحاجة أن أقول في هذا الصدد أكثر من أن داعية الحركة الإسلامية كبر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وهو السيد جمال الدين الأفغانى كان صريحاً في فضح الاستبداد والحكم الفاسد للذين وجدوا سائدين في الممالك الإسلامية المستقلة ولم يكونوا أقل سيادة في الإمبراطورية العثمانية غير أن المثل الأعلى لفكرة الجامعة كان مغرياً جداً وكانت المصالح والعواطف التي أهاب بها من القوة بحيث أن الفكرة أمكنها أن توقف شعوراً يعطف عليها في كل جزء من الأمة الإسلامية . وإنه وإن كانت الفكرة قد قوبلت بأعظم الحاس لدى الذين لم تكن لهم خبرة شخصية بحكومة الإمبراطورية العثمانية ولا سيما لدى مسلمى الهند الذين شعروا بعد سحق أسرة المغل بالحاجة إلى التأيد الخارجى أمام خطر النهضة الهندوكية ، فقد كان من نتائجها إيقاظ الشعور بالوحدة الإسلامية من جديد وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل حتى ذلك الوقت وإن تكوين فرق « الهلال الأحمر ،

الطبية للخدمة مع الجيش التركي وإنشاء سكة حديد الحجاز بمال اكتتب به من كافة أجزاء العالم الإسلامي كانا دليلين حسيين كافيين على إثبات نجاح الدعاية العثمانية وقد لا نكون مبايعين إن زعمنا أن التأثير النفسى للحركة يكاد يشاهد فى كل ما تلا ذلك من حركات فى المجتمعات الإسلامية حتى حينما كانت أغراض هذه الحركات غير ملتزمة تمام الالتئام مع السياسة الدقيقة لفكرة الجامعة الإسلامية لأن هذه الفكرة من جهة أنها وضعت للعالم الإسلامى برنامجاً محكماً كانت تسعى وراء أغراض رجعية استبدادية وهنا توجد نقطة ضعفها الأساسى فى عصر كانت القوى موزعة فيه كما كانت فى القرن التاسع عشر . ولكن أى حركة فى تلك الناحية الرجعية كانت قد أصبحت مستحيلة ومهما كان المسلمون جاهدين جادين فى إستبعاد الأفكار الجديدة ناشطين فى معارضة إنتشارها فقد كانت غاية سعيهم مقضيا عليها بالفشل وخيبة الرجاء ذلك أن التفوق العقى والمسادى لأوروبا الغربية — إذا صرفنا النظر عن تفوقها الاقتصادى — كان من القوة بحيث لم يكن بدمن أن يشق طريقه فى حياة الأمة الإسلامية رغم كل مقاومة وعلى ذلك قدر لفكرة الجامعة الإسلامية أن يكون مبدؤها السياسى عنصراً مضعفاً وباعثاً على التنافر أكثر من أن يكون عاملاً مقورياً على الاضطلاع بأعادة تنظيم مظهر العالم الإسلامى وتحقيق أمانيه .

وقد كانت هذه فى الواقع هى الصخرة الثانية التى تحطمت عليها فكرة الجامعة الإسلامية . ففى نفس الوقت تقريباً ابتدأ تيار من الفكر مضاد لها وأخذ يشق طريقه فى العالم الإسلامى وأخذت فكرة جديدة تلقى قبولا متزايداً بين الزعماء السياسيين فى مصر وتركيا أولاً وفى البلاد الأخرى بعد ذلك وكان أساس تلك الفكرة هذا السؤال : كيف تسنى لأوروبا أن تسبقنا فجأة فى كل ميادين النشاط الإنسانى — فى تنظيم الحياة السياسية والاقتصادية وفى العلم وقوة الاختراع وفى كل العوامل التى تحفظ تماسك الأمة وتقوى

إرادتها وبحشوا فيما حولهم عن الجواب وحسبوا أنه ربما يكون في الأنظمة السياسية والحرية للغرب وفي تنظيم التعليم . على أنهم سخطوا من الزعم الشائع بين أهل العلم في أوروبا وهو أن السبب الأكبر لتقهقر الشرق دين لا يسائر التقدم واعتقدوا مخلصين أن المسلمين يمكنهم أن يظلوا على إسلامهم ويمكنهم مع ذلك أن يصلحوا أنظمتهم حتى تتلام مع تقاليد وحاجات العصر الحديث ، فلم يكن المثل الأعلى الذي وضعه المصلحون نصب أعينهم انقلاباً في المبادئ والأخلاق والأنظمة الاجتماعية بل أن يقتبسوا من المظاهر المادية لحياة أوروبا السياسية وتنظيمها الفني ما يعيد للدول الإسلامية القوة والرخاء وكان هذا هو الغرض الذي سعى إليه ساسة الترك بحظوظ مختلفة من التوفيق فيما بين ١٨٣٩ ، ١٨٧٨ م وسعى إليه محمد علي والخديوي إسماعيل في ناحيته الحرية والاقتصادية في مصر ولكن فيما يختص بالتنظيم السياسي والاقتصادي أعنى في النواحي التي اتجهت إليها الهمم أكثر مما اتجهت لغيرها كانت النتيجة فشلاً ذريعاً فقد ظهر الاستبداد حينما اعتلى عبد الحميد الثاني عرش تركيا أرسخ قدماً منه في أي عهد سابق ولم تأت سنة ١٨٧٨ حتى كانت الحالة الاقتصادية في كل من مصر وتركيا أسوأ بدرجة لا تقاس بما كانت عليه قبل ذلك بخمسين سنة .

وأول سبب لهذا الفشل أن المصلحين لم تترك لهم الفرصة الملائمة فمن أول الأمر وقف في طريقهم برنامج الجامعة الإسلامية منافساً وظل السلاطين ورجال الدين يؤيدون الأساس الشرعي الذي تقوم عليه فكرة الجامعة الإسلامية حتى حينما كان المبدأ السياسي لتلك الفكرة يوضع في المحل الثاني ، ومعنى هذا أن السلطات العليا كانت ترغب عن أي عمل قد يسلبها تأييد جمهور الرأي العام الإسلامي ولسوء الحظ كان الرأي الإسلامي كما يقوده رجال الدين ويترجمون عنه معادياً لأي تدابير يتخذها المصلحون أمر العداء فإن أريد إلغاء الرق قيل إن الشريعة الإسلامية تقره وإن أريد إقامة المساواة في

المكافأة بين جميع الرعايا فيل إن الشريعة تصر على تبعية غير المسلمين وإن أريد إصلاح إدارة القضاء قيل إن الشريعة لا تسمح بأى قانون سواها ، وإن أريد إنشاء أنظمة نيابية قيل إن الشريعة لا تعرف شيئاً من هذا ولا تسمح بحق التشريع وهكذا واجه المصلحون في كل موضوع رفضاً باسم تعاليم الإسلام المقدسة فكانت الاجراءات التي أدخلوها قهراً عديمة الاثر من أول الامر لأن المقاومة التي واجهتها منعتها بالفعل من أن تؤدي عملها ، اوعلى الأقل من أن تؤديه كما أريد بها وبهذا وقف كل حزب في طريق برنامج صاحبه وحال دون تحقيق مثله العليا تحقيقاً عملياً ، وعلى بعد تركيا من أن تسترد شيئاً مما ضاع منها فانها فقدت كلا الناحيتين وإن خيل للناس في آخر القرن التاسع عشر أن برنامج الجامعة الإسلامية قد فاز على منافسه .

ولكن النصر حتى في ميدانه الضيق (لانه أخفق في بلوغ النتائج السياسية التي كان ينتظر منه أن يبلغها) قدر له أن يكون قصير الاجل ، فقد كانت هناك قوة مخربة تأكل قلب المجتمع الإسلامي على حين غفلة من المسلمين المحافظين ومن حزب الإصلاح السياسي أيضا رغم أنها وليدة حركتهم . رأينا أن المصلحين جعلوا التعليم إحدى دعائم برنامجهم وقد نفذت هذه الخطة ببطء في مصر وأولاً وبعد قليل في تركيا ، وإن كان نصيب التعليم الابتدائي (ولو أن ذلك أفاد أيضا إلى حد ما) أقل من نصيب التعليم العالي والفني للصناعات ولتدريب الخبراء الحريين والاقتصاديين وضباط الإدارة . وإن طبيعة هذه المؤسسات (كمدسة الطب المشهورة في القاهرة) تظهر بوضوح تحيز المصلحين للتواحي العملية والمادية من التعليم الأوروبي ولكنهم وقد تقدموا الخطوة الأولى لم يكن في طوقهم وضع حد لما قد ينجم من النتائج فكيف يمكن تموين هذه المدارس بالأساتذة ؟ بديهي أن تمون بالأساتذة الأوروبيين أو بالتعلمين في أوروبا ، ورغبوا بطبيعة الحال في أن يدرّسوا أساتذة من عندهم

وبهذا أوسع المجال للمؤثرات التي كانوا يرجون تجنبها وزادوا في قوتها. فليس هناك طالب ذكي يقضى ثلاث أو أربع سنين في عاصمة أوروبية مختلطا بأهلها كل يوم وقارئاما يكتبون خيردوشره من غير أن يشرب في نفسه شيئا أكثر من قشور المدينة الغرية. ثم عاد الطلبة أفراداً وبعوثاً لدراسات فية فحسب ولكن بجرائيم الأفكار السياسة بل بجرائيم العادات الاجتماعية أحيانا — مما كان متضارباً مع تقاليدهم الموروثة. وقد كان الأثر في مجموعته ضعيفاً في الجيل الأول ولكنه تضاعف في الجيل الثاني وظل يتضاعف باطراد. وبما فشلت حركة الإصلاح في أول هجومها على حصن من السلطة المطلقة والتقاليد الإسلامية ولكنها تركت مهمتها عن غير قصد إلى خصم أقوى وأشدّ عداءاً للتقاليد :

وإذا رجعنا البصر من هذه المسافة أمكننا أن نعين بالضبط نقطة ضعف المصلحين الأولين والسبب الأكبر لفشلهم، ذلك أنهم لم يدركوا أن الأنظمة الغرية التي رغبوا فيها ليست مجرد معالم تنظيم ظاهرية، وفاتهم أنها تعبير عن فلسفة خاصة تقوم على عادات قومية في التفكير نضجت ببطء خلال القرون لتواطي حاجات وغايات نظام اجتماعي متباين النواحي، لم يدركوا أنه بينما كان بناء المجتمع الإسلامي قائماً على آراء العصور الوسطى وبينما كانت نظراته للحياة متأثرة بمنازع تلك العصور كانت أوروبا قد تحررت نهائياً من أغلال العصور الوسطى، ولم يدركوا أن المدينتين اللتين كانتا يوماً متشابهتين تشابهاً عظيماً رغم الخصومات الدينية قد اتسعت بينهما الشقة تدريجياً حتى أن العناصر والأصول المشتركة أصبحت فيما يظهر تافهة إذا قورنت بالفروق بينهما، ثم نسوا فوق هذا أن الأنظمة لن تؤدي عملها إلا إذا كان اتخاذها مؤيداً برغبة الأمة وأن هذه الإرادة الاجتماعية ثمرة لتربية وطنية بأوسع معنى لهذين اللفظين ولعلمهم قد أضلّتهم الثورة الفرنسية بمفاجأتها الظاهرة وبالغنى الذي بدا لهم أنها حطمت به أنظمة قديمة واستبدلت بها مجموعة من الأنظمة

الجديدة وربما ظنوا أن الخول السياسي الموروث في الأمم الإسلامية سيسمح بفرض أنظمة جديدة دون شديد مقاومة ومهما يكن السبب فانهم أخطأوا، ذلك أن أنظمة الغرب السياسية والاقتصادية لا يمكن أن تنقل وتتجسأ نأاح إلا إذا شعر الناس أنها تفي بأأابة ولا بد أولاً أن يمد لها السيل بنظام في التعليم يتفق معها ويستطيع أن يخلق الأأابة إليها ويكون في نفس الوقت رأياً عاماً مستيراً راقياً يمكن أن يوكل إليه استثمار الأنظمة الجديدة ولكن يتفق مثل ذلك التعليم مع الأنظمة الجديدة لم يكن في طوؤه أن يتفادى إدخال نظرة جديدة في الأياة وفلسفة جديدة تشبهان تينكم اللتين أوجدتا الأنظمة نفسها . وقد أحدث هذا قطع صلة بالماضى قطعاً أخطر كثيراً مما خطر على بال المصلحين الأولين ذلك أن المسلمين المحدثين يمكن أن يظفوا على دينهم ولكنهم لا يستطيعون أن يظفوا مشاركين لأخوانهم المحافظين في آرائهم عن تكوين المجتمع ومكان الدين فيه وفي تلك الأثناء بينما كان الخول السياسي قاضياً على ماعمله الأصلاحات على أى حال فقامت مقاليد الأرية السياسية في أيدي خصومها الرجعيين لم يكن ممكناً أن تسال أى تأييد من الرأى العام . وبالأختصار فإن خطأ المصلحين هو أنهم حاولوا البناء من غير وسائل البناء وظنوا أن الناس يمكن أن يحشدو للقيام بأواجبات الوطنية كما يحشد الجند من غير مبالاة بمقائدهم وآرائهم ونسوا أن الصورة المادية الظاهرة لا يمكن اقتزاعها عن الباعث الروحى فى الصميم .

ولقد ترك فشلهم الطريق مفتوحاً أمام وسيلة لتناول الأمور تكون أكثر إيفاناً بالنأاح إن الأصلاحات الاجتماعية لا تتأاح إذا فرضتها أوامر السلطة العالية كيفما اتفق ولا يتسنى لأحد أن يأمل فى بلوغ نتائج دائمة إلا إذا كان إدخال الأصلاح إستأابة للأأاح مستمر من الرأى العام والأواقع أن السير المشوب بشئ من عدم الانتظام فى هذه الناحية صفة يمتاز بها العالم

الإسلامي في عشرات السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر. رأينا كيف أن التعليم الفني تحت رعاية المصلحين كان يربي بالتدريج في طبقة ممتازة من أصحاب المهن الفنيين ميلا إلى الأخذ بوجهة نظر الغرب ولكن هذا في ذاته كان قليل الأثر فلأنهم نشأوا في ظل نظام التعليم القديم وفي الجو الاجتماعي القديم كان ميلهم إلى الأنظمة الغربية ضئيلا . وإن إدخال طرائق جديدة في الفكر كان يتطلب نظاما جديدا في التربية من عهد الطفولة — في المدارس الابتدائية والثانوية قبل الانتقال للدراسات العالية والفنية . أما إن هذا النظام شيء مرغوب فيه في نهاية الأمر فمسألة أخرى لا تعنينا الآن . وعلى أي حال فإن إصلاح التعليم على هذا النحو لم يكن في ذلك الوقت يخطر على بال السلطات المدنية الإسلامية ولو أنها أرادت له الاستطاعت تنفيذه أمام مقاومة رجال الدين وبسبب قلة وجود الأساتذة . ولكن هذا الفراغ ملأته هيئات أخرى فقد انتشرت من منتصف القرن التاسع عشر شبكة واسعة من المدارس في معظم البلاد الإسلامية ولا سيما في تركيا وسوريا ومصر وذلك يرجع غالبا إلى جهود جمعيات تبشيرية مسيحية مختلفة . وربما كان أكثرها عددا المدارس الفرنسية : كاثوليكية وعلمانية ثم تليها المدارس الأمريكية والإيطالية واليونانية وقد كانت المدارس الإنجليزية في الإمبراطورية العثمانية أقل منها في الهند وكانت المدارس الهولندية قاصرة على جزر الهند الشرقية ومها قيل عما بين هذه المدارس من منافسات ورغم ما ترمى به من نزعة حزبية ضيقة وصبغة طائفية ورداءة تربيتها في كثير من الأحيان فإنها أثرت تأثيراً عظيماً في العالم الإسلامي . كان تعليمها أرقى من كل ما يعطى في غيرها ولهذا كان يدخلها عدد عظيم من أبناء الطبقتين العليا والوسطى سواء في ذلك البنون والبنات . هذه المدارس صاغت أخلاق التلاميذ وكونت فوقهم والأهم أنها علمتهم اللغات الأوروبية التي جعلت التلاميذ قادرين على الاتصال المباشر بالفكر الأوروبي

فصاروا في مستقبل حياتهم مستعدين للتأثر بالمؤثرات التي فعلت فيهم فعلاً أيام الطفولة . وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر نفذت هذه الخطة إلى أبعد من ذلك بأنما التعليم العلماني تحت الإشراف الانجليزي في مصر والهند ، ولعل هناك نصيباً من الحق في التهمة التي ترمى بها هذه المدارس الأجنبية من أنها مفسدة لقومية التلاميذ وإن كنا لا نستطيع القول بأن التطورات السياسية التي أعقبت ذلك في البلاد الإسلامية أيدت هذه التهمة ، ولكن الذي فعلته بلا ريب أنهاربت في التلاميذ خروجاً على الأنظمة الاجتماعية وعلى السياسية إلى حد ما في أوطانهم الأصلية ، وباضعافها من هذه الوجوه لسلطان النزعة الإسلامية القديمة على التلاميذ أدخلت في بناء المجتمع الإسلامي أداة هادمة وقطعت بعض الأواصر التي كانت تحفظ تماسكه .

أما المسلمون المحافظون فانهم ، تمسّيام وجهة نظرهم ، عارضوا هذه النزعات للمجرد أن نشر التعليم الغربي كان معناه إفلات القوة التي استأثروا بها طويلاً من قبضتهم ، فالذين أدركوا منهم أن الإسلام كل لا يتجزأ من الأنظمة الاجتماعية والسياسية والدينية لم يملكوا أنفسهم عن أن يظلوا على أشد العداء للذين ، بتخليهم عن عاداتهم واحدة إثر واحدة ، قد برهنوا على تحررهم من ثقافة العالم الإسلامي الثالثة وظهروا في مظهر من يتهدد كل شيء حتى الإسلام نفسه ، وكثيراً ما كانت معارضتهم تدور فيها يلبو حول مسائل تافهة كما حدث أن أحد أساتذة الدين كان في أواخر القرن التاسع عشر يشرح القرآن لطائفة من شبان المسلمين المتقنين ثقافة انجليزية ، ففسر إحدى الآيات الكثيرة التي تصف كيف سيقذف بالفاسقين في النار فقال : « الفاسقون هم الذين لا يؤمنون بالله ، هم الكذابون والزناة والصوص والقتلة والذين لا يحفون شواربهم ، وحوالي ذلك الوقت نفسه كان واعظ مسلم مستقل يعظ الناس في مدينة دلهي فاعترض على بعض ما قاله طالب هندي شاب بعد أن أصغى إليه قاطعه الواعظ قائلاً : « لا يحق لك أن

تتكلم في هذه المسائل لأنك لست مسلماً ، فأجابه الشاب في شيء من الحماسة
« انى مسلم مثل ما أنت مسلم ، فقال الواعظ : لا ، انك لست مسلماً فانظر
إلى سراويلك ، وكانت منسلة الى ماتحت الكعبين على خلاف عادة
المسلمين المتطهرين .

ولكن مثل هذه الأمثلة — على كثرتها — ستضلنا أبعد الضلال إن
رمينا هؤلاء الناس من أجملها بالجود المذرف ، فانها لا تدل على عقل عاجز عن
التمييز بين الجوهرى وغير الجوهرى بقدر ما تدل على عقل شديد الانحلال
لميراث الاسلام مفراط في الاعتقاد بقداصة أصل أنظمتة حتى أن مخالفة
أقل أمر من أوامره معناها رفض جزء من نعمة الله ، ولنعذر من أن نعد هذا
تعلقاً بالسفاسف فان الإمام الغزالى وهو أسلم فقهاء الاسلام فى العصور
الوسطى نظراً وأشدهم نفاذاً فى حقائق الأمور لم يأنف من توجيه أكبر
العناية لهذه الدقائق فى الناحية العملية ، وقد رأى المحدثون من أنصاره
مخلصين مثله لمبادئهم أن إهمال هذه الأشياء هو الشرارة التى تندلع منها
النيران وإنى أكرر القول أنهم من وجهة نظرهم كانوا على صواب فان
الانخذ بالشك والاجتهاد بالرأى لم يكونا بحاجة إلى أكثر من أن يُشرع
فيها وأين سينتهى ذلك ؟ إن رفض الأمور الصغيرة علامة على ثورة
فكرية ليس من شأنها إلا تحطيم صرح الثقافة الإسلامية التالدة من أساسه
تحطياً شاملاً ، بل ربما تودى إلى شن الغارة على الدين الإسلامى نفسه
ولتذكر بعد كل هذا أن كل العواطف التى تفرنها بحب الوطن كانت عند
هؤلاء الناس بحكمة الصلة ببناء المجتمع الإسلامى وأنه لم يسعهم إلا أن
يعتبروا محقين إلى حد كبير أن ضعف هذا البناء انتصار حاسم لقوى أوربا .
وقد كان اشتداد هذا التنازع فى المجتمع الإسلامى وزيادة حدته من
أهم ما يميز حياة الشعوب الإسلامية أثناء الجزء الثانى من القرن التاسع

عشركا رأينا ومع ذلك يصعب أن نضع حدودا تاريخية لتأثيره : كان من أول النتائج التي نجمت عنه أنه زعزع تلك الفكرة القديمة ، فكرة أن العالم الإسلامي توحده ثقافة واحدة وتسيطر عليه تقاليد واحدة ، حقا لقد بقيت رابطة العطف والماضي المشترك والعقيدة المشتركة ولكن امتزاج الأفكار المأخوذة من الغرب بدرجات متفاوتة كان قد بدأ ينزع إلى تمييز كل مملكة عن الممالك الأخرى ، فقد صار لهذه الأفكار في بعض البلاد سلطان يمكنها من تعديل الأنظمة القديمة تعديلا عظيما وقلب وجهة نظر المفكرين أما في البعض الآخر فلم تكن قد عرفت بعد ولم يأت آخر القرن التاسع عشر حتى كان من المحتمل أن ينجح إقليم أو اقليمان في التغلب على هذا الكفاح ولكن لا تزال هناك بلاد إسلامية لم تبلغ هذه الأفكار فيها درجة من القوة وقد مال الباحثون المعاصرون بطبيعة الحال إلى اعتبار أن تفاوت الثقافة في البلاد الإسلامية والكفاح بين المصلحين وأنصار التقاليد علامة على انحلال تهديد الوحدة الإسلامية وعلى أن الثقافة الإسلامية الثالثة لن تزال أكثر من البقاء في بعض بلاد وصفوها بأنها « متأخرة » ، ونستطيع أن نرى مقدما أنهم كانوا متسرعين في استنباط هذا الحكم ولكن كان ولا يزال صحيحا أن العضلة المشتركة بين المسلمين جميعا قد صارت في المحل الثاني إلى حد كبير بسبب نشوء سلسلة من العضلات المحلية الخاصة واجهت كل إقليم على حدة وبسبب أن حل تلك العضلة لا بد أن يسير مع حل العضلات المحلية جنبا لجنب :

وعلى هذا فإنا نعد قادرين على بحث العالم الإسلامي في جملة بل لا بد أن نوجه عنايتنا للبلاد الإسلامية كل على حدة ولمسلك كل منها على انفراد إزاء تيار الاستغراب . ولقد يكون مستحيلا في هذا المقام أن نتبع بتفصيل مجرى الحوادث في كل إقليم ولا سيما أنها ليست سواء في ظروفها

بالنظر للمعضلة التي نعالج الآن . ومن هذه الوجهة نستطيع أن نفرق بين البلاد التي كانت تحت الاشراف الأوروبي مباشرة وبين التي كانت مائزلة مستقلة في كيانها السياسي لأن الأخيرة كانت فيما يظهر أوفر نصيباً من حرية الاختيار ولأن الأولى كانت ترغبها الظروف على أن تقبل المدنية الأوروبية إلى حد ما على الأقل . ولكن هذه التفرقة ليست في الواقع قائمة على أساس جوهري لأن الحيدة التي التزمتها الحكومات الأوروبية إزاء الأمور الدينية والاجتماعية جعلت كل جماعة إسلامية تواجه المعضلة بطريقة الخاصة ووسائلها الخاصة ما عدا استعمال القوة بالطبع ، على حين أن الضغط الواقع على البلاد المستقلة من جهة أخرى وهي تحاول صيانة استقلالها (أو استعادته كما في مصر) أرغم الكثير منها على اتخاذ إجراءات إن لم تكن على الدوام قد أحسن فهمها أو تنفيذها فقد أدت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى روح غريبة أكثر تطرفاً مما بدا في البلاد التي تحت الاشراف الأوروبي . إن المعيار الصحيح الذي تقاس به أهمية البلاد الإسلامية بعضها بالنسبة إلى بعض هو مقدار تأثير كل منها في الفكر الإسلامي في مجموعه . فالبلاد النائية المترامية على الجانبين كان نصيبها من هذا ضئيلاً والمغرب — رغم ما يربطه بمصر من أواصر كثيرة — نهج طريقاً خاصاً به كما أن مشا كل أندونيسيا الخاصة بها والتي ستدرس درساً وافياً في موضعها لم تحرك العالم الإسلامي إلا قليلاً ومن جهة أخرى فإن الهند شاركت بنصيب مبتكر وصف في الفصل الرابع وسنمسه هنا بقدر ما كان مثالا تحتذي به البلاد الأخرى . وكذلك الأمر مع مسلمي روسيا وآسيا الوسطى فانهم كونوا جماعة قائمة بذاتها لم يصبر لها بعض الشأن إلا في السنوات الأخيرة . ولكن قلب الإسلام كان دائماً ولا يزال في الكتلة الوسطى التي تتكون من تركيا ومصر وآسيا الغربية وقد كان من هذه البلاد أكثر من سواها أن انبعثت أهم المثرات الإسلامية الحاضرة ومن ثم

فلها يجب أن نكرس أكبر عذيتنا الآن .

وقد كان أظهر ما يبدو في هذه المنطقة حتى العقد الأول من القرن الحالى تلك الهوة السحيقة التى بين النزعة الغربية العظيمة كما تبدو فى مصر وكما تبدو بدرجة أقل فى تركيا وبين النزعة المحافظة المقترنة بالتأخر الثقافى فى البلاد الأخرى ، فأما داخل سوريا والعراق وفارس والافغان فأنه ظل تكاد لاتمسسه موجة الاستغراب ، وأما فى جزيرة العرب نفسها فقد طغت النزعة المحافظة حتى نشأت عنها ثورة رجعية مفرطة لم تقتصر على اطراح الأفكار الغربية الجديدة قبل دنوها ولكنها نبذت كل آراء العصور المتوسطة التى دخلت فى تراث الاسلام واعتبرتها من سقط المتاع ونشطت فى الدعوة إلى الرجوع لآراء المسلمين ومثلهم العليا فى الصدر الأول وقهرت الناس على ذلك ، فظهرت الوهاية فى مظهر المعارض على خط مستقيم لكل النزعات التى كانت سائرة منما فى البلاد الإسلامية الأخرى وظهرت كأنها منعزلة بحكم ظروف تطورها وتاريخها ، وأنها حركة لا يمكن أن يكون لها مستقبل سوى ما يكون لفرقة دينية فى بلاد العرب . حقاً لقد اعتبرت جهدا ضائعا ولم يستطع أبعد الباحثين نظرا لافى العالم الإسلامى ولا فى خارجه أن يتكهن بالدور الذى كان لها أن تلعبه فى الفكر الإسلامى فى سنوات قليلة .

وبفضل الدعاية لفكرة الجامعة الإسلامية ظل العالم الإسلامى طويلا يرى فى تركيا الزعيم الطبيعى للإسلام ، وأصعب من ذلك أن نحدد متى تقدمت مصر إلى مكان الزعامة . إن وراء كل منهما ماضيا طويلا بعض الطول أخذتا فيه بحضارة الغرب ولكن مع اختلاف فى الخصائص والنتائج فى كلا البلدين فأما فى تركيا فإن الأخذ بحضارة الغرب كان أضيق مجالا ورغم أنه قد تغلغل فيها بقدر ما تغلغل فى مصر فقد كانت فكرة الجامعة الإسلامية المنافسة له عقبة دائمة فى سبيله ، وأما مصر فكان الأمر فيها على

العكس ، ذلك أن ميول الخديوى إسماعيل إلى صبغ البلاد بالصبغة الأوروبية عززت النزعة الغربية بعض التعزيز وهذه النزعة بما نالت من حرية أوسع في ظهورها كانت أو فرحظاً في الناحية الأدبية والتعليمية ولم يكن حظها في ميدان الحياة السياسية إلا قليلاً ، أما السواد الأعظم في كلا البلدين فإنه كان لا يزال غارقاً في عاداته القديمة . ولكن في مثل هذه الحركات — وهذه مسألة تحتاج لشيء من التأكيد والتكرير — إنما نعتد بالزعماء . وأكثر ما يدهشنا من معالم النزعات الجديدة إنشاء أدب جديد فيما بين ١٨٦٠ — ١٨٨٠ وأكبر من ذلك إنشاء صحافة تذيب الأخبار ولكن بينا كانت الرقابة شديدة على الصحف التركية وكانت الصحف الهامة ذات صبغة رسمية أو أبواقاً مأجورة لفكرة الجامعة الإسلامية كانت الصحافة المصرية مستقلة في الغالب عن الحكومة وكانت آراؤها مجتدة قوية التجديد حتى استطاعت أن تكون عضداً قوياً للزعماء الاستغراب في كفاحهم لاستنفار الرأي العام إلى جانبهم .

على أنه بينا كانت الصحافة باستثمارها وإكالتها للتقدم العام في التعليم هي العامل الأكبر في إذاعة الأفكار الغربية في الجمهور كان هناك عامل يفضلها كثيراً في قوته على التأثير في الحياة السياسية للبلاد الإسلامية المستقلة . أشرنا في بحثنا لبرنامج الجامعة الإسلامية إلى أنه مهما قوى ميل فريق من الناس إلى خطة ما فإن هذا الميل لا يتقلب محاولة فعلية يتضافر فيها الجميع إذا كانت قدرة الناس على تحقيق ما يشعرون به بطريقة مثمرة منظمة قد تلاشت من عدم استثمارها ، وقبل أن توتى الحركة التعليمية ثمرها دائماً كان لابد من معالجة هذا الضعف بتعريف الناس على تنظيم الجهود لتحقيق الغايات السياسية والثقافية ولكن عاملاً واحداً صان دولاب العمل من أن يتطرق إليه الفساد ، ذلك هو الجيش ، وأول ما أدخلت الناحية الفنية من المدنية الغربية كان في الجيش ، في مصر وتركيا وفي فارس بعد ذلك وإن اتخذ أساليب وآلات

الحرب الأوروبية وتدريب الجند على النظام الأوروبي في الأعداد الحربى انتهى بجعل الجيش أكثر عناصر الحياة السياسية تأثراً بالنزعة الأوروبية وبأن جعل لضباط الجيش كفة راجحة فى أى حركة ترمى إلى إصلاح الهيئة السياسية وإذن فلا عجب أن نرى المصلحين الأولين وقد عيل صبرهم من فداحة عبء تنظيم الرأى العام يتطلعون إلى الجيش ليعينهم على تحقيق أغراضهم ولا عجب أن نرى ضباط الجيش أنفسهم يأخذون بحظ عظيم فى تأييد الإصلاحات ومن جهة أخرى فصحيح أن إدخال فن الحرب الأوروبي أحدث نتائج هامة تمثلت فى تنظيم مؤسسات اجتماعية أخرى على الطراز الأوروبي كالمستشفيات والمدارس الفنية والأعمال الصحية غير أن مثل الإصلاح العليا التى تملك نفوس رجال الجيش كانت سطحية وكانت أضيق مجالاً من نظائرها عند الطبقات المثقفة ثقافة أوروبية كما أن وسائلهم كانت أكثر عنفاً وأشد تعسفاً .

وعلى هذا ففى كل من تركيا ومصر كانت المحاولات الأولى فى سبيل الإصلاح السياسى تنتهى بثورة يقوم بها رجال الجيش ولكن النيات الأولى ووسائل العمل والنتائج كانت متباينة فى كلتا الحالتين ففى تركيا ارتد النجاح الذى أحرزوه أول الأمر فشلاً ووقفت حركة التقدم ثلاثين سنة بسبب حيل عبد الحميد الثانى ، ولكن انتصار الاستبداد وما صاحبه من قمع جعل الجيش بؤرة للاضطراب السياسى أكثر منه فى أى عهد سابق حتى أن ضباط الجيش لعبوا الدور الأكبر فى كل التطورات التالية فى تركيا وحتى أن هيئة كالأحزاب المنظمة ذات البرامج السياسية والثقافية الناشئة فى البلاد الإسلامية الأخرى لم تفلح فى توطيد مركزها إلى جانب الحزب الحربى القابض على أعنة الأمور . وكان لهذا أثره فى طبيعة حركة الإصلاح التركية فهو من جهة جعل سيرها عنيفاً غير منتظم ومن

جهة أخرى حال دون إنشاء هيئة منظمة تتضافر فيها عوامل الإصلاح القوية على الانتفاع بما ينال من نجاح حتى يكون أساسا لتقدم مطرد وفي هذه الظروف لم تكن الحركة التركية—حتى قبل عصر القومية—إلا مجرد حركة وطنية أو محلية في مداها وهي ينما ضربت مثلاً لترضية البلاد الإسلامية الأخرى أو تنكره لم يكن عندها ما يعين تلك البلاد على حل معضلاتها الخاصة التي كان محورها الأول علاقات الإسلام بالقوى الجديدة الآتية من الغرب .

وقد نجحت مصر نفسها من مثل هذا المصير بكل مشقة فقد أفلحت هنا — مصر — حركة حرية مدة من الزمان في نيل تأييد المصلحين الدستوريين بل في نيل معاضدة المحافظين من زعماء الدين ونجحت في إثارة بركان من الشعور الوطني ضد تركيا أولاً وضد التدخل الأوروبي بعد ذلك . ولعل من العبث أن تسكن بالنتائج النهائية التي كانت تنشأ عن الثورة التي قادها عرابي باشا ولكن لا يتصور العقل أنها كانت تؤدي إلى نتائج مشمرة كالتى جعلت لمصر نفوذها البارز في العالم الإسلامى اليوم ومهما يكن إخماد الثورة وإقامة الإشراف البريطانى وصمة سياسية في ظاهر الأمر فانهما في الحق جعلتا حركة الاستغراب تتسع وتعمق مجاريها وصارت القاهرة مأوى كل القوى النشيطة في العالم الإسلامى وميدان التنازع للغلبة تحت يد المنتسب السامى المصرة وعينه الساهرة التي لم تكن دائماً تفهم حقيقة الأمور وكان لمصر من الأثر وهو المعهد الوحيد للتمكن في الدراسات الإسلامية العالية والذي يجتذب طلابه من جميع أصقاع العالم الإسلامى لسان يعبر بقوة لا تبارى عن آراء أهل السنة وكان الفارون السياسيون من تركيا وغيرها من بلاد الإسلام يجتنبون في مصر مأوى لهم ويتسمون فيها الحرية ويسعون لتحقيق غاياتهم وإن المجتهدين من كتاب سوريا وقد كمتهم الرقابة الشديدة في بلادهم أتوا إلى مصر زرافات وزادوا الصحافة المصرية قوة

حملت ثمارها وآراها إلى الآفاق، وكان نشر التعليم الأول في الوقت نفسه سبباً في توسيع الدائرة التي أمكن للصحافة أن تؤثر فيها في داخل البلاد، كما أن ازدياد الاتصال الفكري بأوروبا قوى تأثير الاستغراب بين الطبقات العليا والوسطى، بل تحول المركز العقلي لفكرة الجامعة الإسلامية عن القسطنطينية إلى القاهرة قبل نهاية القرن التاسع عشر وقد مست الحركة الفكرية كل نواحي الحياة الجديدة والموروثة وكانت تنطوي على حياة قوية شديدة الحركة وإن لم يستطع الباحثون المعاصرون أن يروا إلا ما كان يعلوها من زبد. وقد أرغم المعارضون المحافظون على الأذعان شيئاً فشيئاً وعن غير رضا أو شعور وكلما أحرز المصلحون نصراً جديداً حفزهم ذلك إلى عمل جديد، ولا شك أن مهاله معناه أن أولى تبلور حركة الإصلاح الاجتماعي كان في مصر وحدها وأن ذلك كان حول مسألة حرية المرأة ولا شيء يرينا بوضوح أكثر من هذا كيف غارت أصول النزعة الحديثة وكيف كانت تغير آراء قادة الفكر في مصر تغييراً عميقاً وتقلبها قلباً — على أنه إذا كان المسلمون المحافظون قد أخذهم على هذا النحو وهم كارهون تيار الاستغراب الجارف فقد كان من المحتمل أن مجرى الحوادث سيؤدي إلى شقة كبيرة بين أنصار التجديد وبين المدافعين عن ميراث الإسلام ولكن المجددين حتى أكثرهم تطرفاً تفروا لأسباب كثيرة من أن يتخذوا مثل هذه الخطوة، فالظروف السياسية لا أمر واحد تطلبت صيانة الوحدة في وجه الدولة المحتلة (وربما كانت هذه أخيراً هي أكبر ثمرات الإشراف البريطاني في مصر) ولكن الباعث الأول لم يكن الدهاء السياسي الذي ينطوي على انتهاز الفرصة دون مبالاة بالمبدأ، فإن المصلحين المصريين رغم ثقافتهم الغربية وقبولهم للأفكار الغربية كانوا ما يزالون يشعرون بصلتهم الوثيقة بالإسلام ولم يضعف فيهم شعور العطف على سائر العالم

الاسلامى ، ولم تصادف قبولاً لديهم نزعاً لوحظت في بعض البلاد الاسلامية ترمى الى تكوين احزاب تنزع منزع التوفيق بين النحل والاديان ، فاما الذى رغبوا فيه - وربما لم يكن بعد عندهم فكرة واضحة عنه - فهو أن يروا الاسلام في مجموعه قد دخله الاصلاح بما يتلاءم مع الافكار الجديدة ، وفي أثناء ذلك قبلوا تعاليد وأنظمتها الثالثة مع تحفظات أضمروها في أنفسهم ثم واصلوا الكفاح للسير بالدين في طريق التطور كي يتجدد وينشط مرة أخرى . وإذا كان نالوا في كفاحهم تأييداً لم يكن يخطر لهم على بال ، فقد كان حتماً أن تقوم عاجلاً أو آجلاً محاولة للتوفيق بين أغراض الحزبين ومثلها العليا ، كان هنا من جهة الرقي العلمى الذى لا مراء فيه والذى تم بفضل وسائل البحث العلمية ، ومن جهة أخرى كانت هنا أيضاً القوة العظيمة الخلقية والدينية للاسلام ومؤكداً أن انفصالهما كان قاضياً على كليهما قضاء محتماً وقد أخذ المسلمون المخلصون يتسامحون : ألا يكون ما يخافه الدينيون من نتائج ضارة تحدثها الدراسات الحديثة ناشئاً عن تأثير لا يتفق مع قواعد الاسلام تحدثه المدارس التى تلقى فيها تلك الدراسات وعن عدم وجود قانون خلقى يحفظ من الزلل ؟ وإذا استطعنا الجمع بينهما ، إذا استطعنا أن نجعل الدراسة العلمية في جو اسلامى ، في المعاهد العلمية الاسلامية ألا يستفيد الطرفان ؟ ألا يجنى الطالب ثمرة النظامين ؟ وكانت في الهند أول تجربة كبيرة على هذا النمو حين وضع سر سيد أحمد خان أساس الكلية الاسلامية الانجليزية الشرقية ، (الجامعة الاسلامية الآن) Mohammedan Anglo-Oriental College في مدينة عليكرة في الاقاليم المتحدة ، ويظهر أن الفضل في هذه الخطوة الخطيرة كان راجعاً الى شخصية المؤسس البارزة أكثر منه الى أى حركة طائفية في الهند ذاتها ولكن ليس عجباً أن تخطى هذه الخطوة في الهند بدلاً من مصر أو تركيا ، ذلك أن الاتصال المباشر بأوروبا لم يكن يسيراً وكثير الوقوع لمسلمي الهند كما كان لاخوانهم في البحر الأبيض المتوسط ، كانوا إما يزلون

بعينين بعدا كبيرا عن التأثير بمؤثرات أوروبية أبلغ فعلا كانت تعمل عملها في الشرق
الاذنى . على أن الهنود المسلمين قد استهوتهم بقوة خاصة فكرة الجامعة الإسلامية
وذلك لأسباب محلية ويرجع لهذه الأسباب ذاتها أن هذه الخطوة الأولى التي خطاها
مريد أحمد خان ، رغم آثارها البعيدة المدى في الإسلام في الهند ، لم ينسج أحد على
منوالها مباشرة في أي مكان . غير أن الأفكار التي تأسست عايمها كلية عليكرة أخذت
تدب أيضا في نفوس أهل السنة في مصر ولكنها هنا نزعزت نزعة أعظم خطورة
وأوسع شمولا للجماعة الإسلامية في جملتها ، لم تكن هذه النزعة أقل من محاولة تأويل
العقائد الإسلامية من جديد وصوغها بما يتلاءم مع الفكر الحديث ولكن الذين
قاموا بهذا لم يكونوا من العلمانيين المثقفين ثقافة أوروبية بل قام به جماعة من الفقهاء
الاصفيين . وإذا أردنا أن نفهم الخطورة النامة لهذه الحركة ولوسائلها يجب أن
نلقى نظرة عجيلى على إحدى مميزات منهج علم الفقه الإسلامى . لقد رأينا أن
الإسلام الأول خرج من جزيرة العرب مرنا بعض المرونة وأنه قضى قرنين
أوزهاها عاملا على تكيف نفسه مع البيئات التي حل فيها وعلى وضع تفاصيل
علومه الفقهية وقد بلغ هذا الأمر كماله بفضل جهود العلماء والفقهاء الذين أقر لهم
الجميع بالقدرة على الاجتهاد واستنباط أحكام حاسمة في مسائل العقائد والأحكام
ومتى صدرت هذه الأحكام اعتبرت غير قابلة للتغيير ، ثم أخذنا باب الاجتهاد
يضيق تدريجيا إلى أن انتهى إلى مسائل قليلة الخطر حتى إذا ما بات في أمرها أغلق باب
الاجتهاد نهائيا ، ومن ذلك الحين لم يكن لعالم عند أهل السنة مهيا ارتفع شأنه
أن يدعى لنفسه لقب مجتهد (أما عند الشيعة فإن التابيين من علماء الدين
لا يزالون يحملونه هذا اللقب حتى اليوم) وظل أهل السنة ما يقرب من
عشرة قرون يسرون في حياتهم الدينية بالتقليد ، أعنى بمقتضى أحكام
السلف المتقدمين .

كانت هذه العقيدة هي موضوع الجدل بين الأحرار من قهواء مصر الذين

ذهبوا يؤكدون أن تغير ظروف الحياة وأن النزعات الفكرية الجديدة يجعلان اطراح مجرد التقليد وفتح باب الاجتهاد من جديد أمراً محتماً، ويؤكدون أن تنافر الاسلام مع الفكر الحديث إنما يعزى إلى ما يحيط به من المذاهب الجدلية البالية للعصور المتوسطة وأن الاسلام — على عكس ذلك — إذا فهم حق الفهم في صورته الأصلية فإنه يكون على تمام الوفاق مع نتائج البحث العلمى المحصنة ، بل إنه ليكون أكثر توافقاً مع تلك النتائج من أى نظام دينى آخر . وقد وجدوا زعيماً عظيماً فى شخص الشيخ محمد عبده (المتوفى سنة ١٩٠٥) الذى يعد من أشهر الشخصيات المحترمة فى تاريخ الاسلام الحديث والذى جذبت اليه شخصيته ومواهبه طائفة كبيرة من المعجبين به وأكسبت الحركة أتباعاً كثيرين لا فى مصر فحسب ولكن فى البلاد الإسلامية الأخرى . على أنه إذا كانت الطبقات ذات الثقافة الاوروبية قد شرحت صدرأ بهذا التعزيز الجديد للاسلام فيجب ألا يدور بخلدنا أنه أدى إلى أى تنقيح تناول صميم العقيدة الإسلامية . فان كتابات الشيخ محمد عبده تمتاز بشيء من الجلقة فى روحها أكثر مما تمتاز بعنصرية فى الفكر والمبدأ ، وربما كانت حيطته دون كل ما عداها هى التى جعلت لأرائه قيمة لدى الجيل الناشئ من الباحثين . كان لعمله أهمية مزدوجة : فإنه وضع أساساً لتأويل الاسلام من جديد من غير أن يقطع الصلة بتاريخه الماضى وإنه بحكم رياسته للأزهر شرع فى مهمة إصلاح التعليم بإدخال العلوم الحديثه فى المنهج وبهذا عمل كثيراً على توسيع رأى أهل السنة وأزال الحاجز الذى كان يقوم بين الاسلام والحياة الحديثه فى مصر وفى كل بلاد وصل إليها تأثيره ، ثم واصل تلاميذه مابداً من عمل وهم وإن لم يبلغوا مبلغ شخصيته الباسلة فقد حملوا مبادئه بكتاباتهم وجهودهم الشخصية إلى جميع أجزاء العالم الاسلامى وأثروا تأثيراً كبيراً ولا سيما عن طريق مجلته الشهيرة « المنار » .

وقد بقي لسوء الحظ حزب قوى من الرأى الاسلامى ولا سيما فى الهند
مصرأ على الخصام ونظر إلى حركة عليكرة ومدرسة الشيخ محمد عبده بعين
ليست أقل ارباباً منها بالمفكرين المثقفين ثقافة أوروية ، وبهذا المسلك عمل هذا
الحزب كثيراً على إضعاف الإسلام وإضعاف نفسه فى نفس الوقت الذى
بدأت تظهر فيه النتائج الخطرة للتعليم الغربى فى العقد الاول من القرن الحاضر .
وربما كان عسيراً أن تقرر متى تبوأَت فكرة القومية الغربية الحديثة مكاناً من
التفكير السياسى عند المسلمين ، ولا شك أن الطريق قد مهد لها منذ زمان طويل فى
تركيا ومصر وأنها بمعنى ما كانت أساس كثير من التطور السياسى فى البلدين
جميعاً طول القرن التاسع عشر ، وإن الثورة المصرية لسنة ١٨٧٩-١٨٨٢ بوجه
خاص كما رأينا كانت ذات صبغة قومية واضحة ومع ذلك فقد كان هناك فرق
عظيم بين هذه الحركات التى ترمى إلى الاستقلال السياسى وبين فكرة القومية
الغربية التى ليس لها صبغة دينية ، فمثلاً نستطيع أن نفهم لماذا أيد شيخ الإسلام
فى الامبراطورية العثمانية وهو أرقى شخصية دينية موقرة انقلاب الحكومة
فى القسطنطينية فى ١٨٧٦ ولماذا انضم الشيخ محمد عبده وزعماء فكرة الجامعة
الإسلامية إلى حركة عرابى باشا ، وتطورت نقطة النزاع إلى شىء
أبعد مدى مما كان فى ذلك الحين ، لم تكن الحركات السياسية وحدها بل
كانت معها الأفكار التى تقوم عليها الحركات السياسية هى التى بدأت تصب العالم
الإسلامى فى قالب جديد وتهزه بما لم يسبق لمعشيل منذ ألف عام ، وفى ظاهر
الأمم جاء الإصلاح السياسى أولاً ومعها الإصلاح الاجتماعى تابعاً ضئيل
الشأن ، أما الدين ومبادئه فقد تركا وحدهما عمداً لغرض مرسوم هو أن زعماء
القومية أبوا مخاصمة الشعور الدينى ، ومع ذلك فإن الشباب الذين تصدروا حركة
القومية بينما طرحوا الخمول الذى دام طويلاً وأحلوا محله نشاطاً سياسياً قوياً وأحياناً
عنيفاً نبذوا فى نفس الوقت الجزء الأكبر من وجهة نظر الإسلام الأولى

وقبلوا بدلها آراء الغرب السياسية الحديثة وأهم ما فيها مبدأ السيادة القومية واضطروا فوق هذا أن يقبلوا أصول هذه السيادة ولواحقها فيما يخص بتكوين الدولة وماهية القانون ووظيفته وحقوق المشتركين في الوطن وواجباتهم ، ولكن نظراً لتلك الصلة الوثيقة التي توجد - كما رأينا - في الإسلام بين العقائد والناحية العملية والاخلاق الاجتماعية والسياسية فلا بد أن انقلاباً في الآراء السياسية يؤثر بالضرورة في الإسلام من حيث هو نظام في الفكر وفلسفة في الحياة ومن حيث أنه دين .

ونستطيع أن نأخذ قضية مسلمة أن قليلاً من زعماء القومية الأولين كانوا شاعرين بهذه العواقب ذلك أن مطالبهم كانت في أول أطوارها قاصرة على إنشاء دساتير ومجالس نيابية على الطراز الأوروبي تصحب هذه المطالب في مصر حملة مصطفى كامل باشا العنيفة من أجل استقلال الوطن . أما المسألة الخاصة التي محورها علاقة هذه المطالب بالإسلام فإنها لم تظهر إلّا حينما أخذت الدساتير تعمل عملها ، ولم يكف يباح لها الوقت الذي يشتد فيه ساعدها حتى انفجرت الحرب الأوروبية الكبرى فقضت عليها . أما في فارس حيث ساعد تجانس الشعب أول الأمر على إخفاء المعضلة فقد تقرر صراحة في الدستور « أن القوانين التي يسنها مجلس النواب يجب ألا تناقض أصول الإسلام وشريعته » وقد اشتمل البرلمان على لجنة من خمسة « مجتهدين » ليكونوا رقباء دينيين على كل ما يعرض من تشريع .

ونكاد لانكون بحاجة إلى القول بأن مثل هذه الضمانات الكتابية مهما بلغت من القوة فلن تظل أبداً قوية على إخفاء مسألة هي أن تنظيم الدولة على أساس علماني لا بد أن يصطدم بحقوق الشريعة الإسلامية (١) إلا أن نمو

(١) يجب أن نقول هنا إن حيوية الإسلام ومرونته تمنعان مثل هذا الاصطدام

القومية حتى سنة ١٩١٤ قوة فعالة في العالم الاسلامى كان على العموم بطيئاً ورهين التجربة وقاصراً على بلاد قليلة ، وبالطبع بلغت القومية أقصى حد في تركيا حيث حلت أثناء السنوات القليلة التي قبل الحرب فكرة تريك الشعوب المختلفة في الامبراطورية العثمانية محل خطة الجامعة الاسلامية وأيقظت شعوراً معادياً لها من القومية العربية في سوريا والعراق بل في جزيرة العرب . وقد عملت حوادث الحرب ذاتها على تقوية شعور القومية كما عمل على ذلك إشراف الحلفاء في المناداة بحق « تقرير المصير » ، ولكن قليل من استطاع حتى في ذلك الحين أن يرى الصور الثورية العنيفة التي ستمثل فيها الحركات القومية في كل بقعة من العالم الاسلامى تقريباً وكان مصدر الباعث الأول مقاومة مواجهة ضد أوروبا ترجع غالباً إلى الغضب المرير والرعب اللذين آثارهما في شعوب الشرق بتحقيقهم أن معاهدات السلام على بعدها من منحهم حق تقرير المصير أدت فعلاً إلى امتداد الإشراف إلى أوروبا على مساحات واسعة في صميم العالم الاسلامى ، كما ترجع إلى شعور الحق على المظهر الذي بدت فيه « المدنية » الأوروبية في الحرب نفسها وفي مفاوضات السلام .

وأكثر مظاهر هذه المقاومة إثارة للدهشة وفي نفس الوقت أكثرها دلالة على التطور المقبل أنها لم تسرع من فورها بشعوب الشرق إلى أن يزدادوا تقديرًا للتضامن الاسلامى ولكنها على العكس بدت في صورة حركات اقليمية كل منها مستقلة عن الأخرى وتكاد لا تجد جماعة وقفت موقف الإصرار على

لو صدقت النية في تلافيه ولو فهم المصلحون الاسلام على حقيقته لا كما تصوره لهم الأهواء وهذا موضوع واسع لا ينبغي به هذا القيام وإنما آثرنا أن نلفت نظر القارىء فقط . (المترجم) .

المظهر الدولي للإسلام إلا الجماعة الإسلامية في الهند ، وكان الباعث المحرك حتى في هذه البلاد متأثراً تأثراً كبيراً بفكرة الدفاع عن الإسلام أمام القومية الهندوكية ، وكانت الفكرة التي قامت عليها حركة الثورة في كل ناحية أخرى هي نفس الفكرة التي أدت إلى ذلك الخراب الذي حدث في أوروبا وهي فكرة فصل الدين عن الدولة وأن الدولة تقوم على وحدة الجنس واللغة ، وكان طبعاً أن يبقى الإسلام ولكنه أصبح عند العقول المتشعبة بفكرة القومية واحداً من ضمن العناصر التي يتكون منها صرح الدولة . وقد يكون الدين الرسمي للدولة ولكنه سلب الحقوق التشريعية ونزل إلى مكانة الديانة المسيحية في الدول الأوروبية ، وقد اختلف تطبيق هذا المبدأ بطبيعة الحال وفق ظروف كل إقليم فحينما كانت الجماعة الإسلامية واحدة من جماعات دينية أخرى تربطها جميعاً القضية القومية كما في أندونيسيا فإن المسائل الدينية كانت بالطبع توضع في المحل الثاني ، أما في البلاد المتجانسة السكان مثل فارس فقد نزل الإسلام عن عرشه مجرد نزول ، وأما مصر فقد تسلسكت في اعتدال يسترعى النظر طريقاً وسطاً ورضيت حتى الآن أن يتم التغير المحتوم تحت ضغط الحوادث البطيء ، وأما تركيا فإن عملية الفسوق عن الدين سارت فيها إلى غايات متطرفة بوسائل عنيفة ولكن انتصار أفكار الغرب هذا الانتصار الحاسم لم يكتسب من غير مقاومة كينة واحتجاج من المسلمين على انحلال العالم الإسلامي إلى دول قومية تقوم على أساس لا صلة له بالدين وربما كان الأمر على أشده في البلاد العربية ولا سيما حيث يشعر الناس بالسيادة الأوروبية كالثقل ما تكون ولكنه قوى أيضاً في الهند وأندونيسيا ، وربما كان أقوى مما يبدو في الظاهر في تركيا وفارس ، وإن هذا الكفاح لتحقيق الوحدة الإسلامية هو المحور الذي تدور عليه المعضلة التي تهيج العالم الإسلامي اليوم والتي ستبحث تطوراتها في أربعة الفصول التالية :

الفصل الثانى

أفريقية (ماعدا مصر)

للأستاذ لويس ماسينيون

مقدمة

قبل أى بحث فى حركات الفكر الإسلامى الحاضرة لابد أن نفهم فى وضوح كيف تفعل تلك الحركات فعلها فى الجماعات الإسلامية وأن نفهم ما يميزها من هذه الناحية . وإن ربط الحوادث المتتالية لتكون سلسلة يظهر فيها التطور وهو المنهج الذى ألفناه أكثر من سواء هو الذى يندر وجوده بين المسلمين . والحركات التى تواجهنا فى الغالب كالبرق الخاطف والهزات التى تكاد لا تستغرق زمانا ، أو الانفجارات العنيفة التى تشتد برهة ثم تهدأ . فلا جرم كانت منهج المسلمين فى التاريخ ينزع غالبا إلى التجزئة لا إلى ربط الحوادث لتكون سلسلة متصلة الحلقات . والحركات الفكرية فى الإسلام تستعد فى خفاء وصمت وتسدل لجأة دون أن يسبقها نذير يمكن أن يرى ، وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة نستطيع تحليل ما يقع هكذا : أول الأدوار هو دور « النداء » ، « النداء الباطن » الذى يهيب بالضمير الاجتماعى ويوقظه وإن ظل فى حالة هدوء ظاهرى أو ظل كما يعبر عنه فى عرف طوائف مختلفة فى حالة « قعود » أو « تقية » أو « كتمان » ، وإذا نضج هذا النداء تبعه الدور الثانى مباشرة وهو دور « الدعوة » ، دعوة القبائل لامتشاق الحسام أو للنفير العام الذى يجاهد جنوده ليستردوا بالسيف ما تعطل من حقوق الشريعة . هذا هو المفهوم الذى يصدق على كل الحركات والذى يسمى

عند مختلف الجماعات وفي مختلف الاوقات « بالظهور ، أو « الدفع ، أو الخروج ، أو الشراء ، (شراء الانسان نفسه ابتغاء مرضاة الله) .
يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذ أردنا أن نذكر أى أساس واه تقوم عليه المنشآت الأوروبية في بلاد الاسلام ، فبعد أعوام من السكينة بما تتدلع بعتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما نكون توقعا لها ، وقد لا يكون هنا مجال نقد فكرة الجهاد في ذاتها بما يتفق مع وجهة نظر دعاة السلم وإن حاول نفر من دعاة المسلمين اليوم أن يبخسوا قدر الجهاد ويوهنوا من قوته ، فلا جرم أن من مقومات العزة في الاسلام أنه يحافظ في الحياة على هذه العقيدة وهي أن هناك أشياء أكبر من أن تكون بين الناس موضع مساومة ، بيع وشراء ، بل هي جديرة أن يمتشق للذود عنها الحسام .

— ١ —

لو درسنا الحالة على مصور أفريقية لوجدنا أن التغير الجوهرى الذى أحدثته القرن التاسع عشر في حركات الفكر في الاسلام ينحصر في انتقال محورها الرئيسى، ولقد حافظ المحور القديم الزاهب بين الشرق والغرب على تفوقه حتى ذلك القرن وجرت معه غربا تيارات الفكر والرأى من القاهرة إلى «سوس» ، فى أقصى الجنوب الغربى من مراكش ، أما اليوم فقد تغير وضع هذا المحور القديم فسار من «جاوه» فى الجنوب على نهر النيجر إلى مدينة الجزائر فى الشمال، ولناخذ بعض الأمثلة الإحصائية . كان تيار الهجرة حتى القرن الحاضر يسير من الشرق إلى الغرب والعكس ويرجع استعراب (Arabicization) أفريقية الشمالية فى جل أمره إلى هجرة القبائل العربية إليها من مصر، بينما كان فى مصر وفلسطين وسوريا من جهة أخرى جاليات نامية من المغاربة ، ومنذ ١٩١٠ أخذ عند هذه الجاليات فى نقصان وقل شأنها كثيراً ، ونشاهد هذه الظاهرة نفسها فى تضاؤل عدد الحجاج فكانوا فى ١٩١٠ يبلغون ١٨٠٠٠ منهم

٣٠٠٠ من أفريقية الغربية الفرنسية وفي ١٩٢٧ هبط عددهم إلى ٢٥٠٠ منهم ٧٥٠ من أفريقية الغربية الفرنسية .

وفي هذه الاثناء استمرت ظاهرة الهجرة بين الشمال والجنوب في الزيادة من غير انقطاع، يبدو هذا من جهة في تدفق المهاجرين كالسيل إلى فرنسا طلباً للعمل اليدوي، وزاد عددهم من ٥٠٠ حمال في ميناء مرسيليا إلى عدد عظيم، ١٥٠٠٠ عامل في ١٩٢٧، وفي كل قرية تقريباً من قرى البربرقة من عاشوا زمناً ما في فرنسا، ويبلغ هذا المبلغ في خطورة الشأن سيل طلبة الجامعات وغيرهم فقد زادوا من عدد ضئيل يبلغ العشرة في ١٩١٠ إلى ١٥٠ في ١٩٢٧ منهم ١٥ من أفريقية الغربية الفرنسية، وذلك من غير معاضدة أو تشجيع من الجهات الرسمية (التي تفضل بالطبع ألا يجاوزوا بلاد الجزائر) .

وإن من ينظر إلى مصور باريس يرى أن المسلمين المهاجرين من المغرب — وهم في الغالب من البربر — يقطنون أحياء متفرقة في مختلف نواحي باريس ويرى أنهم قد أفلحوا في التسرب إلى كل ناحية وأنهم اندمجوا في الحياة الاجتماعية الفرنسية، ولم ينقطعوا في حي مقفل كالحي الصيني في سان فرنسكو ثم إن حوالي ٧٠ في المائة منهم يلبثون أكثر من ثلاث سنين و ٢٠ في المائة يظهر أنهم وطلوا العزم على استيطان فرنسا، وتجنس عدد كبير منهم بالجنسية الفرنسية (١)

ولكي نحصر البيئة الاجتماعية الافريقية التي ندرسها في هذا الفصل لا بد أن نذكر باختصار بعض الأرقام . يبلغ مجموع سكان هذه البيئة زهاء ثلاثين مليوناً من المسلمين موزعة هكذا : ١٤ مليوناً في المغرب (تونس والجزائر

(1) See for further details, *Revue des Études Islamiques* [Paris: Guethner], 1930, Cahier 2 pp. 161 — 9, and for the Settlement of Moroccan Berbers in Paris, *ib.*, 1928, chier 5, pp. 477 — 80 .

ومراكش) و ٦ ملايين في أفريقية الغربية الفرنسية و ٨ ملايين في نيجيريا
ومليون في ليبيا ويبلغ عدد العرب ٩ ملايين فقط من هذا المجموع (٧ مليون
في المغرب و ٥٠٠،٠٠٠ في أفريقية الغربية الفرنسية ومليون في نيجيريا
و ٨٠٠٠٠٠ في ليبيا) ، أما الباقون فهم من البربر والقبائل والزنوج .

— ٢ —

وإذا نحن قارنا هذه البيئة الاجتماعية الإسلامية في المغرب بنظيرتها في
المشرق وجدنا قوارق ليست ظاهرة فحسب ولكنها تغلغل في الصميم. وإذا
نظرنا إلى الناحية الفكرية لم نجد في المغرب شخصيات بارزة كثيرة أو مفكرين
ناهين كالذين يكثرون في المشرق، وليست هناك جمعيات تقوم لنشر مبدأ دكالرابطة
الشرقية ، في مصر، ذلك أن لمسلمي المغرب عقولا عملية من الطراز الأوروبي ،
فانهم ولا سيما أهل الشمال منهم فرديون يضطلعون بحل مشكلات الحياة المادية
بطريقة عملية وقلم يضيعون وقتهم في الثروة النظرية . أما في عقيدتهم فقد
احتفظوا بصلابة موروثة عن صدر الإسلام حينما نهض البربر الذين دخلوا
في الإسلام وبدافع العداء لسوء حكم الخلفاء اعتنقوا مذهب المتطرفين من
الخوارج ، وقد غذت تلك العقيدة الصلبة اتباعهم مذهب الإمام مالك فيما بعد
(ومن الأمثلة الجديدة بالذكر على انتشار هذا المذهب أنه سائد الآن في السودان
المصري الانجليزي على حين أن المقريري يخبرنا أن شرق بحيرة شاد كان في
القرن الخامس عشر لا يزال شافعيًا) . والصفة التي يمتاز بها المغربي في الناحية
العقلية شيء من خلق العزيمة كثيراً ما يعوز عقلية أهل المشرق الذين هم أكثر
ذكاء ، وهو يجمع إلى هذا استعداداً للأخذ بالوسائل المادية في الحياة الفرنسية
ليتخذ منها أداة تعينه على بلوغ الغاية في أغراض الحياة العملية مادامت تلك
الوسائل لا تتناقض الإسلام ، ولا بد أن نفرق بوضوح بين هذه الاستعانة
بالمادية الغربية وبين تقليد الأخلاق الفرنسية تقليداً سطحياً مبهرجاً يجري

في المشرق باسم «التفريج» .

ماهي الأفكار السائدة بين مسلمي المغرب ؟ هي أولا ناشئة عن اختلاف الخطط التي يسلكها المسلمون إزاء اقتحام ثلاث دول لاثنية مسيحية قوية ثبت قدمها في البلاد عن طريق الاشراف السياسي أو الاستعمار ، فأما خطة المسلمين إزاء أسبانيا فيغلب عليهم شعور الحنين إلى مجد الإسلام الثالث في أندلسيا دون أن يصحبه عطف على الأسبان إلا منذ عهد قريب جداً ، وقد عملت السياسة الجديدة للحكومة الجمهورية الأسبانية على تقوية هذا الشعور وبعثت الآمال من جديد في الاتفاق بأن أهتمت الناس أنها تفكر في مشروع إنشاء جامعة إسلامية في غرناطة بل في إعادة العبادات الإسلامية في مسجد قرطبة (بعد أن قد دالت دولة الكنيسة) ، ولكن يبقى أن نرى إن كان سيتحقق شيء من هذه المشروعات (١) ، وأما خططهم حيال إيطاليا فإن عقول مسلمي المغرب قد اتجهت اتجاها آخر ، فبعد العطف الذي بعثه ماسمي بالقانون الأساسي (Statuto) الذي صدر ، منذ اثني عشر عاما بسياسته المبنية على المسالمة حدثت مقاومة شديدة لآساليب الأعدام الوحشية التي تستعملها إيطاليا بقسوة في ليبيا . أما مسلمهم إزاء فرنسا فإن تكيفه أكثر صعوبة لأنه أكثر خفا وتقيداً بسبب تباين منازع الشعور ققى تونس ، وفي مراکش إلى حدما ، شعور ينزع إلى اتخاذ سياسة كراهية الأ جانب ويستمد برنامجا من الحركة الوطنية في مصر ويستلهم وحيها ومع ذلك ققى الوسط — في الجزائر — تسود

(١) أسست في غرناطة في فبراير ١٩٣٧ مدرسة للدراسات العربية غرضها الأساسي «التقافة العالية في اللغة العربية والمدنية العربية واجتذاب الشباب الإسلامي» ، والذي ستعطى له مقررات خاصة في بناء مستقل وسيقام له مسكن إن أمكن (١٠٥ . ر . جب) .

الشعور الاسلامى عاطفة غريبة جداً وليست هى مجرد الامل فى كسب عطف
الفرنسيين بل هى طموح من جانب المسلمين لان يشقوا طريقاً - لالا- تقسم
أفراداً بل للاسلام - فى عقل وروح فرنسا ذاتها ، وهناك طائفة من
كتاب الجزائر المسلمين الذين يحميون الفرنسية ايما إجادة ويحاولون استخدامها
فى بث الدعاية فى فرنسا نفسها ، ثم انهم لا يقصرون هذه الدعاية على أن
يستردوا للاسلام أولئك المسلمين المقيمين فى فرنسا والذين ربما استهدفوا
لخطر الانقلابات من دينهم ولكنهم يشربون إلى أغراض أبعد من ذلك ،
ومما هو جدير بالذكر أن بعض المسلمين البارزين بدسوا يدركون التأثير
الذى تستطيع أن تحدثه الجاليات الاسلامية فى فرنسا ولا يرغبون فى أن يقل
ذلك التأثير بعودة جميع المسلمين إلى بلادهم ، وما يذكرون أن قليلا من الفرنسيين
فى نواحي متفرقة قد اعتنقوا الاسلام بتأثير مسلمى المغرب ولكن من اعتنقه
من النساء أقل من ذلك ، ولم يعتقد بعض الفرنسيات الاسلام إلا فى
تونس حيث يظهر أن طابع الاسلام الروحى يبعث فيهن اقتناعاً خاصاً .
وهناك حقيقة لا يمكن إنكارها وهى أن بين فرنسا والمغرب اتصالاً روحياً
يتمثل فى أذهان بعض المفكرين ضرباً من التجاذب العقلى يشبه ما نشأ بين
انجلترا والهند غير أنه يبدو من جانب الشعب المغلوب على أمره فى مظهر الرغبة
فى التعبير عن الامانى القومية باتخاذ كل نواحي حياة الغالبين حتى لغتهم وأنظمتهم

— ٣ —

نستطيع أن ندين اليوم ثلاثة اتجاهات رئيسية فى حركات الفكرين مسلمى
المغرب ، ويمكننا أن نضرب صفحاً عن حركة الدعاية الاحمدية التى حملها إلى
المغرب وقام بهافيه جماعة من الهند لأن هذه الحركة قاصرة على بعض المدن
السياحية على شاطئ غانة وعلى بعض جهات نيجيريا وسيراليون وليبيريا .

— ٥٩ —

(١) الحركة الاصلاحية التي غايتها فصل الدين عن الدولة محتذية مثل تركيا بعض الشيء ، ويقود هذه الحركة طلبة من المدارس الفرنسية ومعلمون في المدارس الابتدائية وموظفون يحذقون الفرنسية أيما حذق ويجيدون استعمالها وسيلة لتنظيم حركتهم عن طريق الصحف التي ينشرونها بالفرنسية وان الاجرامات الادارية التي لم يكن بدللحكومة من اتخاذها حيال هذه الصحف قيدت حرية الرأي فيها طويلا حتى أن من غاياتهم الحصول على قسط أوفر من الحرية في هذه الناحية. وأكبر صحف هذه الفئة هي « La Voix Indigène » في قسنطينة ويديرها ربيع زناقي و La Voix des Humbles في مدينة الجزائر ويديرها عمر جوندوز و La Voix du Tunisien في تونس ويديرها شاذلي خير الله (١) ، هذه الصحف وإن قامت أول الامر من أجل نزعات متباينة — تبدى عن قنارب يزداد شيئا فشيئا لا تباع سياسة واحدة ، وهناك مثال آخر هام يدل على هذه المحاولة التي ترمى إلى جعل اللغة الفرنسية أداة للفكر الاسلامي لا في الناحية السياسية فقط بل في الناحية الدينية أيضا ، ذلك هو ترجمة القرآن الى الفرنسية التي قام حديثا « أحمد ليميش » . هذه الترجمة وإن لم تبلغ الذروة في الجودة تمتاز بترجمة للقرآن يحوطها التقديس وبشعور إسلامي صادق ينطقان بالفرنسية .

٢ — حزب السلفيين المتشددين الذي يزرع نزعة نصف وهاية وهو شعبة من الحركة التي تمثلها في القاهرة مجلة « المنار » ، لذلك يحتفظ بعصاة وثيقة بالفتنة التي تمثله في مصر ويرسم خطاها ، ورغم أن هذا الحزب لا ينتمى اليه حتى الآن إلا شذمة قليلون في مدن المغرب فقد صار له بعض التأثير بسبب برنامج المنطوى على الرجوع الى تعاليم القرآن التي لم يتطرق اليها الفساد. وأكبر

(١) يمكن أن تترجم هذه الاسماء على التوالي هكذا : الصوت الوطني ، صوت الشعب ، الصوت التونسي .

لسان معبر عن حال هذا الحزب صحيفة «الشهاب» التي تنشر بالعربية في قسنطينة ويديرها عبد الحميد بن باديس ، ومن أتباع هذا الحزب جرثومة صغيرة ولكنها مترعرة في رباط من أعمال مراکش .

٣ - أما الفرقة الثالثة فإنها تتكون من أتباع الطرق الصوفية القديمة التي ترجع إلى ثلاث طوائف متميزة .

(١) أولها الشعبة العلوية المتجددة عن الطريقة الدرقاوية ويرأسها سيدي أحمد بن عليوة المقيم في مستغانم في غرب الجزائر حيث تصدر صحيفته «البلاغ» ، هذه الجماعة التي أسست أثناء الحرب كسبت قوة عظيمة من الانصار في جميع أنحاء المغرب منهم بعض البربر النازلين في باريس وهي تحاول إيجاد لسان يتناضح عن العرب وينطق بالفرنسية ويتلام مع البيئة الجديدة (كالتعليل الخلق للجهاد مثلا) ويظهر في شكل رسائل .

(ب) شخصية منفردة ، غلام الله ، وهو رئيس إحدى الطوائف الدرقاوية في مدينة تيارت (غرب الجزائر) يدعو الآن إلى سياسة غربية ترمي إلى عقد اتفاق ديني (Concordat) بين الاسلام والحكومة الفرنسية وتقرن دعايته بضرب من الكياسة في التجديد .

(ج) الطريقة التجانية أو على الأقل شعبتها التي في مراکش ، وهي صفوة متفاقة من بين كبار الموظفين وطبقة التجار الاغنياء ، وقد قامت في السنوات الاخيرة بدعاية عظيمة ترامت حتى بلغت ضواحي باريس ، وأقامت مسجداً في «جانفليير» حيث تقام أذكار الطريقة بانتظام ، غير أن هذه الطريقة من حيث هي عامل اجتماعي لا تؤثر تأثيراً عظيماً إلا في أقصى الجنوب ولكن لها مكانة عظيمة في السودان الغربي بل في نيجيريا وباكستان وقام .

ويلاحظ أننا لم نذكر شيئاً عن السنوسيين الذين كانوا يتبومون حتى عهد قريب مكاناً عظيماً بين مسلمي المغرب ذلك لأن إيطاليا قد أفلحت بقوة السلاح

في تشيت شملهم في ليبيا وأصبح نفوذهم السياسي الآن قليل الخطر ، أما الطرق الصغرى التي في الجزائر كالرحمانية في « قابليا ، والعمارية في « قلما ، فليس لها سوى أهمية محلية -

— ٤ —

ما هي أهم المسائل التي يدور حولها البحث اليوم في الدوائر الإسلامية في المغرب ؟

١ — مشكلة القومية (Nationalism) (يترجمها المؤلف الشعبية أو العصية) وقد أثار هذه المشكلة ثلاثة تيارات فكرية متميزة :

١ — فهناك حزب يقتصر في غالب أمره على قليل من المثقفين ثقافة فرنسية ويرى حل المسألة في اتخاذ الجنسية الفرنسية اتحادا تاما بما في ذلك استعمال كل الحقوق المدنية استعلا كاملا ، ولا يكاد عدد المتجنسين بالجنسية الفرنسية يتجاوز اليوم خمسة آلاف مسلم في الجزائر لأن الحكومة لم تساعد قط على هذه الخطوة ولأن للمستعمرين أيضاً لا يرمقونها بعين الرعاية ، وفي تونس حوالي ثلاثة آلاف ومن أكبر العوائق في الجزائر إلزام المسلم المتفرنس أن يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الذي تقضى به الشريعة الإسلامية والذي يشمل بالطبع حق تعدد الزوجات ، أما في السنغال حيث لا يشترط هذا الشرط فإن مسلمي الأربع « محافظات المتمتعة بالحقوق الكاملة » (سنت لويس وداكار وجوري وروفسك) قد شاركوا منذ ١٨٨٤ في انتخاب المجلس البلدي وفي انتخاب ممثل في مجلس النواب الفرنسي .

٢ — أما الحل الثاني فهو بحث أمة مغربية تقوم على فكرة جنس أصلي هو الجنس البربري ولا يؤيد هذا الحل الآن في الدوائر الإسلامية إلا شريحة قليلون متفرقون بين البربر . وما سيكون حظ هذه الفكرة من النجاح ؟ إن البربر يكونون ٢٩ في المائة من سكان الجزائر ولكنهم لا يزيدون عن ٥ في المائة في

ليبيا وعن ١٧٥ في المائة في تونس والبربر الجزائريون يفخرون أشد الفخر بأنهم ليسوا من الجنس العربي ، ونستطيع أن نجد حل المسألة في مرا كش حيث يبلغ البربر ٦٠ في المائة من السكان ولكن السيادة العربية فيهم لا تلوح عليها علامات الضعف ، ولما كان البربر تعوزهم لغة بربرية ثابتة يُرجع إليها فانهم لم يشعروا بعد بمثل أعلى يجمعهم ، غير أن الادارة الفرنسية حاولت أخيراً أن تشد من أزر الروح الجنسية بين بربر مرا كش باستصدار الظهير السلطاني (١٦ مايو سنة ١٩٣٠) الذي قضى بتنفيذ القانون العرفي البربري وقانون الأحوال الشخصية في تلك الناحية بدل الشريعة الإسلامية ، ولهذا السبب أثار الظهير احتجاجا صارخا ووجهت إليه حملات عنيفة في كل بقعة من العالم الإسلامي ، وربما يذيع المثل الأعلى على البربري بين مسلمي المغرب بعد ثلاثين عاما ، وإذا تم ذلك أفىكون من الخير للاستعمار الأوروبي ؟ إنا نشك في هذا كل الشك وإن كان الكتاب الأوروبيون هم الذين يعملون اليوم بما يبنلون من جهود على تمهيد السيليل لذلك المبدأ (واليوم نستطيع أن نرى مقدما أنه سيأتي وقت يقوى فيه العنصر البربري حتى « يسمح » للفرنسيين أن يتجنسوا بالجنسية البربرية) .

٣ — والحل الثالث هو فكرة « الجامعة العربية » التي ترمى إلى تقريب الاواصريين الاقلية العربية في مدن المغرب وبين الشرق العربي الذي أتى منه معظم تلك الاقلية منذ ٩٠٠ عام ، وترتكز دعاية « الجامعة العربية » على إصلاح التعليم وهي تحرص على إعادة تعليم اللغة العربية الفصحى المأثورة في كل المدارس الدينية وغير الدينية . لهذه الحركة كثير من الانصار في تونس وهي آخذة في الانتشار في قسنطينة بل في « فاس » وطبيعي أن تكون على عداء لدراسة واستعمال اللهجات العامية كما يدعوا إلى ذلك طائفة من مستشرق أوروبا وكل زعماء حزب السلفيين المتشددين وكل زعماء الصوفيين يؤيدون برنامج

الجامعة العربية تأييداً قوياً .

(ب) وثاني مواضيع البحث مسألة الاتحاد أو تكوين جبهة متحدة تسعى لتحقيق الغايات السياسية التي يطمح اليها الجميع وقد كان هذا الغرض أساس فكرة خلافة عامة قامت لها دعاية جادة في السنوات الأخيرة . ورغم فشل هذه الفكرة بالغاء الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٤ فإنها لا تزال قوية على استهواء التونسيين الذين لا يزالون على ولائهم لصاحب الدعوى التركي . ولكن حسن الجدل لم يساعد على اختيار فكرة الخلافة العامة لتكون وسيلة لإحياء الشعور بالوحدة ، فإن سلطان مرا كش قد ادعى لنفسه منذ قرون كثيرة مكانة شبيهة في ظاهرها بالخلافة ولم يعترف قط بالخلافة العثمانية ولم يدع في الجزائر منذ قرون لحاكم حتى في خطبة الجمعة التي جرت العادة أن يدعى فيها للحاكم باسمه ، كما أنه لم يدع لأحد بعينه في السودان الغربي منذ قيام أسرة « أسكيا » في القرن السادس عشر .

وأما فكرة الشيعة عن الإمامة ، تلك الفكرة التي كانت قوية جداً في المغرب فالظاهر أنها اختفت مورثة فكرة المهدي (Mahdism) التي تنطوي دائماً . رغم كونها على حركة باطنية شديدة والتي تترقب بفارغ الصبر ظهور المهدي الذي سيسترد حقوق الإسلام بحمد السيف .

وإن فكرة عقد مؤتمر إسلامي كل عام أكثر تمشياً مع روح العصر الحديث من حيث النزعة السياسية من فكرة الخلافة القديمة ؛ ولكن فكرة المؤتمرات التي قد ظهرت قيمتها في الهند كعامل على إحياء الروح الإسلامية العامة لم تكن مبتكرة كل الابتكار في العالم الإسلامي ، فالواقع أنها هي الطريقة القديمة التي نهجتها فرق الخوارج المتشددون ولهذا فربما تستهوى أهل المغرب لما عرف عنهم من ميل إلى مذهب الخوارج ، ومن المهم في هذا الصدد أن نرى أن يمثل هذا المذهب المحدثين وهم لا يزالون على أقلية ضئيلة مركزها « مزاب » (جنوب

الجزائر) و«جبل نفوسة» (على الحدود بين ليبيا وتونس) قد صار لهم منذ سنتين صحيفة عجيبة تعبر عن آرائهم هي «وادي مزاب» التي ظهرت في الجزائر من ١٩٢٦-١٩٢٨ وكانت تدعو إلى إقامة وحدة إسلامية عمادها طريقة المؤتمرات. (ج) وثالث مواضيع البحث مسألة إصلاح الشريعة الإسلامية وفي هذا الصدد نجد المغرب محافظاً أشد المحافظة لماورث من نزعة مالكية قوية ، ولم تفلح السياسة التقليدية التي تجرى عليها فرنسا إلا في تقوية هذه النزعة حتى في بعض مظاهرها التي يمكن الشك في حکمتها غاية الشك . وقد أخفق مشروع وضع قانون الجزائر في اللغة الفرنسية (وهو المسمى قانون موراند) في أن ينال قبولا بسبب تردد السياسة الإدارية ، وكان يمكنه أن يركن إلى تأييد حزب كبير من الرأي الإسلامي ولا سيما من زعماء الحركة الإصلاحية ، كما أنه على وثام مع فكرة «الاتفاق الديني» التي تأنق في وضعها غلام الله في ١٩٣٠ والتي أشرنا إليها آنفاً .

ومن المسائل الفرعية المتعلقة بالقانون والخطيرة من حيث إثارتها مسائل اجتماعية بعيدة المدى والتي تسترعى جانباً عظيماً من الاهتمام مسأله إصلاح مكانة المرأة ومسألة إدارة الأوقاف الدينية (التي تسمى «مبيلات» في المغرب و«أوقاف» في المشرق) ولا يزال المغرب يتلصق وراء البلاد الإسلامية الأخرى لا بالنظر إلى الحركة النسائية في جملتها فقط بل بالنظر إلى مكانة النساء العادية، وأكبر ما يذكّر عن الأولى كتاب حديث ينزع نزعة الإصلاح أصدره طاهر حداد في تونس وعن الثانية مرسوم الجزائر الصادر في ١٩ مايو ١٩٣١ الذي يسعى لإزالة بعض المظالم البيتة التي يفرضها على نساء البربر قانونهم العرفي (لأن البربر لم يستبدلوا الشريعة الإسلامية بمالهم من عرف قديم في هذه الناحية) . ومسألة «المبيلات» التي كانت إدارة المشاكل ، وبعد أن ألغيت نهائياً في الجزائر منذ ١٨٤٤ كانت إدارة الحكومة واستثمارها لها مبعثاً لاضطرابات ، في كل من تونس ومراكش .

(د) وأما النقطة الرابعة من نقط البحث فهي مسألة التعليم بما في ذلك كل من التعليم بمعناه الضيق أى إصلاح فن التربية ونشر ما يسهل طلب العلم ثم إصلاح طريقة الدفاع عن الإسلام، ونجد المسلمين المتشبعين بفكرة الجامعة العربية يحصرون اليوم جهودهم في هذه المسألة، فقد أعلحت المدارس الدينية في تونس والآن تفتح المدارس العربية الخاصة في نواحي مختلفة من الجزائر ولكن يعرف هذه المدارس في كفاحها مع اللغة الفرنسية مثالب حروف الهجاء العربية وقواعد النحو التي تجعل كلا من الكتابة وتبادل الفكر الحديث بالعربية أكثر مشقة منها بالفرنسية وقد أثرت هذه الأخيرة أيضاً في عقول البربر تأثيراً عميقاً بما أعانها من إنشاء عدد من المدارس الابتدائية العامة منذ نحو أربعين سنة. وقد كان التعليم الابتدائي هو الأداة الفعالة التي كانت تعوز إيطاليا لترك لها أثراً في عقلية المغاربة ولكنها لم تستطع أن تصوغ تلك الأداة، وقد ظلت المدارس الابتدائية حتى الآن قاصرة على البنين، والمغرب متأخر جداً في تعليم البنات إذا قيس بمصر ولكن النساء يبدن رغبة متزايدة في التخلق بالآخلاق والعادات الاجتماعية الأوروبية : ولقد أشرنا في القسم الثالث فوق هذا الكلام إلى تقدم الصحافة العربية ولا نزيد على ما تقدم إلا أن عدداً من الصحف تصدرها في مراكش كل من الحائتين الفرنسية والإسبانية في طنجة، وإن روح المحافظة بها لها من صلابة ومن سلطان مطلق يسيطر على الفكر الإسلامي في المغرب تجعل أحداً لا يفكر في مسألة استعمال الحروف اللاتينية على حين أن هذه المسألة تعتبر في المشرق بل في الشرق العربي مسألة فيها نظر.

أما في الناحية الاقتصادية فهناك نزعات واضحة ترمي إلى اتخاذ وسائل فرنسا وأفعلتها، فقد دخل الإصلاح في نقابات العمال واتحاداتهم الصناعية القديمة حتى صارت نقابات واتحادات مختلطة تضم العمال المسلمين والأجانب

وتلعب دوراً جديراً بالذكور كل الجدارة في دفع سكان المدن إلى اتخاذ وسائل الصناعة الفرنسية ، ومن المؤكد أن يكون للتعليم الزراعي الفنى في الجهات الزراعية أثر كالأثر السابق .

وإن المثل الذى ضربه بنك مصر قد وجد من يحتذيه في تونس حيث تأسست بنوك مالية على نفس نظام بنك مصر كما أن التنظيم الرأسمالى للصناعة بدأ ينفذ أيضاً إلى الدوائر الإسلامية في الجزائر حيث نشأت منذ الحرب طبقة جديدة من أصحاب رؤوس الأموال المسلمين ولاسيما في صناعة السجاد في « تلمسان » . أما في مراکش فلا تزال الكفة الراجحة في الصناعة في قبضة أسر اليهود الذين اعتنقوا الاسلام في « فاس » والذين يسمون « المهاجرين » :
خاتمة

ولا يزال المشرق يؤثر في مسلمي المغرب تأثيراً لا ينكر ولا سيما في ناحية الجامعة العربية كما يروج لها السوريون أمثال الأمير شكيب أرسلان أو المصريون كالاستاذ فريد وجدي بك ولكن تيار التطور يزداد انحرافاً نحو باريس وإليها لا إلى المشرق نجد جمهور أهل المغرب يولون وجوههم . ومن الجلى أنه يستحيل حل المسألة الدقيقة ، مسألة إنشاء أنظمة نيابية وتمثيل المسلمين تمثيلاً قائماً على الانتخاب ، بإنشاء مجلس نيابي في مدينة الجزائر فيقوم على الفور صدام بين الوطنيين والمستعمرين الذين يقولون عنهم كثيراً في العدد وليس من الممكن إنشاء مملكة مستقلة (dominion) في المغرب ولكن فكرة إنشائها تلقى عناية متزايدة في باريس عن طريق تمثيل المسلمين فيها . ولو قارنا افريقية الشمالية الفرنسية وافريقية الجنوبية البريطانية تبين لنا أن بين الاقليمين اختلافاً جوهرياً رغم شبه ظاهري ، ففي المغرب ٨٠٠ ٠٠٠ من النزلاء مالاً ورويين (١٨ في المئة من مجموع السكان) أمام ٥٠٠ ٠٠٠ من الوطنيين الذين يعيش ٣٠٠ ٠٠٠ منهم عن الطريقة الأوروية و ١٥٠ ٠٠٠ منهم عاشوا

في فرنسا ومن بين هؤلاء ٢٠ في المائة قضوا فيها أكثر من ستين . أما في جنوب افريقية فهناك ١٧٠٠٠٠٠٠ أوروبي (٢١ في المائة من مجموع السكان) أمام ٥٣٠٠٠٠٠ من الوطنيين ولكن هؤلاء من الجنس الاسود وكثيراً ما تكون عقيلتهم منحطة جداً ولم يتأثروا بالروح الانجليزية إلا تأثراً ظاهرياً جزئياً ثم هو يؤدي بسرعة إلى حركة كراهية ، اتبوية ، ويحول دون إمكان تزاوج جنسي كالذي استقر في الاذهان نهائياً في المغرب .

الفصل الثالث

مصر وآسيا الغربية (١)

بقلم الأستاذ الدكتور ج . كامبهاير

لقد بدأت تشيع أخيراً في العالم الاسلامي حركات لم يسبق لنا بها عهد حتى السنوات الاخيرة ، فقد تنبعت قوى دينية وخلقية عظيمة لا بد أن نعرفها حق المعرفة ، وكلما حللنا جوهر هذه القوى ، بعد الدراسة المفصلة للوقائع ، كنا أكثر قدرة على البت فيما يحتمل أن تبلغه من نمو وفيما يمكن أن تحدته من تأثير ، وإذا قمنا بحث علمي كهذا فربما تكون له قيمة عملية أيضاً .

والبلاد التي سأتناولها بالبحث هي : مصر وجزيرة العرب والعراق وفلسطين وسوريا وتركيا وفارس والافغان . ولكل واحدة من الثلاثة

(١) قد روي حذف بعض التفاصيل المعروفة لدى جمهور القراء وليرجع القاري للقانون الاساسي لجمعية الشبان ولجلتها في السنين الاولى . ولم يعن المترجم في هذا الفصل إلا بتقل المعنى وفي أجمال أحيانا .

المذكورة أخيراً مميزاتها الخاصة ، هي تختلف بعضها عن بعض وعن سائر البلاد التي قبلها ، ولغة كل منها قلما تعرف في الأخرى وفي سائر العالم الإسلامي ، وليس فيها حركات إسلامية تبعث أي اهتمام في البلاد الأخرى أو في أي جهة من بلاد الإسلام . أما في مصر والجزيرة العربية والعراق وفلسطين وسوريا فالأمر مختلف جداً عما سبق ، هذه البلاد تشترك في صفة هامة : فالعربية لغة لجميعاً ولغة المغرب ولغة جاليات عربية كثيرة متفرقة في العالم كله ، وإلى جانب هذا فإن العربية ، وهي لسان الإسلام غير مدافع ، تدرس وتعرف حق المعرفة في العالم الإسلامي كله من المحيط الأطلسي إلى الهند وجاوة وبذلك تسهل إنتشار الحركات الروحية إنتشاراً يتجاوز بكثير حدود البلاد التي تنشأ فيها ، ويعين على إنتشارها عوامل أخرى أكبرها الصحافة العربية التي بلغت مبلغاً عظيماً من الرقي ، ولا سيما صحافة القاهرة التي هي المركز الفكري للعالم الإسلامي ، ويلعب الحج دوره أيضاً في المزج الروحي بين مختلف شعوب الإسلام ، وإن تجاوز البلاد في الشرق الأدنى الناطق بالضاد ، وبوجه أدق في المساحة التي تشغلها مصر وجزيرة العرب والعراق وسوريا وفلسطين ، وورقي وسائل المواصلات إلى جانب نشاط الصحافة تعمل بوجه خاص على إنماء العواطف والأمانى الإسلامية العامة ، فإذا قامت حركات إسلامية ذات شأن في إحدى هذه البلاد استطعنا أن نتصور جيداً ما يمكن أن تحدثه من تأثير وما يمكن أن يكون لها من خطر .

وأحب أولاً أن أنبه القارئ إلى حركة انبثقت في مصر فكانت أكبر دلالة على الحالة العقلية الحاضرة لا في مصر فحسب بل في كثير من البلاد الناطقة بالضاد ، وقد رأيت أن أقصر الجزء الأكبر من مقال على وصف الجمعية الشبان المسلمين مختصر شامل قدر الطاقة ، ورأيت أن هذا يستحق مأساً بذله من وقت وجهد لما يؤتينا من قدرة على الحكم في المسألة التي ندرسها . يشبه

إسم هذه الجمعية إسم « جمعية الشبان المسيحيين » ، كثير الشبه وإن كان للأولى
مميزات الخاصة .

وضع القانون الاساسى للجمعية فى القاهرة فى سنة ١٩٢٧ وهو خمس
وعشرون مادة تنص الاخيرة على أن فى هذا القانون ثلاث مواد لا يصح
تغييرها بحال وهى الاولى والثالثة والسادسة ، تقرر الاولى إسم الجمعية
وتأليفها والثانية ما يشترط توفره فى العضو العامل وهو أن يكون مسلماً حسن
السيرة طيب السمعة غير معروف بنزعة تخالف أصل العقيدة الاسلامية ،
والمادة السادسة أهمها وهى تقرر أغراض الجمعية (١) بث الآداب والاخلاق
الاسلامية (٢) السعى لانهار الأفكار على طريقة تناسب روح العصر
(٣) العمل على إزالة الاختلاف أو الجفاء بين الطوائف والفرق الاسلامية
(٤) الأخذ من حضارتى الشرق والغرب بمحاسنهما جميعاً وترك ما فيهما من
مساوىء وينص القانون الاساسى على أن الجمعية لا تعرض لشئون السياسة
بحال وعلى تأسيس ناد لالقاء المحاضرات العلمية والاجتماعية ، وتنوى الجمعية
إذاعة نشرات بأى لغة تدعو الحاجة إلى إستعمالها .

ولتفت ذهن القارىء إلى نقطتين الأولى نص المادة ٢٣ : « للجمعية أن
تنشئ فروعاً فى القطر المصرى وشعباً فى الاقطار الاخرى وتسكفل اللائحة
الداخلية بتحديد الصلة بين المركز وهذه الشعب والفروع ، وسنرى أن هذه
المادة اتبعت الى حد كبير فيما بعد .

أما النقطة الثانية فهى مسألة رئاسة الجمعية ، يتكون مجلس الادارة من إثنى عشر
عضواً منتخباً منهم رئيس ووكيل وأمين للصندوق وكاتم سر عام والباقيون
أعضاء وللأعضاء الذين انتخبوا سنة ١٩٢٧ شأن خاص فالرئيس هو الدكتور
عبدالحمد سعيد بك والوكيل (المرحوم) الشيخ عبدالعزيز جاويش مراقب
التعليم الأولى بوزارة المعارف المصرية والمشهور باهتمامه وكتابته فى الشئون

الإسلامية وأمين الصندوق (المرحوم) أحمد باشا تيمور وهو من أبرز رجال الحياة العلمية الحديثة في مصر وكاتم السرايا العام الاستاذ محب الدين الخطيب رئيس تحرير مجلتي «الزهراء» و«الفتح»، والأولى تحوى مواضيع في الثقافة العامة كالهلال والمقتطف ولكن على قواعد إسلامية والثانية صحيفة يقدرها المسلمون حق قدرها وتبحث في السياسة والأخلاق والمسائل الدينية الإسلامية، أما الأعضاء الآخرون فهم الأساتذة محمد الخضر حسين بقسم التخصص بالأزهر وأحمد إبراهيم بكاية الحقوق ومحمد أحمد الغمراوي بكلية الطب وخريج جامعة لندن والدكتور يحيى أحمد البرديري خريج جامعة جنيف والدكتور على مظهر خريج جامعة فينا والاستاذ محمود على فضلى بمدرسة المعلمين العليا ومحمد أفسدى الهياوى الصحافى المصرى وعلى بك شوقى سكرتير وكيل وزارة المعارف المصرية .

ومن المهم أن نلاحظ سمو مستوى هذا المجلس ، فالأعضاء الثمانية شبان في عتفوان الشباب ويمثلون نواحي هامة من الحياة المصرية ففهم الموظف والصحفى وفهم أساتذة في الأزهر والمدارس العليا أعرف ثلاثة شبان منهم تلقوا دراسات متينة في جامعات لندن وجنيف وفينا وبهذا نجد الثقافة الانجليزية والفرنسية والألمانية ممثلة كلها إلى جانب الثقافة المصرية الوطنية . وقد نال هؤلاء الشبان تأييد شخصية فذة جداً كالمرحوم أحمد باشا تيمور وتأييد غيره من زعماء المسلمين ثم إن الرئيس ، الدكتور عبد الحميد سعيد ، معروف جيداً عند كل المشتغلين بالسياسة المصرية وهو من أنشط الوطنيين المصريين وأكثرهم حماسة ومن أعضاء البرلمان المصرى ، وقد اختار شبان الجمعية هذا الرجل رئيساً لهم بل منحوه الرئاسة مدى الحياة مادام متمسكاً بأغراض الجمعية ، وإذا كان قد رفض هذه المنحة ورضى أن يكون رئيساً لمدة أربع سنين أسوة

بأعضاء مجلس الإدارة فإن من المهم أنهم منحوه الرئاسة مدى الحياة على الشرط المتقدم . ونستطيع أن نضع هذه الحقيقة بأزاء حقيقة أخرى وهي أنه حينما نوقش القانون الأساسى اقترح البعض تسمية الجمعية « جمعية الشبان المصريين » بدلا من « جمعية الشبان المسلمين » ، ثم تقرر الاسم الثانى وكان القرار خطيرا بقدر ما كان الاقتراح .

ولا شك فى أن نفوس هؤلاء الشبان تنطوى على روح وطنية قوية جداً ولكن فيها الا سلام إلى جانب الوطنية وبسميتهم جمعيتهم قرروا أن يكونوا شباناً مسلمين ، وإن الشرط الذى فرضوه على رئيسهم كان دليلاً على إلتزامه بالمحافظة على غايات الجمعية الدينية والخلقية ، وليس الاًمر قاصراً على الجمع بين الروح الوطنية وبين الا سلام ، إذ يتضح من الوقائع التى أشرت إليها ومن وقائع أخرى سأتناولها فيما بعد ومن حقائق خبرتها بنفسى أن مبدأ مؤسسى الجمعية هو خدمة بلادهم وخدمة الشرق ، والا سلام فى البلاد الا سلامية عنصر من الماضى القومى ومن الفردية الحديثة لشعوب الشرق ، ومن يرغب فى التمسك بالقومية ينزع إلى التمسك بالا سلام أيضاً . ولكن زعماء الجمعية تحركهم فكرة أخرى فهم لا يزالون مقتنعين أن إتمام القومية الصحيحة القوية وصياتهم استحيالان فى الشرق إذا انصرف الناس عن الدين والا خلاق ، الاًمر الذى يسهل وقوعه من الاتصال بالمدينة الغربية حتى لينهب البعض إلى أنه يجب أن يكبح جماح الشبان فى مصر والشرق عن أن يفعلوا ذلك ، يجب أن يعتصموا بالدين ويتمسكوا بالا خلاق الفاضلة لكي يخدموا بلادهم وفى هذا البلاد يجب أن يكون الا سلام أساس الحياة القومية .

ولكى نفهم كل نواحي الجمعية يجب أن نضع نصب أعيننا هذا المبدأ الذى يدين به أعضاؤها ، وعلى هذا الا سلام نمت الجمعية منذ نشأتها إلى اليوم نمواً لم يؤلف من قبل ، وأستطيع القول إنها الحركة الفذة العظيمة فى البلاد العربية ،

في أيامنا هذه ، ولا نبالغ مهما قلنا عما لها اليوم وفي المستقبل من خطر وتأثير ،
ويظهر أن شبان القاهرة قالوا كلمتهم في الوقت المناسب وأن العقول قد تهيأت
حتى أن ما كان كامنا ظهر بغتة إلى حين الفعل .

أما عن الشعب التي أنشئت خارج مصر فقد أسس الكثير منها في فلسطين
وسوريا والعراق ، فنسب إبريل ١٩٢٨ نوقش في مؤتمر الجمعيات الإسلامية
المنعقد في يافا القانون الأساسي لجمعيات الشبان المسلمين المزمع إنشاؤها في
فلسطين واتفق عليه وهذه الجمعيات تشبه في جوهرها جمعيات القاهرة وقد أصدر
المؤتمر قرارات أخرى نذكر اثنين منها لا ننا سنواجه موضوعيهما فيما بعد ،
وكان الأول خاصا بإذاعة بيان يحض المسلمين على زيادة عدد المدارس الوطنية
ويحذرهم من مدارس التبشير وكان الثاني خاصاً بتقوية حركة الكشفة المسلمين .
وبمناسبة هذا المؤتمر تحولت جمعية إسلامية كانت في يافا إلى « جمعية شبان مسلمين » ،
وسرعان ما تأسست بعد ذلك جمعيات أخرى كثيرة في القدس وعكا وحيفا ،
ونالت جمعية حيفا خاصة تأييد رجال نصجت عقولهم بل خنكتهم السنون حتى
أن صحيفة الكرمل العربية أفصححت عن عدم رضاها عن ذلك قائلة إن شبان
فلسطين خاضع كثيراً لسلطان الشيوخ والمأمول أن يتحرروا من هذا السلطان .
وأن يطالبوا بحرية تامة في الفكر ولا يهتدوا إلا بسنا الآمر الخلقية والاجتماعية .
التي جاء بها نبيهم .

أما في العراق فقد أظهرت جمعيات بغداد والبصرة نشاطاً عظيماً ، فأذاعت
جمعية البصرة نشرات وجهتها إلى الشبان المسلمين وأكدت فيها ما فرض عليهم .
من واجبات خلقية شديدة إلحاح وأبانت ما ينتج عن الإخفاق في هذه الواجبات .
من وبال ، ويضيق المقام عن تعداد كل ما جاء في تلك النشرات الممتعة ، فمنها ما يحض
المسلمين على اجتناب الخمر وعدم قرب الزنا واجتناب الميسر والأعراض عن
المسارح والمقاهي وإدخال المال لوقت الشدة وحب الوطن وإثارة متجاته ومصنوعاته .

ثم تنتهى بلفت الأذهان إلى جمعية الشبان التى أنشئت لتضطلع بنشر الأخلاق والثقافة الإسلامية ومحاربة الرذائل والقضاء على المحاضرات الدينية والحلقية والاجتماعية المتنوعة وتحض الناس على سماع هذه المحاضرات وعلى الانضمام للجمعية ومنحها المعونة المادية والأدبية ، ومن تلك المنشورات ما يزهده فى أوراق اليانصيب ويدعو إلى تشجيع المدارس الوطنية والجمعيات الخيرية والعناية بتربية الأبناء ووقايتهم قرناء السوء وغرس حب الفضيلة فى قلوبهم وتلفت نظر الناس إلى أنهم مسئولون عن أبنائهم أمام الله وتحذره من المدارس الأجنبية إلا بعد إعدادهم بقوة العقيدة الإسلامية وبالاخلاص للوطن وتبغض الرذائل للناس وتقرر أن من أصول الإسلام الأساسية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكل الجمعيات التى فى خارج القطر المصرى والفروع التى فى داخله مستقلة بذاتها ، وليس هناك — فيما أعلم — قيادة مركزية ، غير أن الشعب والفروع متصلة بالجمعية المركزية التى فى القاهرة أوثق اتصال ، كما أن اللامحة الداخلية لهذه الجمعية تقضى بوجود مؤتمر يسمى « مؤتمر مجالس الإدارة » ، وقد عقد مؤتمر من هذا القبيل فى القاهرة يومى ١٤ ، ١٥ صفر ١٣٤٩ (١٠ ، ١١ يولييه سنة ١٩٣٠) حضره ممثلون من جمعيات فلسطين ومن جمعيات مصر ، على أن التمثيل لم يكن شاملاً . ونوقشت فى هذا المؤتمر مسائل واتخذت فيه قرارات . وجمعية القاهرة أكبر جمعيات الشبان المسلمين خطراً وأقواها تأثيراً فأرى لذلك أن أصور بقدر الامكان مدى نموها . لهذه الجمعية ناد أمام دار البرلمان المصرى (١) إذا دخلته رأيت شباناً يمارسون مختلف الألعاب وشباناً يتناولون المنعشات الخفيفة التى لاخر فيها أولعبون الشطرنج أو ما يماثله . وإذا زرته مساء

(١) وضع الحجر الاساسى لدار جديدة للجمعية بالقاهرة فى ربيع الاول سنة

١٣٥٣ (يونيه سنة ١٩٣٤)

فربما شهدت حفلة موسيقية ذات ألحان شرقية وغربية وأدهشتك حاستو حنق هؤلاء الموسيقيين الناشئين ، ترى مكتبة حافلة بكثير من الكتب الثمينة من عربية وغير عربية ، والمحاضرات تلقى بانتظام ويمتلئ ائنادى بالزوار فى كل ساعة من النهار تقريباً ، ولا ترى هناك قبعة إلا إذا كانت لوائر أوروى أو لمحمود عزمى الأديب المصرى الوحيد الذى يلبس القبعة ، ترى الطربوش إلى جانب العمامة والشبان والكهول وأساتذة من الجامعتين الأزهرية والمصرية وأدباء ومعلمين ورجالاً من كل طبقات المجتمع وقد تلقى — كما لقيت — أمير الشعراء (المرحوم) شوقى بك وغيره من رجال مصر وكثيراً ما تلقى الأجنب ومشاهير المسلمين من بلاد العالم الإسلامى وقد تصغى إلى أحاديثهم وتسمع محاضراتهم .

وإن أعظم منبع نستقى منه معلوماتنا عن نشاط الجمعية هو المجلة التى تنشرها ، وتدل المقالة الافتتاحية من العدد الأول (١ أكتوبر سنة ١٩٢٩) على حركة الجمعية دلالة تامة فعنوانها : حاجتنا إلى الإصلاح ، مبدؤنا وخطتنا ، يقول كاتب المقال وهو رئيس تحرير المجلة الدكتور يحيى الدرديرى : إن ما أصاب الأمم الإسلامية من الانحلال والضعف يدعو كل مفكر إلى تعرف الأسباب والبحث عن أنجع الوسائل للعلاج ، ويرى أن الفوضى الخلقية التى أصابت المجتمع الإسلامى ترجع إلى أسباب كثيرة أهمها الجهل المنتشر ، وتقليد المسلمين لسيئات المدنية الغربية ، وإهمال المتعلمين واجباتهم نحو محاربة البدع والضلالات التى سرت فى جسم الأمة سريان الحى فى جسم المريض ، ويقول إن للمسلمين دواماً واحداً ، هو الرجوع إلى القرآن وأخذ الأخلاق من أوامر الله ، وينادى بأن يكون القرآن أساساً ونبراساً ومصدراً للنهضة الخلقية بين المسلمين ، هذه النهضة التى لا تصلح بدونها نهضة اجتماعية أو اقتصادية أخرى ، وإنه ليحسن أن نلاحظ أن الذى يرسم هذا البرنامج ليس شيخاً من قدماء المحافظين بل هو دكتور فى

القوانين وحامل للسانس في العلوم السياسية من جامعة جنيف. يبين عن أسباب دفاعه عن القرآن بقوله ، إن أدب القرآن مؤسس على الدعوة إلى الإصلاح والعمل .
 لخير المجتمع ، وعلى حرية العلم والفكر وهما أساس النهضة الصحيحة ، وإنه يدعو إلى التسامح وإلى تضامن النوع الانساني ، واستشهد على آرائه باقتباس نصوص كاملة من آيات القرآن وبشرحها . وفي مقال آخر عنوانه « داؤنا ودواؤنا » (مايو ١٩٣١) يصف الكاتب نفسه الفوضى الخلقية السائدة بين المسلمين اليوم ويرثي لها رثاء صادقا فيرى أن الناس أصبحوا لا وجهة لهم في حياتهم ولا قاعدة يسيرون عليها ، فيجب عليهم أن يجعلوا الله وجهتهم وأن يروضوا أنفسهم على اتباع أوامره واجتباب نواهيه ، ومن جعل الله غايته فقد فعل الخير وصار حب الانسانية والعمل على خيرها قاعدته الخلقية ، ويرى أن الناس اليوم استسلموا لشهواتهم وأطماعهم ، فيجب على الأفراد والجماعات أن يحاربوا هذه المساويء أشد المحاربة ، ويستشهد من التاريخ على أن مثل هذه الحركات الإصلاحية لا بد أن تواجه عقبات ومصاعب كثيرة ، فيجب أن يتذرع زعمائها بالشجاعة ورباطة الجأش وأن يوجهوا عقول محبي الإصلاح وكل من يقصرون جهودهم لخدمة البلاد ويعملون على بلوغ الحياة الصحيحة .

من هذا نستطيع أن نرى ما يبرر وجود مقالة عنوانها . « الدين فوق كل شيء » (عدد ٨ - ١ م) ومقالات أخرى في مواضيع دينية مثل النبي (صلى) صلى الله عليه وسلم) وسيرته ، والقرآن الذي هو أولى دعائم الإسلام ، والحديث دعامة الثانية ، ومناقشة الشبهات التي تساور الشبان في أمر الخلاف بين الدين والعلم . ولا نرى في المجلة شيئا من ضيق العقل أو حرج الصدر ولكن فيها فهم صحيح لما تحتاجه العصور الحديثة من مطالب الدين كالتمسك بالجوهريات وتأكيدها بقوة وترك ما هو عرضي المرتبة . وإذا كنا نحتاج

إلى الدين لتأثيره في الأخلاق فطبعي أن نجد في المجلة مقالات كثيرة في مسائل خلقية ونفسية بحثت كتنقية الإرادة وفي ردائل كالبخل والالتحار وفي فضائل كالكرم والأثار، ونرى الحكم والأمثال مشورة في ثنابا المجلة .

إن الغاية التي تنشدها جمعية الشبان المسلمين لاصلاح الحالة الدينية والخلقية هي تربية جيل من الرجال جديد قادر على الاضطلاع بأعظم الاعمال خدمة للبلاد في كل فرع من فروع الحياة الحديثة ، في العلاقات الاجتماعية ، في التعليم ، في الحياة العامة ، في العلم والفن ، وأي شيء أبلغ أثراً في عزيمه الشباب من قدوة عظماء الرجال ؛ لذلك نرى في المجلة مقالات عن مشاهير رجال الاسلام وتاريخ الشرق : كآبي بكر ، أول الخلفاء الراشدين ومثال التفاني في القيام بالواجب ، وعمر ، ثاني الخلفاء ومثال الحاكم الديمقراطي العادل ، ومحمد علي المؤسس الاكبر لمصر الحديثة ورأس الاسرة المصرية المالكة ، وجمال الدين الافغانى المصلح الشهير والسياسى المسلم ، ومصطفى كامل بطل الوطنية المصرية الحديثة . وهناك من جهة أخرى سير رجال مثل بنيامين فرانكلين وأبراهام لنكولن وإديسون وغيرهم ، بل هناك سير رجال على قلة شهرتهم معروفون بما أظهروا من صفات ممتازة في حياتهم العملية . وفوق هذه المقالات التى تمس الدين والأخلاق والمثل العليا للنشاط الانسانى نرى مقالات في مواضيع علمية عقيمة الفائدة أو ذات صلة بالأفكار الفلسفية العامة ، ولكن معظم المقالات تتناول الحاجات الأولى للحياة الوطنية في مصر وفي بلاد الاسلام كمسائل التعليم وحالة المرأة والمسائل الاجتماعية والطب والفنون والصناعة من غزل ونسج والأموال الاقتصادية ، كما تبحث مقالات أخرى في الألعاب الرياضية وفي الكشافة ، فيذكر مثلاً إن البرنس عمر باشا طوسون أنزل كشافة فرع الاسكندرية وغيرهم ضيوفاً عنده ، وتعلق الجمعية أهمية كبرى على تقوية الجسم .

والجمعية عناية خاصة بالمسائل الاجتماعية . وأذكر تقريراً لـ ألفرد نيلسن
الذى تتبع الصحافة العربية في دمشق بين سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٨ وأذاع بياناً عن
نتيجة بحثه . فأما عن المسائل الاجتماعية فهو ينبئنا أن في صحف سوريا وفي
حياتها اليومية نفتقد عنصراً ميعنى به عناية عظيمة في الغرب ، هو التعاون
والتضامن للعناية بالحياة العامة ، ثم يقول : وإن المسألة الكبرى هي : هل
يمكن أن يجتمع كل هذا وروح الإسلام ؟ سيرينا المستقبل إن كان في مقدور
الإسلام أن يبعث في نفوس معتقيه حبة الجار وأن يحافظ عليها ، تلك المحبة
التي هي أساس كل المشروعات الاجتماعية . أما في مجلة جمعية الشبان
فالامر مختلف كل الاختلاف عما وجدته المستر نيلسن . إذ نجد هنا إصراراً
على التعاون وتضامناً للعناية بالحياة العامة ونجد التواصي بالمشروعات الاجتماعية
قوياً ، فالدكتور الدرديري ألف كتاباً في التعاون وتناول التعاون فيما لا يقل
عن إثني عشر مقالا في المجلة ، فكتب عن التعاون في فرنسا ودينبارك ، وعن
إعانات المرضى ودفن الموتى والتعاون في حالات البطالة ومصارف الاقراض
وهو يصر خاصة على حاجة مصر إلى التعاون الزراعي ، وخصص مقالا
مستقلا للمصلح الاجتماعي ، روبرت أوين ، (٢ - م ١)

من هذه التفاصيل التي ذكرت للآن تبين الصفات الجوهرية للجمعية
وكيف عمل أعضاؤها بنصوص قانونهم ، ولكي أتم كلمتي لا بد أن أبحث
ناحية هامة من نشاط الجمعية تبدو في المجلة وكأنها مناقضة للمادة الثانية من
القانون الاساسي الذي يقول : « لا تتعرض هذه الجمعية للسياسة
بأى حال » .

الواقع أن المجلة لا تتعرض لداخليات الحياة السياسية في مصر ولا لصلصة
مصر بالدول الاخرى كمسألة الامتيازات أو مركز إنجلترا في مصر وليس
فيها دعاية للاماني السياسية التي توحى للناس فكرة اتحاد البلاد الشرقية

كالوحدة العربية ، وليس فيها دعاية للجامعة الإسلامية أو لما يشبه خطط عبد الحميد الثاني أو جمال الدين الأفغانى فى الناحية السياسية ، هؤلاء الشبان إنما هم شبان مسلمون ومسلمون مختصون والمسلمون إخوة وليس شعور الإخوانة هذا محصوراً فى بلاد واحدة ولكن الشعور الإسلامى ، على الخلاف من ذلك ، شعور دولى بالضرورة ، فما دام هؤلاء الشبان مسلمين مختصين ومجاهدين لأعداء كلمة الإسلام فانهم يعنون أكبر عناية بكل ما يتصل بالإسلام من أحداث ، ويتأثرون بأبلغ التأثير إذا مس الإسلام أو الجماعات الإسلامية أى إعتداء أو إذا خيل لهم أن هناك مثل هذا الاعتداء فى مصر أو فى خارجها ، عند ذلك ينهضون للأمر بقوة ، وإذا أتى ذلك الاعتداء الحقيقى أو المتوهم من ناحية سلطات سياسية فإن احتجاجات الجمعية وأعمالها تبدو ذات لون سياسى .

وأهم الأحداث التى حركت شعور الجمعية الإسلامى فى السنين الخمس الأخيرة هى : (١) الانتقاد الموجه للإسلام فى مصر فى المحاضرات العامة والرسائل . ولا سيما من جانب المبشرين المسيحيين ، (٢) حوادث فلسطين المتعلقة بجدار المبكى بالقدس فى ١٩٢٩ ، ١٩٣٠ ، (٣) سياسة فرنسا حيال بربرمراكش فى ١٩٣٠ ، (٤) وسائل الاستعمار الإيطالى القاسية فى طرابلس والقطائع التى نسبت لهم فى ١٩٣٠ ، (٥) إعدام الإيطاليين أخيراً للزعيم الطرابلسى المرحوم عمر المختار .

(١) أما عن الانتقاد الموجه للإسلام فقد أصدر فرع الإسكندرية قرار احتجاج (مايو ١٩٣٠) كما فعل مثل ذلك مؤتمر مجالس الإدارة المعقود فى القاهرة (يوليه ١٩٣٠) ، وكان من أثر المحاضرة التى ألقاها الدكتور فرج ميخائيل فى الجامعة الأمريكية أن حفزت الجمعية إلى إرسال خطاب لوزير الداخلية بمصر وآخر لشيخ الأزهر ، وهول المجلة ، فى مقال عنوانه : « واجب الحكومة

إنجاز أعمال المبشرين ، ، إن القانون المصرى يسمح للمبشرين أن يبينوا محاسن دينهم ولكنه يمنع مهاجمة دين الأغلبية الساحقة بالطنع والنقد منعاً باتاً ، وإن مثل هذه الأعمال تخلق الاضطرابات وأنواع الشقاق الممقوت بين الطائفتين من أهل مصر ، وجاء فى الخطاب المرسل لوزير الداخلية أن حركة الاصلاح والتجديد يعترها الاضطراب من جراء مهاجمة أصول الاسلام التى وهب السواد الأعظم لها نفسه والتى سيضحي من أجلها أكبر التضحية .

(٢) أما فلسطين فعرف جيداً أن مسألة إنشاء وطن قومى لليهود فيها أدت إلى مصاعب خطيرة فلا يزال عرب فلسطين - فى جملتهم - من مسلمين ومسيحيين يعدون الاستعمار اليهودى متقصاً لحقوقهم ، مهدداً لمستقبلهم ، وقد فهم المسلمون منهم خاصة أن فى أعمال وبيانات خاصة للصهيونيين انتهاكاً لحرمة حقوقهم المقدسة فى أرض الحرم الشريف الذى يعد جدار المبكى جزءاً منه ، والحرم الشريف القائم على مكان كان فيه المعبد اليهودى المنهدم سنة ٧٠ م ، مازال بمسجديه المكرمين منذ القرن السابع الميلادى أقدس بقعة فى العالم الاسلامى بعد مكة والمدينة . وقد نشأت عن الحوادث المتعلقة بالمبكى اضطرابات خطيرة فى أغسطس ١٩٢٩ قتل فيها أكثر من مائة يهودى وما يساوى ذلك تقريباً من العرب ، وبعد وقوع الاضطرابات مباشرة أرسلت جمعية الشبان - تلغرافات لجمعية الأمم ولوزارة الخارجية البريطانية وللسندوب السامى فى القدس وللجنة التى عينت للفحص فى الاضطرابات وللجنة الدولية التى عينتها الحكومة لتقرير حقوق المسلمين واليهود ودعائهم فيما يختص بجدار المبكى فى القدس (يولييه ١٩٣٠) وجاء فى أول هذه البيانات أن مسلمى فلسطين كانوا ملتزمين الهدوء حتى تحذاهم اليهود ، وأن موقع البراق عند المبكى الذى يدعيه اليهود لأنفسهم بقعة يقدسها المسلمون وهم فى كل بقاع الارض يعدون أنفسهم جنداً يقفون فى صف مسلمى فلسطين ليدافعوا عن أمانة أو ثمنوا عليها ، وأنهم لن يسمحوا للصهيونيين أن

يتخذوا مكاناً يقدسونه مركزاً لدعايتهم الوطنية مابقى على ظهر الأرض مسلم واحد وما دام يجرى في عروقه دم الحياة . وبعد هذه النكبة العظيمة جمعت الجمعية إعانات لتساعد بها الأسر الفلسطينية التي أصابتها نتائج الاضطرابات . (٣) وأما مرا كش فإن للسياسة الفرنسية إزاءها نزعة عامة يعرفها العالم الإسلامي حق المعرفة ويسخطها سخطاً شديداً ، وقد أثارت بعض الإجراءات الفرنسية غضباً شمل العالم الإسلامي كله وبلغ في شدته وشموله ما لم يبلغه أى غضب أصاب المسلمين في السنوات الأخيرة ، تسود السياسة الفرنسية نزعة ترمى إلى أن تفصل أهل مرا كش عن العالم الإسلامي ماوسعها ذلك ، ويقال إن الصحف العربية لا يسمح لها بدخول مرا كش ماعدا صحيفة من صحف القاهرة معروفة بملاقمتها بالمصالح الفرنسية ، وأشد من ذلك أن الفرنسيين لا يحبون نهضة اللغة العربية في مرا كش ولا سيما بين البربر . هؤلاء البربر الذين يخالفون العرب جنساً ولغة ويكونون كتلة قوية من السكان تبلغ سبعة ملايين يسكنون الأقاليم الجبلية من البلاد ، وهم مسلمون بالطبع بل قد لعبوا دوراً هاماً في التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى ، ولكنهم إلى جانب لغتهم البربرية احتفظوا بقوانين عرفية خاصة بهم ، وقد حاولت فرنسا في ١٩٣٠ ، تدرعاً بهذه القوانين ، أن تدخل بين البربر قوانين جديدة تشمل كل المسائل المدنية والتجارية وتشمل خاصة كل المسائل الاجتماعية القانونية في الأحوال الشخصية وفي حقوق الميراث ، فلم يكن بد من إلغاء الشريعة الإسلامية وصار رئيس القبيلة هو الذى يمارس السلطة القضائية بدلا من القاضى ، وجعل تنظيم القضاء من حق السلطات السياسية أى من حق فرنسا ، هذا المشروع الذى وضع في صورة مظهر ، في ١٦ مايو ١٩٣٠ هو الذى أثار سخطاً عم بلاد الإسلام كلها لأنه فضح ما تنويه فرنسا من فصل بربر مرا كش ، وهم جماعة إسلامية لها خطرها ، عن العالم الإسلامي وما زاد السخط ورود أنباء الوسائل التي اتخذت

في نفس الوقت لتتصير البربر .

اشتركت جمعية الشبان بحماسة خاصة في إظهار السخط العام فوجهت نداء جاداً حازماً بمهوراً بامضامات كثيرة إلى دكل ملوك الاسلام وشعوبه، وأرسلته إلى علماء مكة والمدينة والازهر وإلى الهيئات الدينية في مصر وتونس وفاس والهند والعراق وأندونيسيا (ولاسيا سومطره وجاوة) وإلى نهضة العلماء في سوريا وإلى رئيس المجلس الاسلامي الأعلى في القدس وبيروت وجمعية العلماء في كابل و د لجمعية تقدم الاسلام ، في الصين و د لكل الصحف الشرقية من غير تمييز لغاتها ولهجاتها ، وفوق ذلك أرسلت وفداً لرئيس الديوان الملكي وطلبوا إليه أن يلفت نظر جلالة الملك إلى النداء سالف الذكر، وفوق هذا النداء جاء في المجلة مقالات تفند اثنتان منها المحاولات التي عملت لتبرير الاجراءات الفرنسية ، وقد نشرت الصحيفة العربية التي أشرنا إليها مقالاً دافعت فيه عن فرنسا ، ونشر وزير فرنسا المقوض في القاهرة بياناً ، ونشر في المجلة النص الكامل للاحتجاج الذي وجهه باسم مسلمي فلسطين رئيس المجلس الاسلامي الأعلى في القدس وسلمه لقنصل فرنسا العام في القدس ، وكان صدى هذا النداء في جاوة باعثاً للمفوضية الفرنسية هناك على أن تنشر على جانبه بيانات رسمية تلتطف الوقائع ، ونشرت مجلة ، الرابطة العلوية، دحضاً لها ختمه الكاتب بقوله : أما نحن فترى شيئاً واحداً وهو أن فرنسا تتجاهل المسلمين إلى حد اعتبارهم مخلوقات لا عقل لها ولا تمييز .

ولا نريد التعرض هنا للحوادث التي وقعت أو يقال إنها وقعت في طرابلس وبرقة ، وعلى كل من يهتم بها وبالاتر القوي الذي أحدثته في العالم الاسلامي أن يرجع إلى المجلة التي يصدرها في جنيف الأمير شكيب أرسلان باسم (La Nation Arabe) (الامة العربية ، أعداد ديسمبر ١٩٣٠ وأعداد مختلفة من ١٩٣١) أما جمعية الشبان فقد دعت إلى عقد اجتماع خاص قرر إرسال بيان

إلى جمعية الأمم ونشره في العالم الإسلامي (المجلد يونيه ١٩٣١) وقرر أيضاً إرسال وفد إلى طرابلس وبرقة ليتأكد من صحة الوقائع ، وتنفيذاً لهذا القرار أرسل مجلس إدارة الجمعية لوزير إيطاليا المفوض في القاهرة يطلب تحديد موعد لزيارة وفد من أعضاء الجمعية للبحث في الطريقة التي يمكن بها إرسال الوفد إلى طرابلس ويقترح أيضاً أن يكون أحد العلماء الإيطاليين المقيمين بالقاهرة عضواً في ذلك الوفد . لم يتلق مجلس الإدارة رداً كما هو مبين في المجلد ، الأمر الذي زاد كثيراً في سخط الجمعية — وقد جمعت الجمعية إعانات لطرابلس في يولييه ١٩٣١ . ويظهر في كثير من المقالات الأخرى ذلك الاهتمام الذي توجهه الجمعية للعالم الإسلامي ويكفي أن أشير إلى احتجاجها على إغلاق المساجد في تركيا وعلى مهاجمة روسيا السوفيتية للإسلام بإغلاق المساجد والاستيلاء على أوقاف الجاليات الإسلامية (يولييه وأغسطس — سبتمبر ١٩٣٠)

وواضح أن نشاطاً كهذا تقوم به الجمعية إلى هذا الحد ويمثل هذه المهمة والحصاة لابد أن يثير التفات العالم الإسلامي ويحتذب أحسن العقول وأقوى العزائم ويقود إلى دار الجمعية زواراً من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ويزيد في ذلك أن القاهرة مركز الإسلام العقلي بل مركزه الجغرافي أيضاً ، فلا ندهش — إذن — أن نجد بين ضيوف الجمعية ومحاضريها رجالاً مثل الزعيم الهندي العظيم شوكت علي والاستاذ الثعالبي الزعيم التونسي الذي ألقى محاضرات كثيرة والدكتور « سنكيفتش » مفتي بولنده ، وقد زار شوكت علي الجمعية كثيراً وجعل ناديهما مقاماً يقابل فيه زائريه وتقام الحفلات تكريماً له ، ونجد في المجلد مقالات هامة لكتاب غير مصريين وأخص بالذكر اثنتين بعنوان « الحركة الفكرية في مراکش » لكتاب لم يذكر إلا الحروف الأولى من اسميه ولكن عضو في الجمعية . وواضح أنه من أهل مراکش ، في هاتين المقالتين تتجلى الدقة والأمانة وهما تشفان عن علم تام بشئون مراکش وتمدانا بمعلومات

عن الحركات الفكرية والدينية في تلك البلاد تكاد لا توجد في كل ما ينشر في أوروبا، نعرف من هاتين المقاتلتين نعرف أن في مرا كش حركة إصلاح دينية قومية تقف أساليب الاستعمار الأوروبية ، هذه الحركة التي يظهر أنها سائرة بحزم وحكمة تعتمد بالطبع على همم الشباب وتتغذى بأراء الشرق العربي ، ولكنها لم تل تأيد الاشراف من سلالة النبي ولا تأيد رجال الطرق ، وما يدعو إلى الدهشة أن هذه الفئات التي تمثل القديم تؤيد النظام الجديد ، أعني الاستعمار الفرنسي حتى بآيات من القرآن وبأحاديث نبوية وهم كما يقال : كالآلات الصماء التي يحركها الانسان - متى شاء - لما اصطنعها له .

نرى عما سبق أن ليس هناك في الواقع جامعة إسلامية بالمعنى السياسي ولكن هناك إرتباطا فعليا بين الجماعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم الإسلامي وشعورا قويا بالوحدة ، نأهنا الشعور من تلقاء نفسه - ونأفيا يظهر - إلى جانب مختلف الأحداث التي أصابت العالم الإسلامي ، وسنرى بعد قليل أن توثيق الرابطة الإسلامية إحدى نقط جدول الأعمال في مؤتمر مجالس الإدارة المنعقد في القاهرة في يولييه ١٩٣٠ وقد طال فيها النقاش وأصدرت قرارات كثيرة بالخطط المختلفة التي يجب تحقيقها ، وإن اجراءات مؤتمر مجالس الإدارة لها شأن خاص لأنها تعطينا فكرة عن الحياة الداخلية للجمعية وعن آراء ونزعات هؤلاء الشبان وتبين الأفكار السائدة الحية في الجمعية ، وقد بحث المؤتمر في مواضيع مختلفة أهمها : وسائل توثيق الرابطة الإسلامية بين الأقطار المختلفة ، وسائل تخريج نشء مثقف تثقفا إسلاميا صحيحا ، وسائل مقاومة حركات التبشير والألحاد ، وقد ناقش المؤتمر مقترحات كثيرة وأصدر قرارات بهذه المسائل .

أما عن أولى النقاط التي بحث فيها المؤتمر وهي وسائل توثيق الرابطة الإسلامية فقد قدمت اقترحات ونوقشت نذكر منها : (١) عقد مؤتمر مجالس إدارة جمعيات الشبان المسلمين في بلاد إسلامية مختلفة (٢) تعرف أحوال المسلمين

في الأقطار المختلفة بأعداد ملفات في كل جمعية تتضمن أخبار البلاد ويستوثق من صحة المعلومات بكل الطرق (٣) أن يكون للجمعية ميثاق سيذكر نصه فيما يلي (٤) يعهد إلى لجنة من الاختصاصيين دراسة مشروع إنشاء مصرف إسلامي وشركات تعاونية إسلامية وتقديم تقرير عن ذلك للمركز العام للعمل على تنفيذه (٥) عهد إلى لجنة دراسة مشروع إنشاء صحيفة إسلامية يومية وتقديم تقرير عن ذلك . وأصدر قرارات في مسائل أخرى واعتبر بعضها دأمان ورغبات ، يسعى إلى تحقيقها جهد الطاقة منها : تعميم اللغة العربية في الأقطار الإسلامية ، واستخلاص خط الحديد الحجازي للمسلمين ، وحث المسلمين على العمل لاعادة الخلافة (وسنزيد الكلام عن هذا الموضوع) ، وتكوين عصبة أمم إسلامية للفصل في المنازعات الإسلامية .

أما عن التعليم فإن الجمعية تعلق عليه أهمية كبيرة وقد أصدر قراران تنفذهما الجمعية نفسها وهما تأسيس مكتب لتحفيظ القرآن في كل جمعية وإيجاد فرق كشافة إسلامية بالجمعيات ، وأصدر قرار يوصي بأن تكون الأخاديت النبوية المتفق على صحتها موضوعا للوعظ والارشاد ، وهناك مسائل أخرى يتوقف البت فيها على الحكومة وقد قرر المؤتمر السعي لدى الحكومة في (١) تعميم التعليم الديني ودراسة التاريخ الإسلامي في المدارس وجعلهما من المواد الأساسية (٢) تنقية المحاضرات والبحوث في الجامعة من الأحاد وما يتصل به (٣) ترقية الوعظ الديني (٤) العمل بالتشريع الإسلامي لمنع البغاء والخمر والميسر (٥) منع التبرج ومنع أحداث الفتيان والفتيات من غشيان المحال المخلة بالآداب والمحافظة على الآداب في المصطافات (٦) تأليف روايات في موضوعات إسلامية وقصص تبث في الأطفال الروح الإسلامية ، وقد أعرب المؤتمر فيما يتعلق بالتعليم عن دأمان ورغبات ، كما فعل في مسألة الرابطة الإسلامية : هذه الرغبات هي : تأسيس مدارس إسلامية ، وضع تفسير للقرآن تشترك

في تأليفه لجنة من أهل الفضل ، أن يكون للمسلمين دائرة معارف كبرى .
أما عن مقاومة الاتحاد والتبشير فقد تقرر : إنشاء لجنة علمية لمحاربة
الاتحاد وتزوير الناس في الدين ، إرسال مندوبين عن كل جمعية للرد على
المبشرين في اجتماعاتهم ، السعى لدى حكومات البلاد الإسلامية لتعديل قوانين
العقوبات في المواد الخاصة بحرية الرأي والبحث بحيث يكون هناك فارق واضح
بين هذا وبين الطعن في الدين ، السعى لدى جهات الاختصاص لتأليف جماعات
من العلماء للتبشير بالإسلام ونشر الدين على حقيقته .

والجمعية شارة وعلم أقر المؤتمر شكلهما ولها نشيد ألفه الأديب الشاعر
المعروف مصطفى صادق الرافعي وقد كان تلحينه موضع منافسة بين الموسيقيين
وميثاق الجمعية هو :

« على عهد الله وميثاقه لا قوم من بقدر طاقتي » :

١ - بأحياء هداية الإسلام في عقائده وآدابه وأوامره ونواهيه ولغته
ومقاومة تيار الاتحاد والاباحية المهديين لهذه الهداية .
٢ - أن أكون عاملاً مجاهداً في سبيل إحياء مجد الإسلام باعادة تشريعه
ورأسمته الكبرى .

٣ - أن أبذل جهدي في توثيق رابطة الاخاء بين جميع المسلمين وإزالة
الجفاء والاختلاف بين طوائفهم وفرقهم (٤) أن أسعى لتقوية الامم الإسلامية
بالمعارف التي ترفع مستواها العلمي والاقتصادي والاجتماعي والتي تزيد المسلم
تمسكاً بعالَم الإسلام وفضائله (٥) أن أعمل على تحقيق أغراض جمعية الشبان
المسلمين وتوسيع نطاق عملها وتكثير سواد أعضائها وتأهيل من أعرفهم من
شبان المسلمين للتخلق بالأخلاق التي تدعو إليها الجمعية .. على عهد الله وميثاقه
أن أقوم بذلك بقدر طاقتي غير مدخر في ذلك وسعاً والله على ما أقول شهيد ،
ولقد رأينا أننا أن أحد المقترحات التي عرضت على المؤتمر كان خاصاً بالعمل

على إعادة الخلافة الإسلامية وقد رأى المؤتمر أن هذه المسألة «من المسائل التي يتعذر عمل شيء فيها الآن، ولكن الأعضاء اتفقوا على إعلان أن إعادة الخلافة الإسلامية يجب أن تكون أمنية كل عضو من أعضاء جمعيات الشبان يعمل على تحقيقها متى سنحت الفرصة ، وفوق ذلك قبل الأعضاء اقتراح الأستاذ عبد الدين الخطيب إدخال العبارة الخاصة بالخلافة في ميثاق الجمعية والواقع أن المادة الثانية من هذا الميثاق تتكلم بشكل عام عن الإمامة العظمى في الإسلام ، وهي التي يجب على المسلمين توجيه الجهود لحياتها ، وإن الموقف الذي اتخذته الجمعية في مسألة الخلافة المشهورة يدل على حالة الرأي العام الآن في الشرق الأدنى الناطق بالضاد في هذه المسألة التي هزت الشرق هزة عنيفة بسبب إلغاء الترك للخلافة العثمانية، ويحسن أن نلخص وقائع هذه الحادثة .

في أول نوفمبر ١٩٢٢ وافقت الجمعية الوطنية الكبرى لجمهورية أقره على مشروع إلغاء السلطنة ، ولما هرب السلطان محمد الخامس إلى مالطة في ١٧ نوفمبر عزل في اليوم التالي ونصب ولي العهد السلطان عبد المجيد في نفس اليوم خليفة غير ذي سلطة زمنية ، ورغم أن الشريعة تقضي أن تكون السلطة الزمنية أحد شروط منصب الخلافة فإن عبد المجيد قبل الخلافة على هذه الصورة الجديدة ولم يكدهمضى أكثر من عام حتى قررت الجمعية الوطنية الكبرى إلغاء الخلافة العثمانية نهائياً ، وأخرج عبد المجيد في اليوم التالي وذهب إلى « تيرت » في سويسرة حيث يعيش فيها وفي بلد « نيس » الى اليوم .

وأضحى العالم الإسلامي الذي أزعجه اتزاع السلطة الزمنية من الخليفة في ١٩٢٢ في غاية الاضطراب في ١٩٢٤ بعد إلغاء الخلافة نهائياً . وسرعان ما بدلت الجهود للمناداة بخليفة جديد ، فبينما كان الملك حسين شريف مكة يزور شرق الأردن في مارس ١٩٢٤ قبل في «الشونة» يعة الخلافة التي أخذها بعض

أهل شرق الأردن وفلسطين وسوريا ولكنه لم يتمتع بوقت يكفى لكي يعترف
الجميع بتنصيبه خليفة شرعياً للمسلمين ؛ فلما هزمه ابن السعود ضاعت مكة
من يده فى أكتوبر ١٩٢٤ وذهب الى جده ثم الى قبرص فى يونيه ١٩٢٥ حيث
بقى فيها الى قبيل موته فى عمان (شرق الأردن) فى ٦ يونيه ١٩٣١ .

وفى تلك الاثناء بينما كانت الجهود الفعلية تبذل لتصيب الملك حسين
خليفة جديداً ، فكر علماء الأزهري في دعوة مؤتمر إسلامي عام ليفحص مسألة
الخلافة ويصدر قراره فيها وفق تعاليم الشريعة ومع مراعاة الظروف الحاضرة ،
وبعد تأجيل إثر تأجيل انعقد المؤتمر أخيراً فى القاهرة من ١٣ الى ١٩ مايو
١٩٢٦ . لم يكن المؤتمر عاماً كما كان ينتظر فالهند مثلاً لم توفد ممثلاً لها ،
وأصدر المؤتمر الذى كان يرأسه المرحوم الشيخ أبو الفضل الجيزاوى شيخ
الأزهري إنداك قراراً أعلن فيه إمكان تنصيب خليفة حسب نصوص الشريعة
ولكنه أعلن أن تعيين الخليفة يترك للمؤتمر تمثيل فيه كل الشعوب الإسلامية ، ولما
كان المؤتمر ينقصه هذا الشرط فانه أوصى جميع المسلمين ألا يهملوا مسألة الخلافة
فى المستقبل وأن يعملوا لاعادة ذلك المنصب الذى هو روح الإسلام ومظهره .
أكتب هذه السطور والمؤتمر الإسلامى العام الجديد يتأهب للانعقاد فى
القدس فى ٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ وقد نشرت الصحف العربية والانجليزية
والصهيونية وغيرها أن مولانا شوكت على عزم على أن يقترح على هذا المؤتمر
انتخاب عبد المجيد خليفة ذا سلطة روحية فقط ، وقد كذب شوكت على
هذه الاشاعة كما كذبها رئيس المجلس الإسلامى الأعلى فى القدس ، ولا
يعلم علم اليقين منشأ هذه الاشاعة كما لا يعلم إن كان لها أساس من الصحة ،
وتختلف وجهة النظر الهندية فى مسألة الخلافة عنها فى الشرق الأدنى ولعل
الرأى هنا ما نشرته صحيفة عربية فى دمشق (٢٣ - ١٠ - ١٩٣١) فى ختام
افتتاحية عنوانها : الخلافة الإسلامية : هل آن وقت البحث فى إحيائها ؟

والاجابة بالسلب : يجب ألا توفظ الخلافة من سبائها ولا يستطيع الآن شوكت على ولا أحد غيره أن ينصب خليفة ويجب أن ترقب تطورات جديدة لأن الجو غير صالح لإثارة مسألة تركت سنين طويلة لا تمس حتى نسيها الناس وشغلتهم عنها شئون أخرى :

ومن المهم أن نلاحظ أن مجلة نور الإسلام التي يصدرها الأزهر نشرت في تلك الآونة في عددها السادس من المجلد الثاني (جمادى الثانية ١٣٥٠ - أكتوبر ونوفبر ١٩٣١) بياناً مضاداً لفكرة البحث في مسألة الخلافة في مؤتمر القدس ، يقول هذا البيان إن حادثاً كهذا حدث الملك حسين في ١٩٢٤ لا يصح أن يتكرر ، وبعد أن أشار إلى قرارات مؤتمر القاهرة في ١٩٢٦ انتهى بقوله إن الوقت لم يحن للدخول في هذه المسألة ، والمسلمون في الشرق الأدنى العربي يعتقدون أن إثارة مسألة الخلافة ستبعث الشقاق بين المسلمين في حين أنهم ينزعون جميعاً في هذه البلاد إلى إزالة أسباب الشقاق .

نرى مما تقدم أن مسألة الخلافة ، تكاد لا توجد في الشرق الأدنى على الرغم من أن فكرة الخلافة بمفهومها التاريخي والشرعي أبعد من أن تمتد إليها أيدي الفناء ولقد أبان الأزهر عن رأيه في القضية المشهورة الخاصة بالاستاذ علي عبد الرازق . كان هذا الكاتب المبرز أحد علماء الأزهر وقاضياً في المحاكم الشرعية وحرر بعد ذلك في مجلة الرابطة الشرقية التي تقصر جهودها على اتحاد الشرق من غير اعتبار للدين أو القومية ، وفي ١٩٢٥ أظهر الاستاذ علي عبد الرازق كتاباً عنوانه « الإسلام وأصول الحكم » أعلن فيه أن نظام الحكم في الإسلام ليس نظاماً ، ثيوقراطياً (١) . وقال إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكن ينوئ إنشاء نظام خلافة كما يتمثل في أذهان العلماء . نعم لقد كان هو النبي ولكنه حينما مارس السياسة أو القيادة الحربية

(١) هو النظام الذي يقضى بأن تكون الهيئة السياسية الحاكمة من رجال الدين .

لم يفعل ذلك كني . وليس الدين أكثر من إرشاد للناس في سلوكهم ولا شأن له بالحكومة ويجب على المسلمين اليوم أن ينافسوا الأمم الأخرى في علوم السياسة والاجتماع وأن يذبوا الخلافة القديمة ويتخذوا أساس حكومتهم من الثمرات الحديثة للعقل البشرى والتجارب الصحيحة التي وصلت إليها الأمم فيما يختص بأحسن أصول الحكم .

أثار الكتاب مناقشات كثيرة في الصحف وأثار غضب علماء الأزهر . ويقضى قانون رقم ١٠ (١٣ مايو ١٩١١) بأن من واجب الأزهر تويخ أى عالم فى مصر لاى مسلك لا يليق بكرامة العلماء وبعد إجراءات تأديبية سحبت من على عبد الرازق شهادة العالمية وفصل من منصب القضاء وكان لهذه القضية نتائج أبعد مدى ، فان وزير الحفانية طرد من منصبه لأنه لم يبادر إلى فصل على عبد الرازق من منصب القضاء كما كان يجب عليه .

ولست هنا بصدد البحث فى آراء الهنود فى الخلافة ، ولا ذكر كتابا لعالم هندي مسلم معروف فى إنجلترا ، هو الاستاذ محمد بركة الله (مولوى) (١) من بهوبال ، نشره فى ١٩٢٤ بلغات مختلفة ، وعنوان النسخة الانجليزية « الخلافة ، The Khilafet (Lusac & Co., London) وعلى غلافه هذه الخلاصة « حينما ضلت الخلافة سواء السبيل فسد الاسلام والمسلمون ، وإذا أصلحت الخلافة صلح الاسلام وقاز المؤمنون ، ويصر المؤلف على أن يكون للمسلمين خليفة ذو سلطة روحية ومجرد من السلطة الزمنية ، ويرى أن « التنظيم الروحي عالم بذاته ويحتاج إلى طائفة تقف حياتها للقيام بشئونه ، وفى هذه الأيام دون كل ما عداها يجب أن يكون الدين فى متناول كل فرد من المجتمع ، يجب إصلاح التنظيم الدينى حتى يصير كاملا من الوجهة الفنية ، ويجب أن يثق كل طفل ثقافة خلقية ودينية حتى تيسر حماية المجتمع من الفساد ، وعلى هذا الأساس يرسم (١) كلمة هندية تستعمل فى معنى «صاحب الفضيلة» فى العربية .

بركة الله مشروعا للتنظيم الدينى على رأسه خليفة يجب أن يضم مجلسه وزارة الدين ووزارة لبيت المال وأخرى للمعارف والبحوث وإدارة الدعوة الإسلامية وتنظيم التبشير . أما عن تعيين هذا الخليفة الروحى فى الظروف الحاضرة فلا يستطيع المؤلف أن يقرر هذا الأمر الخطير الشأن ، ويمكن أن يكون مقر الخلافة فى القسطنطينية أو المدينة أو القاهرة .

ولتقارن برنامج هذا الاستاذ الهندى ببرنامج جمعية الشبان المسلمين لأن فى هذه المقارنة شيئا من الطرافة . هما يشتركان فى الأصرار على الدين والأخلاق دعائمين للحياة الاجتماعية ولكن بينهما فيما عدا هذا فرقا عظيما ، فتنظرية الاستاذ الهندى واسعة النطاق وتنفيذها بعيد عن حدود الطاقة لأن إقامة سلطة مركزية واحدة كما هو مرسوم فى البرنامج الهندى تعتمد على عوامل كثيرة يصعب تضافرها بطريقة عملية ، وإذا أقيمت هذه السلطة فهل تقدر على الإشراف على اختصاصها الواسع بطريقة فعالة ؟ أما عند جمعية الشبان فنرى عملا سريعا يفى بحاجات أولية وفى دائرة تشرف عليها الجمعية بقوتها الفردية . هذا العمل ينمو كما تنمو البذور الصالحة فى الأرض الخصبة ولو أنشئت أنظمة كثيرة من هذا القبيل وكان لها جوهره وشروطه وتضافرت فى العمل لقامت بسرعة حركة إصلاح عظيمة من تلقاء نفسها ولظهر تجديد صحيح لا يتسنى لذلك التنظيم الخيالى القائم على فكرة الخلافة الروحية .

وإذا أردنا أن نعرف حق المعرفة شأن جمعية الشبان فى العالم الإسلامى اليوم لا بد أن نبحث فيما لها من قوة وفى الظروف والعقبات التى تواجهها فى اضطلاعها بواجبها ، هل هناك قوى تؤيدها ؟ وهل هناك قوى أخرى تعترض طريقها ؟ ، يجب أولا أن ننظر إلى زعماء الجمعية ، هم رجال ذوو ثقافة عالية شرقية وأوروبية معا ، شبان فى عنفوان الشباب فيهم إرادة قوية تستمد قوتها من معين الأخلاق التى هى حب الله وحب الوطن ، والغاية التى يطمحون إليها

غاية خلقية أيضا هي أن يخدموا بلادهم ويخدموا الشرق بأن يضعوا الدعائم التي عليها وحدها تقوم النهضة والتجديد الصحيح وأن يكونوا عقيدة خالصة وأخلاقا صحيحة وثقافة كاملة تواتى حاجات بلادهم وحاجات الشرق ، فيهم قوة خلقية عظيمة تستطيع التغلب على أعظم المصاعب وإن شرف الغاية التي يطمحون اليها والقوة الخلقية التي يعتدون بها يؤثران في الآخرين تأثيراً قوياً بمجرد احتكاكهم بالجمعية إذا كان عندهم استعداد للرقى الصحيح وبديهي أن في مصر مثل هذا الاستعداد . والجمعية كثيرة الأعضاء متعددة الفروع تؤيدها كل طبقات المجتمع المصري ويؤيدها كثير من أعظم الرجال مكانة ، فصرع الاسكندرية تحت رعاية سمو الأمير عمر باشا طوسون أحداً مرأى بيت المالك ولكن الحكومة لا تؤيد الجمعية رسمياً وذلك فيما يظهر مراعاة للمسيحيين الذين قد تضار مصالحهم بسبب دعاية إسلامية قوية . ومهما يكن من شيء فإن في مصر عوامل كثيرة قوية تتضافر مع جمعية الشبان بحيث نستطيع الكلام دون معارضة عن اتجاه عام للفكر الإسلامى فى مصر . نجد الإسلام فى مصر يتبوأ أرفع مكان فى مظاهر الحياة العامة ، فى الدستور والحياة النيابية ، فى التشريع والتعليم العام وفى كل مظهر للآراء الاجتماعية ، وتمتاز حركة التقدم بتضافر عاملين أولهما نزوع إلى ماهو جوهرى فى الإسلام والثانى سعة الرأى التى تقبل ضروريات الحياة الحديثة وتدل بهذا على استعداد للتجديد الذى يتمشى مع الحكمة . وتنص المادة ١٤٩ من الدستور المصرى لسنة ١٩٢٣ على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام وقد تغير الدستور فى ١٩٣٠ ولكن تلك المادة بقيت كما هى بخلاف المادة المقابلة لها فى الدستور التركى :

وقد بحث نواب البرلمان المصرى فى تعديل بعض تفاريع الشريعة فيما يختص بالآؤفاف والقضاء وسن الزواج (١) ولكن المحاكم الشرعية لا تزال

(١) رفع سن البت إلى ١٦ والرجل إلى ١٨ عاماً وفى القضاء ضيق اختصاص القاضى الجزئى .

فائمة مثلها مثل المين الذى يرجع أصله إلى الدين ، ويظهر الثواب فى مناقشتهم لقوانين الشريعة احتراماً عظيماً لمبادئ الإسلام ، وقام من بينهم من يدافعون بحماسة شديدة عن تلك المبادئ كلها سنحت الفرصة .

أما عن التعليم فقد أدهشنى ماشهدته من رقيه حينما كنت فى مصر عام ١٩٢٨ ، وأدهشنى توفر الحكومة والأُساتذة والطلاب عليه وما بلغه من نتائج ، حقاً لقد كانت دراسة الدين الإسلامى وحب الوطن أساس هذا التعليم الذى يعنى أيضاً عناية كبرى بالألعاب الرياضية لينشئ جيلاً قوياً ، والحكومة تنشر التعليم الإلزامى تدريجياً فى كل أنحاء البلاد ولا شك أن البلاد ستبلغ حظاً عظيماً من الرقى بتقدم هذا التعليم الذى شهدته فى ١٩٢٨ وباستثمار تلك المواهب الخلقية والعقلية التى لا سبيل إلى إنكار أن الطبيعة جبت بها المصريين . وقد حاول وزير تولى وزارة المعارف فى ١٩٣٠ أن يغير هذا النظام فلقى معارضة وكانت وزارته قصيرة الأجل ، ولا أظن - والحالة كما وصفت - أن وزيراً يستطيع أن يطرح المبادئ الصحيحة التى تقوم عليها مناهج التعليم فى مصر .

وتسير حركة تعليم المرأة وإعطائها حقوقها بحزم عظيم ونظر ثاقب ، تصدر هذه الحركة سيدات شخصيات بارزة هى السيدة هدى هاشم شعراوى ، ويحسن أن نشير إلى المدرسة الفخمة التى ترأسها حرم الدكتور منصور فهمى أستاذ الفلسفة المشهور بالجامعة المصرية ، ولا ينكر أحد ما لتعليم المرأة من أثر فى الأسرة ولكن هناك معارضة فى فتح باب المنافسة بين الجنسين وفى حرية اختلاطهما وذلك محافظة على الآداب ، وسمح للطالبات بدخول الجامعة المصرية ولكن الجنسين لا يسمح لهما بالتعلم معاً ولا بالاختلاط لا فى الجامعة ولا فى المدارس العليا الأخرى .

ونرى العناصر الصالحة فى الأمة تدفع التعليم العام وتهيب به أن يضع الدين والأخلاق وسلامة البدن نصب عينه ، ونرى كذلك اتساعاً تدريجياً فى نطاق

المعاهد الدينية وفي آرائها ، فهناك إصلاح في الأزهر وهناك المجلة التي أنشئت منذ ستين نور الإسلام لتدرس تعاليم الإسلام وما يتصل بها من مسائل علمية وخلقية وتاريخية وفلسفية دراسجديا ولتصل فيها الى رأى صحيح ، ولهذا الغرض أنشئ قسم جديد يتبع تقدم العلم والفن ويترجم في المجلة عن الانجليز والفرنسيين والألمانية وبذلك ستأخذ المجلة من آراء العالم غير الإسلامى ولو نظرنا إلى الأدب العربى الحديث في مصر لوجدنا أحسن الأدباء بوجه عام يتحاشون الهزل والمجون في كتاباتهم ، فالعقول مفتوحة أمام ثقافة الغرب ولكن يغلب عليها شعور دينى وإحساس عميق بالحاجات الخلقية والاجتماعية . نلاحظ في هذا الأدب شعوراً متزايداً بالشخصية المصرية والشرقية المستقلة ، ونستطيع ذكر شواهد طريفة على هذه الحقائق من المرحوم الأستاذ المنفلوطى الذى يقف في مبدأ حركة الأدب الجديدة في مصر والذى يعد من أكبر ممثليها فوزاً بالتقدير إلى المجددين المعاصرين ، ويقول الأستاذ كراتشكوفسكى (Kratchkovsky) إن المنفلوطى يرى أى مبلغ من الرقى يستطيع أن يبلغه المسلم الذى يتمسك بمبادئ الدين الأولى . يقرر المنفلوطى في «نظراته» بعبارة تلهب حرارة وحاسة أنه مسلم قبل كل شيء ، ولناخذ أحد المجددين وهو الأستاذ على عبدالرازق الذى قدمه الأستاذ زهر للمحاكمة بسبب كتابه «الإسلام وأصول الحكم» فهو يعتقد أن محمداً رسول الله الأعظم وهو يقول في خطبة ألقاها في «الرابطة الشرقية» في نوفمبر ١٩٢٧ : «أشعر قبل كل شيء بأتى مصرى ، عربى ، شرقى - وبعد استئذان ساداتنا الدينيين الأجلاء - مسلم أيضاً ، وفي هذا برهان رائع على التطور في مصر فالمنفلوطى مسلم قبل كل شيء وعلى عبدالرازق مصرى مسلم قبل كل شيء أيضاً . والدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير صحيفة «السياسة» ، لسان حال حزب الأحرار الدستوريين ، مثال آخر كامل على التطور الفكرى الحديث في مصر وقد وصفه كتاب «زعامة

الأدب العربي المعاصر، الذي نشره في لندن طاهر خبير وكاتب هذه السطور بقوله «إن أعظم رأى يمتاز به، وهو الرأى الذى يردده كثيراً، هو مايسميه «بعث الشرق من جديد»، وهو يعتقد أن المنقذ الوحيد للمدينة هو يقظة روحية أو «نور جديد»، وأن هذا النور لا بد أن يطلع من الشرق، وله في الدين آراء محكمة، يذهب إلى أن العلم وحده لا يفي بحاجة الروح الانسانية وإلى أن الدين غذاء روحى لا غنى لنا عنه، (١).

وليس الشعور الاجتماعى الذى هو من أكبر مميزات جمعية الشبان قاصراً عليها، بل هو شائع يعم مصر والشرق العربى، فلما جمعت الأموال بعد وفاة الملك حسين لى يقام تمثال فى عمان عاصمة شرق الأردن لذلك الزعيم الراحل، زعيم استقلال العرب، نشر أحد محررى صحف القاهرة وهو مسلم يلتهب حماساً وبطل عاقل من أبطال قضية استقلال العرب، جزءاً من كتاب وصله من عمان قائلاً: ولكن أيها الاخوان هل تفرعون شيخ قريش فى رسمه باقامة التمثال بينما يوجد بين الأمة العربية قوم يسرون حفاة ولا يستطيعون من قهرهم المدقع لحاقاً بمدرسة، وبينما يؤم آلاف العرب مستشفيات المبشرين ليتداووا فيها؟ فلماذا لا يكون تذكار قهيدنا العظيم مستشفى فى عمان أو مدرسة فى حرم القدس يتفجع بها الناس؟ وكثيراً ما نرى اليوم مثل هذه الأفكار فى الصحافة العربية. هناك مجلات كثيرة وجمعيات خيرية تأخذ بنصيب فى هذه الحركة الدينية الخلقية. هناك مجلنا الفتح والزهرى ومجلة المنار التى يرأس تحريرها محمد رشيد رضا أحد تلاميذ محمد عبده. ومن الجمعيات المعروفة جمعية الهداية الإسلامية وجماعة الفيضيين التى يرأسها أبو الفيض وتقوم هذه الأخيرة بالوعظ فى داخل البلاد.

(1) Leaders in Contemporary Arabic Literature (London Kegan Paul & Co., Ltd.)

وتبذل الجهود القوية لاثراء الصناعات والمشروعات الوطنية التي يعدبنيك
مصر من أروع أمثلتها ويبدى طلعت بأشا حرب ، وهو مصرى صميم ، نشاطا
عظيما في هذه الناحية .

كان المصريون أثناء العشرين سنة الماضية عرضة لأن يفقدوا بسبب
اتصالهم بمدينة الغرب ، ما لهم من شخصية ويقطعوا الصلة بما لهم من ماض
ودين وأخلاق ويسلبوا أنفسهم مساوىء تلك المدينة دون أن يأخذوا ما فيها
من محاسن . والظاهر أنهم تغلبوا على هذا الخطر الذي كان يتهددهم ، فبالشعور
القومى وازداد تغلغلا وأوشك أن يكون شاملا ، وزاد معه فهمهم للحاجات
الحقيقية في بلادهم وفي الشرق ، والحق أن بينهم شعورا عاما يظهر قويا منظم
في نشاط جمعية الشبان المسلمين .

تتفق حالة البلاد العربية الأخرى : جزيرة العرب وفلسطين وسوريا
والعراق مع جوهر الحالة في مصر وهناك حقيقتان اكمل شأنها ودلالاتها : نرى
من جهة جلالة الملك ابن السعود - وهو مصلح دينى مدنى معا - يعود بالأسلام
إلى ثقافته السالف وبساطته ، ويفتح جزيرة العرب أمام مظاهر الرقى الأوروبى في
العلم والفن ، ويرطب الرحل وينعى موارد مملكته ويعد الأعمال الصحية ويقر
الامن والنظام في نصابها : ونرى من جهة أخرى في فلسطين وسوريا والعراق
جيلا نهضا من الشبان يتخذ بن سعود مثلا خلقيا أعلى ويجمع إلى شعور وطنى
قوى العمل على إنهاض الأسلام . تكلمت عن جمعية الشبان المسلمين في هذا
البلاد ، ولكن أستطيع أنؤكد من اتصال وثيق بشباب العرب في هذه البلاد
سنوات كثيرة أن فيها حركة قوية تجمع خيرة رجال الأمة وأوفرهم حظا
من الثقافة وتنزع منزع جمعية الشبان ، ويظهر أن السيادة ستصير إليهم بفضل
ما هم عليه من قوة الاخلاق ، وفي سوريا حيث تلتقى مؤثرات كثيرة نرى
الحركة مستترة ولكنها موجودة ونامية نموا قويا وراء هذا الستار وتبدو

اتجاهات التطور المقبل في هذه البلاد في الحركات الآتية : —

١ — سرعة نمو الكشافة العربية الإسلامية في المدارس وجمعيات الشبان وغيرها .

٢ — ازدياد ترقية الصناعات الوطنية واستعمال منتجات البلاد ومصنوعاتها ، وكانت خطب الزعيم الهندي شوكت علي أثناء زيارته سوريا وفلسطين حافزاً عظيماً لهذه الحركة ، وهناك اليوم لجان وجمعيات أنشئت لتنظيم الجهود في هذه الناحية ، وإن الوسائل الاستعمارية الأوروبية في أي صقع من أصقاع المشرق والمغرب تعمل باثارتها الشعور الإسلامي على صرف المسلمين عن شراء البضائع الأوروبية وتنشط الصناعات الوطنية ، ومن الطريف ما يندلج في سوريا وفلسطين من محاولات لابتكار لبس وطني ولا سيما للرأس .

٣ — العناية الخاصة بالتعليم الوطني الإسلامي ومن أنشط المدارس مدرسة النجاح في نابلس وأهم من كل ذلك : جمعية الثقافة العربية ، في بغداد .

٤ — الاهتمام المتزايد بتأسيس وترقية المؤسسات الدينية والخيرية .

وليس هنا مجال البحث في التطورات السياسية في سوريا وفلسطين والعراق ولا بيان كيف كان نظام الانتداب بتعطيله آمال العرب وعرقلة أمانهم عاملاً كبيراً على إخماد الشعور القومي وتعميقه ، ورأينا هذا الشعور يمتزج بين المسلمين بشعور إسلامي ، فالتقسيم السياسي لسوريا (سوريا التي قبل الحرب) والعراق إلى ثلاث إدارات انتدابية مختلفة فرنسية وإنجليزية ، ثم تقسيم سوريا (سوريا التي بعد الحرب) إلى ولايات مختلفة زاد الرغبة في الاتحاد إذ فهم السوريون أن هذا التقسيم يجرى على السياسة المشهورة : فرق تسد . وفي الحياة السياسية الداخلية والخارجية كلما قوى نشاط الأحزاب ، وهو أمر طبيعي في الظروف الحالية الشاذة ، زادت الرغبة في الاتحاد . والصعوبات التي تواجهها الحكومات المتمددة عظيمة ، وقد ضربت إنجلترا بتمهيدها لآلغاء الانتداب في العراق

وقبولها إياها عضواً في جمعية الإسلام مثلاً في الحكمة السياسية ربما تحتذيه فرنسا في سوريا وإذا تم هذا التغير صار من الممكن فيما يظهر أن تتحد سوريا والعراق .

أما فلسطين فإن ظروفها وأحداثها خاصة تتضافر على أن تجعل من هذه البلاد مركزاً جديداً لنهضة الإسلام ، والصعوبات المتعلقة بنظام الاستداب هنا معقدة بسبب فكرة الوطن اليهودي المفروضة على العرب وبسبب المزايم الصهيونية الأخرى ، ومعروف جيداً كم أثارت المسألة اليهودية من معارضة قوية من جانب العرب ، وكانت للقدس في هذا الشأن صولة هامة ، وشعر المسلمون أن مؤتمر المبعوثين الذي عقد على جبل الزيتون هجوم عام على دينهم كما أثارت مسألة المبكى العالم الإسلامي كله منذ قريب لأنه رأى ، صواباً أو خطأ ، في مطالب الصهيونية اعتداء على بقعة من أقدس بقاع الإسلام ، وكان من أثر تلك المطالب أن قوت عزم المسلمين على أن يجعلوا من ذلك المكان عينه الذي اعتبروه مركز الاعتداء على الإسلام حصناً تحشد فيه القوى للذود عنه ، وكان دفن المغفور لهما محمد علي الزعيم الهندى العظيم والملك حسين في الحرم الشريف والمشروع الذى يسعى له شوكت على بنوع خاص وهو تأسيس جامعة إسلامية عامة في القدس ثم المؤتمر الإسلامى الذى استدعاه رئيس المجلس الإسلامى الأعلى بالقدس للاجتماع في هذه المدينة في ديسمبر سنة ١٩٣١ ، كل هذه علامات على تطور لا يمكن - فيما يبدو لي - أن يقف تياره بسهولة لفة العوامل المعنوية المتضافرة فيه .

ولنسأل الآن : أين وجهة الإسلام ؟ مرمى هذا السؤال هو أن نعرف هل سيقدر الإسلام على الاحتفاظ بالوحدة بين شعوبه رغم هذا الانحلال السياسى وأمام غارة تشنها الأفكار الحديثة والعلم الأوروبى ؟ أترأه سيكون خصياً لها أم حليفاً ؟ أهو آخذ في الانحلال إلى قوميات صغيرة تتأثر كل منها

على حدثها بالآثرات الأوروبية وتنهج طريقاً خاصاً بها؟ إني وإن كنت لا أستطيع البت في الجزئيات فإنه يخيّل لي أن بعض المناهج العامة التي سيسير معها التطور المقبل يمكن أن تبين ما سبق ، وأستطيع أن أؤكد أن البلاد الناطقة بالضاد ولا سيما مركزها العظيم الذي يتكون من الكتلة المتناسكة التي قوامها مصر وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا والعراق ستلعب دوراً غاية في الأهمية وربما كان دوراً حاسماً، فتقافة هذه البلاد راقية جداً وسيزداد نزوعها إلى تكوين وحدة فكرية أساسها وحدة اللغة الأدبية وسهولة المواصلات بينها ، ونهضة الإسلام في هذه البلاد أمر واقع لا سبيل إلى رده ، ولن يحدث في البلاد العربية شيء يشبه ما حدث في تركيا فلن يقطع العرب الصلة بتاريخهم الإسلامي والأدبي المجيد ، بل إن ذكرى هذا الماضي من عوامل النهضة الوطنية والدينية ، ولن تستبدل هذه الشعوب الكتابة اللاتينية بالكتابة العربية ، ولن تحول بين الناس وبين أن يردوا المناهل الفياضة لأديبهم القديم ولن يبنوا هذه الوسيلة المدهشة التي تمكنهم من الاتصال بالعالم الإسلامي كله ، ولن يقوى أحد على إيقاف حركة النهضة الإسلامية في هذه البلاد لأنها الأساس الذي يحتاج إليه الناس لتقوم عليه نهضتهم الوطنية التي لن تقف ولن يرد سيرها إذا كان في هذه الشعوب صفات خلقية عالية تريد الوثوب في طريق الرقي . هذه الصفات متوفرة فيها وعلى ذلك لا بد أن تسير النهضة الإسلامية في هذه الكتلة العربية في الطريق الذي وصفناه من قبل وستصير كل من القاهرة والقنس بالتدريج مركزاً عظيماً للحياة الإسلامية بعد مكة وسيغد طلب العلم (كما حدث فعلاً) من البلاد الناطقة بالضاد في المغرب شطر مصر وفلسطين وسيزداد استجاءهم لها ليكملوا تعليمهم ثم سيعودون إلى بلادهم ليزيدوا نهضة الشرق شيئاً فشيئاً ، وسيحدث مثل هذا الأثر في الأصقاع الأخرى من العالم الإسلامي ، وإن الصحافة العربية التي بلغت مبلغاً عظيماً من الرقي في هذه البلاد

ستعمل كثيراً على تقوية تأثيرها في السلم الاسلامى كله ، ولن يقوى الانحلال السياسى على تغيير شيء من خصائص الحاجات الوطنية والدينية العامة ، وترى سيكون العالم الاسلامى الحديث خصياً أم حليفاً ؟ يتوقف هذا على أوروبا ، ويجب أن نقرر فى صراحة وتأكيد أن الكتلة العربية التى نحن بصددتها الآن لا تكن عداء لآوروبا أو الأورويين ولا للمسيحية أو المسيحيين ، وفى الشرق العربى يضافر المسلمون والأقباط فى ميدان السياسة ويمكن أن ندلل على هذا بأمثلة رائعة ، لكن هناك شيئين يستخطهما الجميع أشد السخط ، هما الاستعمار الأوروبى والسيادة الأمبراطورية الاستغلالية المفروضة على الشرق من جهة واعتداء المبشرين على الاسلام من جهة أخرى ، والشرق ولا سيما الشرق العربى لا يطيق صبراً على هاتين الطعنتين فى صميم حياته ولكنه لا يعادى أحداً ، فالشرق والحالة هذه يقف موقف المدافع لا المعتدى فتى ارتفع عنه الضغط وقفت مقاومته أيضاً ، والعالم الاسلامى يريد أن يعيش على ود مع الغرب ولكن على قدم المساواة ، ويحسن أن نذكر شعار ذلك الوطنى المصرى العظيم المرحوم مصطفى كامل : « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا » ، هذا هو الحل الوحيد الذى يمكن أن تحل به المصاعب الحاضرة فى الشرق العربى الأدنى بما فى ذلك أصعب المعضلات قاطبة وهى مسألة الوطن اليهودى ، وسيفضى الضغط والقوة اللذان يستعملان مع العرب إلى نكبات جسيمة ، وأصبحت الوعود قليلة الغناء والعرب لا يثقون فى الكلام ، لن تجدى الدعاية نفعا ولا « ميثاق السلام » (Brith Shalom) بين العرب واليهود ، ولن يحسم النزاع إلا اتفاق حريتهم تمضيه حكومة وطنية (من النوع الذى اقترحه « فلبى » فى جريدة « النيويورك تيمس » ، ٢٤ نوفمبر ١٩٢٩) .

ومن المعضلات التى يصعب حلها عدوان المبشرين فى الشرق العربى وقد رأينا أنه يثير الشعور الاسلامى . ويحسن أن نبين فى وضوح الموقف الذى

يواجه هذا العدوان في الكتلة العربية دون سواها، ولا شك في أن الأمر يختلف باختلاف أنحاء العالم الإسلامي ولكن يجب ألا ننسى الوحدة الإسلامية التي توثق الصلة بين هذه البلاد، وهناك حقائق كثيرة لا يمكن إنكارها أو إغفالها : أولاها أن المسلمين كما تقدم القول لا يكرهون المبشرين، وأشير هنا إلى مقالة زعيم مسلم عظيم النفوذ هو الأمير شكيب أرسلان كتبها في الفتح يثنى فيها على حماسهم وتضحياتهم (أنظر مجلة The Moslem World أكتوبر ١٩٢٣ ص ٤١٠) والثانية هي تعاون الشرقيين من مسلمين ومسيحيين تعاوننا وديا قويا على إحياء حضارة الشرق ولا سيما في مصر والعراق، ويحسن أن أشير إلى الدور الذي لعبه الكتاب المسيحيون في الصحافة والأدب في مصر، ومن أروع الأمثلة على ذلك مجلتا الهلال والمقتطف. أما في العراق فإن جناب الألب أنستاس الكرملي بمجلته « لغة العرب » أشهر من أن يذكر، والمسلمون والمسيحيون يقدرون ما بذله هذا الكرملي للترقي لانهاض لغة العرب وثقافتهم أعظم تقدير، وبذلك يؤثر كل من الشعور الإسلامي والمسيحي في تطور الآخر تأثيراً خفياً ولكنه تأثير قوى وقد نالت هذه الحالة تقديراً من جناب الألب ف. ت. بارت (البندكتي) الذي خصص مقالا طريفا لجهود الألب « انستاس » في مجلة تبشير المانية (Die Katolischen Missionen) أبريل ١٩٣٠) بمناسبة العيد الخمسيني لحياته الأدبية الذي احتفل به المسلمون والمسيحيون احتفالا عظيما في ١٦ يولييه ١٩٢٨ برئاسة الشاعر المسلم جميل صدق الزهاوي. أما عن العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين فإن الألب « بارت » يثبتنا أن المسلمين اليوم في العراق يحذون حذو المصريين ويؤسسون برياسة بعض العلماء الغيورين مؤسسات إسلامية خيرية تقص الصحف أمرها في حماسة من غير أن تمس المسيحيين بكلمة جفاء واحدة، ويرى الألب « بارت » أن المسيحية الأوروبية يجب أن ترحب بنهضة

[إسلامية كهذه النهضة الناشئة اليوم لأن المسيحية من العوامل التي تشكل حضارة الشعوب الإسلامية الناهضة ويقول إن فكرة المسلمين عن الله نقية إلى حد ما (١) وإذا كان تصوير الشعوب الإسلامية غير منتظر في هذا القرن فإنه يعضى قائلاً ، وبقاملاً سلاماً محتفظاً على الأقل بإيمانه بالله إيماناً خالصاً من الشوائب أمر غاية في الأهمية ، وإذا لم يعتصم المسلمون بالإيمان بالله استهدفت المسيحية الأوروبية لخطر جديد ، ويمكن أن تشاهد نتائج انقطاع آخر صلة بالأخلاق في تركيا الحديثة الحرة .]

والحقيقة الثالثة هي أن في الشرق العربي الأدنى على وجه التأكيد نهضة إسلامية قوية خلقية ، ودينية واجتماعية ، ستكون أساس الحياة القومية الجديدة وإذا عرفنا هذا تجلت حقيقة رابعة هي أن تصوير المسلمين مستحيل الآن ، ويمكن أن تنشأ ثلاثة أسئلة فيما يخص هذه الحقائق : (١) هل سيقنع المبشرون بتعاون المسلمين والمسيحيين على أنهاء حضارة الشرق وبما ينشأ عن ذلك من نتائج نافعة ؟ (٢) هل سيعارضون النهضة الإسلامية على النحو الذي وصفناه وهل سيعارضون في جعل الدين — ولو كان الإسلام — أساساً للحياة القومية الصحيحة ؟ وإذا كان تصوير المسلمين في الظروف الحاضرة مستحيلاً فلم يبق أمام هذه الشعوب الإسلامية إلا أحد أمرين : إما النهضة الإسلامية وإما المادية والفساد الخلقي ، وأى الأمرين خير للمبشرين ؟ وأيها خير للشعوب الإسلامية انتهى لاشك في أن المسيحيين المخلصين يحبون لها الخير ؟ (٣) ماذا سيستنبط المبشرون من هذا ؟ أقول مع التأكيد إن أحداً من المسلمين لا يعارض في « بيان محاسن الدين المسيحي » وفي إظهار الحياة والأعمال المسيحية الصحيحة ، وربما كان

(١) هذه كلمة غير عادلة ، فالحق أن الفكرة نقية إلى أكبر حد فقد جعلت الله في ذاته صفاته وأفعاله ما يليق بالسكّال الإلهي وفرقت تماماً بين الخالق والمخلوق بخلاف الديانات التي تمزج بينهما .

هذا مؤدياً إلى نتائج نافعة ، أما الاعتداء على الإسلام فلا ترجى منه فائدة وأقرر مع الأسف أن مثل هذا الاعتداء حدث في جهات كثيرة، وفي المسلمين اليوم من يقرؤون كل ما يكتب ويسمعون كل ما يقال بأى لغة ولن يرد لهم الاعتداء عن دينهم ولن يعوق النهضة الإسلامية بل سيقويها، هذا الاعتداء ليس من شأنه إلا تكدير الجو وخلق المتاعب في العلاقات الودية بين المسلمين والمسيحيين في الشرق وتوسيع الهوة بين الشرق والغرب مما يتعارض مع مصلحة المبشرين ومع ما نرغب فيه من إقرار العلاقات بين الشرق والغرب إقراراً شاملاً .

ثم لا قل كلمات قليلة عن جهات من آسيا الغربية لا تتكلم العربية وهي تركيا وفارس والافغان، ولما كانت تعوزني الخبرة الشخصية بهذه البلاد فاني أستقي ما أكتب عنها من مصادر وثيقة وممن خبروها بأنفسهم ، ولا سيما تركيا فاني أكتب عنها مستعيناً بما نشره الدكتور . جشكا ، (Jaeschke) من بحوث قيمة وبرسائله التي بعث بها إلى . لا توجد في تركيا حركة إسلامية ، ذلك أن الحرب الكبرى والنظام الجديد في الحياة العامة بعدها لم تسمح باستمرار آراء إصلاحية كالتى نادى بها سعيد حليم باشا ولم يصر شأن للآراء التى تشبها والتي قيل بظهورها سنة ١٩٢٨ حتى أن تركيا لم يبق فيها اليوم أساس للنهضة الدينية . كان الدستور التركى ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٤ يعلن أنه دين الدولة الإسلام (مادة ٢) وكان اليمين شرطاً على النواب وعلى رئيس الجمهورية (مادة ١٦ ، ٣٨) ، ثم إن مادة أخرى كانت تسمح في ظاهرها بإمكان العمل بقوانين الشريعة الإسلامية وكأما كان هذا كله مجرد تساهل مؤقت عدل عنه بعد أربع سنين ، والواقع أن هذه المواد ألغيت بقانون ١٢٢٢ (١٠ أبريل ١٩٢٨) وصارت تركيا دولة غير إسلامية ، فليس في مدارسها ثقافة إسلامية، وهناك ضرب من الثقافة الخلقية في كلية المعلمين وفي بعض سنى المدارس الابتدائية ولا شيء منه في المدارس الثانوية . أما اللغة

العربية والفارسية فلا يسمح بتعليمهما ولو على سبيل الاختيار ، وفي جامعة
استامبول معلم واحد يسمح له بإعطاء دروس في هاتين اللغتين ولكن لثلاثة
طلاب فحسب ويعتبر مدرسة ما كان أكثر من ذلك ولا بد لها من التصريح
من جانب الحكومة وهذه لا توافق على ذلك . ثم إن استعمال الحروف اللاتينية
بدل العربية يجعل من المستحيل قراءة القرآن أو غيره من الكتب الدينية بأى
لغة إسلامية ، وقد أغلقت تكايا الطرق الصوفية وأضرحة الأولياء ومنعت
مجالس الذكر حتى في المنازل ولا يسمح بغير الصلوات الخمس التي فرضها
الإسلام ولكن المساجد لا تغلق إلا في حالات قليلة . والحكومة التركية
راغبة عن الإسلام وقد أنقصت عدد الموظفين الدينيين وهي التي تعينهم
وتراقبهم أشد مراقبة في خطبهم وأعمالهم وتعزلهم من مناصبهم إن أظهروا
أقل ميل إلى عمل لا يتلاءم مع رغبتها ، وكيف يتسنى في ظروف كهذه أن تتقدم
أى حركة دينية في تركيا ؟ هذه البلاد المفتوحة على مصراعها أمام مدنية
أوروبا بما تحمل من شر . ولكن من المؤكد أن الإسلام لم يمت في تركيا فقد أخبرني
بعض الأصدقاء أن المساجد أكثر إزدحاما اليوم منها قبل الحرب ، ولكن
يجب أن نحتاط في تحليل هذه الظاهرة ، فلعل فيها كثيراً من معاندة الحكومة ،
هل هي نهضة إسلامية ؟ أشارت صحيفة (L' Orient) (الشرق) البيروتية
في عدد ١٢٧ (فبراير ١٩٣١) إلى هذه الظاهرة في مقال عنوانه :
Coran et Laïcité (القرآن والمدنية العلمانية) واستخلصت منها نتائج
لا تستند إلى أساس متين . وربما لا تدوم السياسة الحاضرة في تركيا ، وإذا
تغيرت فلا يستطيع أحد أن يتكهن بما سيحدث في المستقبل .

أما فارس فلا نستطيع الكلام عن حركة إسلامية حديثة فيها ، ومؤكد
أن الحكومة الفارسية لم تنزع الإسلام عن الحياة العامة كما فعلت تركيا ،
والدستور الفارسي لسنة ١٩٠٦ - ١٩٠٧ والمعدل في ١٩٠٩ ، ١٩٢٥ ذو صبغة

قومية دينية بل هو محافظ فيما يختص بالمسائل الدينية وقد عدلت الشريعة الإسلامية فيما يختص بالزواج (قوانين ١٥ أغسطس ١٩٣١) ولكن بطريقة صحيحة حازمة كما أدخلت الحكومة بعض الإصلاحات في الحياة العامة وأدخلت العلوم الأوروبية في المدارس غير أن شبان الفرس ليسوا - فيما يظهر - على أهبة للارتفاع بهذه العلوم ارتفاعاً كبيراً ، وفي فارس حالة عقلية وسط ، ليس فيها حماسة شديدة في التمسك بتقاليد الإسلام وليس فيها معارضة شديدة في نظام جديد ، ويظهر أن البهائية راكدة ، وربما كانت الحالة متوقفة في هذه البلاد على عوامل جنسية وتاريخية ، ويصعب على أي حال أن تهكن بسير التطور المقبل مادامت الأحوال كما هي الآن .

أما الأفغان فكانت آخر دولة إسلامية مستقلة تمسك بمذهب أهل السنة ، وربما كان يحس ملكها أمان الله بتوفر شرط جوهرية بيته لأن ينتخب خليفة . حاول أمان الله بدستور ١٩٢٣ - ١٩٢٤ وقانون العقوبات الذي أذيع في ذلك الوقت إدخال إصلاحات لم تكن بلاده مستعدة لها ففقد عرشه بعد خمس سنين من الاضطراب وعدم الاستقرار . والأحوال الآن أكثر هدوءاً في ظل جلالة نادر شاه (١) ولكن الظروف لم تساعد بعد على نمو النهضة الروحية نمواً منتظماً وبما يدهشنا أن يأتي من هذه البلاد ذلك المصلح الذائع الصيت ، جمال الدين الأفغانى الذى قصد إلى الغرب ثم إلى مصر فأثر فيها تأثيراً كبيراً وغرس هو وتلميذه الشيخ محمد عبده في مصر بنوراً أثبتت في الأرض أصولها وتوتى الآن أكلها وتنتشر بنورها فيما حولها شيئاً فشيئاً على حين يسود الجذب في البلاد اتى أتى منها المصلح ، ولكن البلاد الإسلامية الأخرى تقاسم مصر فيما أنتجت من ثمر ، وهل سيأتى وقت تنال فيه بلاد الأفغان ، التي كانت

(١) أغتيل المرحوم جلالة الملك نادر شاه بأيدى تجرّكها البساس في نوفمبر ١٩٣٣ وخلفه ولى عهده الملك الشاب محمد ظاهر خان واستتب له الأمر .

منبت البذور ، نصيبها في الثمر وتغرس في أرجائها بعض بنوره ؛ إذاً لكانت عروقتها أكثر ثباتاً فقد برهنت تلك البذور على ما فيها من قوة حيوية .

الفصل الرابع

الهند

بقلم اللفتانت كولونل م . ل . فرار

إن أى دراسة لآحوال المسلمين الماضية والحاضرة في الهند لابد أن تستند إلى إتمام النظر في عاملين كبيرين أثرا أبلغ تأثير في تطورهم وفيما يمتازون به منذ أوائل عهد الإسلام : أولهما انقطاعهم وراء حوائط طبيعية ، وثانيهما يشتم الهندوكية ، والهند الإسلامية منذ ١٥٠ سنة وليدة هذين العاملين ، ولكن يجب أن نضيف إليهما عاملين آخرين هما مجيء الحكم البريطاني ، والاتصال بالغرب وما أحدث من تأثير ، هذا العامل الأخير هو الآن أجدر العوامل بالاعتبار للرقى العظيم في جميع وسائل السفر والمواصلات ، ولكن لابد أن ينتظر دوره من بحثنا ، وسنبداً بالعاملين الأولين .

تقدم التوزيع العام للمسلمين في الفصل الأول من هذا الكتاب ، فقد أرانا كاتبه كتلة متماسكة من البلاد الإسلامية مركزها الشرق الأوسط ويمتد منها ذراعان قويان أحدهما غرباً إلى مراكش والثاني شرقاً إلى منغوليا ، ويشترك الحد الجنوبي الشرقى لهذه الكتلة مع الحد الشمالى الغربى للهند من الوجهة السياسية ولكن هناك مع طول هذا الحد — كما سيتبين بعد قليل — شعباً مسلماً متشابهاً تشابهاً يكفى لكى يمتد حد الكتلة المتماسكة إلى نهر السند . وتكاد شعوب الكتلة الوسطى تكون كلها من المسلمين ، وإذا استثنينا أجزاء من شمال أفريقية

شمّلها الحكم المسيحي وأجزاء من آسيا أدبجت حديثاً في اتحاد الجمهوريات الشيوعية السوفيتية رأينا أن هذه الكتلة ظلت طيلة ١٢٠٠ سنة تظلمها السيادة الإسلامية وتمتّع بالانظمة الإسلامية وتمسك بتقاليد الثقافة الإسلامية التي لم تقطعها إلا نكبة المخل العظيمة . أما الظروف التي عاش فيها مسلمو الهند فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فالمحيط ، رغم ما يقذف من رعب في الشعوب الهندية الإيرانية ، كان ولا يزال أقصر طريق وآمنه أمام الحجاج ، ولم تكن العقبة في الحدود البرية أقل خطورة منها في البحرية ، فكانت صحارى بلوخستان وسلاسل جبال هندكوش وسليمان العظيمة وما فيها من قبائل نهاية قوية على الدوام حاجزاً لا يقتحمه إلا قائد مظفر يمسه مفتوحاً مادام هو أو أبنائه قادرين على الاحتفاظ بسلطانهم . ورغم قرون كثيرة من التغلب الحربي الذي اقترن بالوسائل القهرية لا تدخل الناس في الإسلام بقدر ما لم يقترن ، ورغم سبعة قرون من الحكم الإسلامي الاوتوقراطي في الهندستان وأجزاء أخرى من الهند الشمالية ، ورغم نجاح دعاة الدين المسلمين - وإن كانت دعوتهم متقطعة - هؤلاء الذين أغفل مؤرخو الملوك أكبر نصيب من انتصاراتهم ولم تزل تقديراً يليق بها لأول مرة إلا من رجل غير مسلم هو « سرتوماس أرنولد » ، ورغم تسامح الإسلام الأخوي الذي لا يعرف نظام الطوائف بل يعد الناس كلهم إخواناً حتى اجتذب الملايين من قهراء المنبوذين والأتيجاس وطواهم في زمرته ، رغم هذا كله نرى اليوم حكومة الهند حكومة غير إسلامية ، بل إن أكثر من ثلاثة أرباع أهلها ليسوا مسلمين ، فالحكومة بريطانية وسواد السكان هند وكيون .

ولم يكن الهندوك المشركون (Polytheists) في نظر الغزاة المسلمين الأولين « أهل كتاب » ، أعنى أتباع ديانة موحدة ، بل كانوا كافرين ، دراهم « دار الحرب » ، ودماؤهم مهددة لا يعصمون إلا باعتناق الإسلام . ومهما قال

كتاب الاسلام المحدثون فمن الجلى أن جهوداً منظمة بذلت أول الامر لقهر الناس على الاسلام ، ولكن أولى المصاعب التي واجهها الغزاة كانت في حواجز البلاد الطبيعية التي حصرت عددهم وعرضت مواصلاتهم للخطر كما تقدم القول ، وكان عسيرا عليهم أمام هذه العوائق أن يدخلوا أى شعب في دينهم بالقوة فكيف بالانغرام ولكن الهندوك كانوا شعباً كاشعوب ، فنظام الطوائف بينهم والعقوبات التي كان يفرضها على من ينحرف عنه ثم نظرتهم للحياة ، كل ذلك جعل من العسير دخول أحد من كبراء الهندوك في الاسلام ، كما أن إقتسامهم إلى ولايات صغيرة جعل سرعة الفتح الناشئة عن هزيمة خاكم رئيسي واحد أمراً مستحيلاً . ورغم جهود بذلها بعض الفاتحين المتعصبين خلال قرون كثيرة لأرغام المغلوبين على الاسلام فقد عرف أولئك من أول الامر أن المسلمين يجب أن يقنعوا في غالب الامر بأن يكونوا حكاماً وبأن يمنحوا رعاياهم الهندوك حقوق « الذميين » التي ما كانوا ليستحقوها لو قد طبقت الشريعة الاسلامية تطبيقاً دقيقاً . أما الطبقة الدنيا من نظام الطوائف الهندوكي وأما المنبوذون فعلاً فكان لهم شأن آخر ، إذ اعتنقت الاسلام فئات كبيرة منهم ، يرجع بعض ذلك إلى ما كان للحكام الجدد من جاه وبعضه إلى رغبة تلك الطوائف في تحسين مركزها في ظل ما يسمح به الاسلام من ظروف . هي أكثر سخاء وأكثر مراعاة لحقوق الأشقاء الانساني وبعضه الآخر إلى استجابتها لنداء دعاة الاسلام . ولكن الهند ما تزال بلاداً هندوكية .

وإذا استثنينا وادي السند وبلوخرستان لم تبق غير مقاطعة واحدة يسود فيها المسلمون في الهند هي البنغال الشرقية ، وحتى « دلهي » التي ظلت عاصمة الامبراطورية الاسلامية قروناً كثيرة لا يبلغ عدد المسلمين فيها الثلث ، كما أن « لكنو » ولها مالدلهي من ميراث السيادة الاسلامية ، لا يبلغ المسلمون فيها ٤٠ في المائة ، وكان في « حيدرآباد » وهي الولاية الكبيرة الوحيدة التي يحكمها

المسلمون ١٠ في المائة فقط من المسلمين يقطن أغلبهم العاصمة ، والمسلمون في الهند الجنوبية ٥ في المائة فقط من مجموع السكان ، ونلاحظ عادة أن المسلمين يقطنون المدن إذا كانوا أقلية بالنسبة للمجموع كما في « الدكن » ، وأنهم يعيشون بالزراعة إذا كانت نسبتهم كبيرة كما في البنغال الشرقية والبنجاب ، وتعلو نسبتهم مع طول السند وفيما وراءه حتى تربي على ٩٠ في المائة وهم من وجوه كثيرة شعب مسلم حقاً .

ولنذكر هنا بعض المعلومات عن الجماعات الكبرى لمسلمي الهند . إن الكتلة الكبرى التي لا يداينها غيرها هي في شرق البنغال حيث نجد الزراع كلهم تقريباً مسلمين منذ قرون كثيرة . والدين عندهم أمر عظيم الشأن ، ودلائل النشاط الديني بينهم وافرة ، فالمساجد من الظواهر البارزة في الريف ، وتثقيف الأطفال تثقيفاً دينياً أمر شائع بينهم ، وتابعت بينهم نهضات دينية واسعة النطاق بين حين وآخر في القرن الماضي ، كانت كلها من الطراز السلفي المتشدد ومحت كثير من الصبغة الهندوكية التي كانت من قبل ، ويلتف حول الوعاظ المتفانين جموع كبيرة ، وتأدية فريضة الحج مطمح كل رجل يحترم نفسه ، هم لا يتهاقون على المدن لأنهم يؤثرون الحياة في منازلهم المنفرقة وحرث قطع الأرض الصغيرة التي يزرعونها أرزاً ويخص كل زارع منها مامتوسطه فدانان ونصف ، ثم إن عدم قيام القرى وصعوبة المواصلات وندرة طبقة غنية في طول تلك البلاد وعرضها وأهم من ذلك تأخر التعليم تأخراً عظيماً كل هذه تحول دون نمو الأنظمة التعاونية والمسئولية الاجتماعية ، لذلك بينما تعد البنغال حسب إحصاء ١٩٢١ حصن الإسلام الحصين نرى أهلها المسلمين لا يأخذون في تقدم مسلمي الهند عامة بحظ يتناسب مع عددهم ، وكان في مقاطعة البنغال في إحصاء ١٩٢١ ٢٥ مليوناً من المسلمين من مجموع يبلغ ٤٧ مليوناً ونسبة السكان المسلمين آخذة في الازدياد المستمر ، وتأني البنجاب بعد البنغال في القوة العددية ، فيها ١١٥

مليوناً مسلماً من ٢٠.٧٧ مليوناً ، ويكاد يكون شمال المقاطعة وشمالها الغربي كتلة مسلمة لاشذوذ فيها ، وفي الأقاليم العليا من المسلمين ٦ مليون ونصف أو ١٥ في المائة ولا تخلو هذه النسبة المثوية الضئيلة من طراقة لان هذه الأقاليم كلها كانت تظلمها السيادة الإسلامية منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وفي السند نحو ٧٣ في المائة وفي بلوستان ومقاطعة الحدود أكثر من ٩٠ في المائة من المسلمين ، وإنما في البنجاب أي في « دلهي و « أجراء و « أوده » يجب أن ترقب ظهور الرجال والجماعات التي لا بد منها لكي تهتد لمسلمي الهند ما يحتاجونه من قيادة. ويندر أن يجد المسلم العادي من أهل المدن بيئة إسلامية تحيط به وأقصى ما يحظى به أن يقطن حياً إسلامياً أو شارعاً إسلامياً ولكنه لا يكاد يجاوز باب بيته حتى يجد نصف من يلقي أناساً تجرى كل فكرة لهم على خلاف أفكاره ، ويختلف لباسهم عن لباسه ويختلف تشذيب شعرهم ويختلف مثلهم العليا وعاداتهم وأساليبهم حتى تميزه عنهم أدق تمييز . أما القروي المسلم فهو أحسن حالا إلى حتماً لأن المجتمع القروي في الشمال على الأقل متشابه عادة ، ولتسامل الآن إلى أي حد يشعر الرجل العادي من مسلمي الهند الذين لا يرحون منازلهم بفقدانه للبيئة الإسلامية الكاملة ؟ إن أول الآثار التي انطبعت في نفسى في الحدود الشمالية الغربية للهند منذ أربع وثلاثين سنة لا تزال حية أقوى ما تكون الحياة ، وقد قضيت أول سنى خدمتي في الهند في مدينة « بارلي » في الأقاليم المتحدة حيث يبلغ المسلمون الخمس ونظراً لأنني كنت أعمل بين أورطة من مسلمي الهند في تلك الناحية فقد درست اللغات الإسلامية وقرأت كتباً عن السفر في البلاد الإسلامية ، ثم انتقلت الأورطة بغتة مجاوزة السند إلى « كوهات » حيث وجدتني مأزولاً في الهند البريطانية ولكن كما أنما انتقلت إلى بلاد إسلامية أخرى بعث طابعها الإسلامي الكامل في نفسى نشوة من السرور وهزة في الشعور لما أنسهما ، وإذا كان هذا هو ما يشعر به مسيحي استطعنا أن نذكر

مالا بد أن شعر به المسلمون من أعضاء أورطى ومقدار ما أدركوا أنهم كانوا يعانونه من خسارة لأنهم ولدوا وتربوا في البلاد الهندوكية . ولكن بعض الباحثين ينكرون أن انقطاع مسلمى الهند في بلاد وثنية يضرهم بل هم يعتقدون أنه كان مفيداً لهم وأنهم بسببه صاروا أكثر تمسكاً بأصول الإسلام وأحسن إسلاماً من إخوانهم في البلاد الإسلامية المحضة ، غير أن قليلاً من الهنود المسلمين أو من غيرهم سيقبلون هذا الزعم .

ثم لتكلم عن عدد مسلمى الهند ، أنهم يكونون أقلية متفرقة في بلاد شاسعة بحيث أن مجموعهم حسب إحصاء ١٩٣١ يبلغ ٧٧ مليوناً ، فهم ربع مسلمى العالم . ولكي نعرف تكوينهم يجب أن نرجع إلى تفاصيل إحصاء منذ عشرين سنين حين كان مجموعهم ٦٨ مليوناً ، من هؤلاء أجناب كانوا يقدرون بما يقرب من خمسة ملايين وهم من سلاسل مهاجرى العرب والفرس والترك والافغان وكان الباقون هنوداً أو سلاسلهم ممن خلعوا الهندوكية وما يتبعها من التحل واعتنقوا الإسلام ، وكل ما يربى على نصف هؤلاء من أصل وضيع ، ولكن لا بد أن كثيراً منهم كان من الطبقات العليا ، ففي ١٩٢١ كان مالا يقل عن ٧٠ من المائة من طائفة «راجوت» مسلمين و ٤٧ في المائة من «الجات» مسلمين أيضاً . وبما له معناه أن تزيد قوة المسلمين في عشر السنين الأخيرة بنسبة لا تقل عن ١٣ في المائة وأنهم آخذون في الازدياد بنسبة أكبر من الهندوك ويقل سمو الأمير أغاخان : « كان المسلمون منذ خمسين سنة خمس سكان الهند ، وهم الآن أربعة ، وقيل أن يكتهل أبناؤنا سيكونون ثلثه ، ويجب أن نضع إزاء هذا التقدير مسألة أخرى هي أن الهندوك ازدادوا بنسبة ١٠ في المائة ، ولكن نسبة زيادة المسلمين رغم هذا تعلقوا باستمرار ، وربما كان لهذا الازدياد السريع في الهند نظير في الأجزاء الأخرى من العالم الإسلامى التى يحكمها الأجناب أو يشرفون عليها مما يختلف اختلافاً تاماً عن حالة الركوند في البلاد الإسلامية المستقلة .»

وهناك أمر شائع لا يغيب عن أنظارنا هو اختلاف المسلك الذى تتوقعه من الأمم الإسلامية المستقلة وغير المستقلة أزام المؤثرات الغربية ، فالأخيرة أوثق صلة بالغرب ولكن الأفراد فيها يتمتعون بقسط أكبر من الحرية والرعاية المسلمون أحرار فى النفس بأرائهم ونظمهم أوفى تعديلها . أما فى الأول فهناك أوتوقراط يقرر للناس إما أن يظلوا على وجهة من النظر ضيقة كما فى بلاد العرب وإما أن يندفعوا إلى الطرف الآخر كما فى تركيا نابذين الدين جانبا . ولنعلم إلى الهند . إن ضخامة عدد المسلمين وسرعة إزديادهم واتصال الفئة المثقفة فيهم اتصالا وثيقا بالمدينة الأوروبية والمؤثرات الأوروبية يجعل لهم دون غيرهم شأنا خاصا فى العالم الإسلامى بوجه عام ، هذا الشأن الذى لم ينل ما هو خليق به من تقدير إلا فى ١٩٣١ فى كتاب جامع للدكتور يتوس (Titus) يسمى Indian Islam (المسلمون فى الهند) هذا الكتاب ومقالة الدكتور كريم Kraemer الحديثة ، Islam in India (الإسلام فى الهند) التى ظهرت فى ١٩٣١ فى مجلة The Moslem World (العالم الإسلامى) يزيدان زيادة قيمة فى دراسة موضوعها ، ويظهر أن وصف الدكتور كريم لنفسية الهنود المسلم له قيمة خاصة .

يعيش ثلث مسلمى الهند فى البنغال الشرقية فى حالة عزلة عظيمة ، لغتهم هى البنغالية وقل من يعرف منهم غيرها ، أما الباقون فعظمهم يتكلمون بالأوردية لغة أصلية أو مشتركة ولكن فى « السند » و « جوجارات » و « مايار » وغيرها جماعات تشبه البنغاليين فى العزلة اللغوية . واللغة الأوردية بين مسلمى الهند تلى الدين مباشرة فى العمل على الوحدة العامة ويتكلمها جميع مسلمى الشمال فى حياتهم اليومية وبسبب ما لهؤلاء الشماليين من عراقة فى الحكم ولتعتهم بأوفر حظ من النشاط العقلى والجسمى وبأوفى قسط من التضامن فانهم يصعدون غيرهم فى كل تقدم دينى وتعليمى واجتماعى فى هذه الأيام وإن منزعهم حيال التأثيرات

الأوروبية هو المنزع الذي يحتمل أن يحتديه دون سواء سائر مسلمي الهند ،
ولذلك فإن الحكمة تقضى علينا أن ندرس اتجاه الفكر وأنواع النشاط التي
تبديها هذه الفئة في الهندستان وغيرها من جهات الشمال إن أردنا أن نعرف
المناهج التي يحتمل أن تسير معها حركة التقدم وأن نعرف كنه ما قد يقع من
تطورات . وفي أعماق الدكن مركز للزعامة والروح الملهمة ، ذلك المركز هو
ولاية حيدرآباد آخر ولايات المخل القديمة ، ويعتقد كثير من المسلمين الوطنيين
آمالهم على هذه الولاية وعلى حاكمها المسلم وعلى توطيده العزم على إحياء
الثقافة الإسلامية عن طريق اللغة الأوردية

وإذا أعدنا فحص إحصاء ١٩٢١ وجدنا ٢٣ مليوناً من المسلمين يذهبون
مذهب أهل السنة ، والباقيون من الشيعة ، من الأولين ٤٨ مليوناً يتبعون مذهب
أبي حنيفة وهناك عشرة ملايين من الوهابيين ، وبين الشيعيين ما يقرب من ١٠
في المائة من فرقة الاسماعيلية وهؤلاء ينقسمون إلى فرقتين : البهورا ، و الخوجا ،
وزعيم هؤلاء هو أغاخان ، وما يدل على ضرورة التضامن أن يقبل جمهور مسلمي
الهند مع الرضا أن يكون أحد زعمائهم رجلاً يجب أن يعدوه من الخوارج ، وتقدّس
الأولياء شائع بين أتباع مذهب أبي حنيفة ، وتسلك طائفة كبيرة منهم طرقاً
صوفية مختلفة . وليست هذه الأعمال قاصرة على الهند فلا تحتاج إلى إطناب
في القول .

يذهب معظم الباحثين إلى أن تقدّس الأولياء ما يزال حافزاً ما كان له
من سلطان على قلوب الناس كما كان هو أكثر إرضاءً لنفوس من يمارسونه وأكثر
إبلاغاً لثَلَج القلب وطمأنينة من الأولياء وأمر الدينية التي نصت عليها الشريعة
وقرستها ، ويرى الكتاب المسيحيون في هذا برهاناً على ما يزعمونه من أن
المسلم العادي يحتاج إلى أن يتصل بالله إتصلاً شخصياً أكثر من الاتصال الذي
يحسبون أنه يباغ عن طريق تصوره لله ذاتاً غير شخصية أكبر من كل شيء

وقادرة على كل شيء، ويخبرني أحد أصدقائي المسلمين، وهو يشغل منصبا حكوميا عاليا فيساعد غيره على الحصول على وظائف، أن زعماء الدين الذين يحتلون بعض الأضرحة القديمة في شمال الهند أخذوا يشعرون باضمحلال سلطانهم الروحي على الناس ومن ثم بدؤوا يطالبون بضروب من السلطة الزمنية كمناصب الحكام الشرفيين.

وتفرد الهند بمقاومة الإسلام لبيته الوثنية التي لاتلن، ولا حاجة لأن أشير إلى الجهد المعروفة التي بذلها الأمبراطور جلال الدين محمد أكبر وبعض رجال حكومته وبذلها بعده ابنه الأكبر دارا شكوه، لكي يتفقوا مع الهندوكية اتفاقا دينيا على أساس من الصوفية التي تردد صداها من جديد في مزاعم المرزا غلام أحمد، ولا حاجة إلى الإشارة إلى ما استعير من مبادئ الصوفية وأعمالها في الهندوكية، ولكن أشير إلى التسامح الذي نشأ عن الاختلاط الاجتماعي وإلى تضاؤل مزاعم نظام الطوائف الهندوكي وإلى ما يشوب الشعائر الدينية عند طوائف كبيرة من المسلمين كان تحولهم عن الهندوكية أول الأمر ناقصا قصيرا الأجل، ولقد بينا أن المسلمين الذين فتحوا الهندستان سرعان ما عرفوا أن إقامة الإسلام دولة متماسكة ودولة دينية جامعة لا تتسع للكافرين كانت مطمحها لا يمكن تحقيقه من أي وجه، فلم يكن بد من التساهل، ونشأت أولى العلاقات مع الهندوك عن طريق أنظمة الزواج والتسرى والاسترقاق، وكان هناك مالا بد منه من تعامل بين الحكام المسلمين وبين التجار والصناع والزراع الهندوك فأدى إلى أن ينال الآخرون نهائيا حقوق الذميين، ثم أتيح لهم بعد ذلك اللحاق بالجيش وبالوظائف حتى كان عهد أباطرة المغل فتعاقبت قرات من التسامح المفرط والقمع الشديد، وألغيت الجزية قبل أن يقبض الانجليز على السلطة بزمان طويل، وعاش المجتمعان على توافق فيما بينهما في الظاهر على الأقل. وكان تسامح الهندوك الشامل المنطوي على تعدد الآلهة

شيئاً في بحث شيء من التسامح يمازجه احتقار من جانب المسلمين ، فأبدى
 الجانبان منذ قرن محاسنة يشوبها السخط ، لم تزد عن ذلك ، وكان الاختلاط
 الاجتماعي الحقيقي مستحيلاً ، ثم تطلب الموقف تعديلاً لا يخلو من طرافة ،
 فالتسامح الذي اضطر المسلمون أن يظهره للهندوك أظهره أيضاً للمعتقى
 النحل الأخرى ، ولم يكره المسلمون غيرهم قط ولم يحتقروهم احتقاراً سافراً
 بما كان ظاهراً ظهوراً قوياً إلى عهد قريب جداً في الممالك الإسلامية المستقلة .
 أما عن الطوائف فهناك ثلاثة مظاهر كبرى ، هناك أولا القبائل الزراعية
 التي تفتخر بأصنامها ونسبها وهي أخلص ما تكون في الهند الشمالية ، وترى الواحد
 من هؤلاء يقول إنه ينتمي لذلك الجنس وتلك القبيلة ، ويدل اسمه وناثونه في
 الأحوال الشخصية ويدل الكثير من عاداته على أصله الهندوكي دلالة لا تقبل
 الشك ، ويقابل هؤلاء طائفة الذين يمارسون الأعمال الحقةرة أو الذين
 لم يعتقوا الإسلام اعتقاداً تاماً وهم ينتمون إلى حرفتهم أو طائفتهم الهندوكية ،
 ونجد ثالثاً أناساً يتطفلون على طبقات أرقى ويطلق عليهم تعسفاً شبه نظام
 طوائف إسلامي ذو طبقات أربع تقابل الطبقات الهندوكية التي هي «برهمان»
 و«الكشتری» و«الفیش» و«السودرا» (١) وكثيراً ما يستعمل ذلك النظام من يدخل
 في الإسلام من الطوائف الهندوكية وأكثراً ما يشيع في الأقاليم المتحدة ،
 وسار عليه الجيش خطأ منذ أربعين سنة مع نتائج فيها فكاكة هائلة للنفس ،
 إذ دهش مسلمو الهندستان أشد الدهشة حينما رأوا أنهم مضطرون أن يسجلوا
 أنفسهم «سادة» أو «مغلا» أو «باتان» أو «مشايخ» ، وما كان يجرؤ أحد على أن
 يسمى نفسه «سيداً» إلا إذا كان سيداً بحكم ميلاده وكثيراً ما يلتمى الإنسان
 كثيراً من المغفل الذين لا يعرف بأي طائفة ياحقهم ، وكانت مئات من طوائف
 «الاهير» و«الجوجار» تختار أشد الحيرة مترددة بين أن تسمى نفسها «باتان»

(١) هي على التوالي : الكهنة ، الحاربون ، التجار ، الفلاحون وليس بينها أي ديمقراطية

أو «مشايخ» (١). أما عن عدم تمكنهم في الدين فأقتبس ما يقوله الدكتور تيتوس : « في بلاد كالهند ، جمع غالب المسلمين فيها من الطوائف الهندوكية الدنيا بدخولهم في الدين أفواجاً ، إما رهبة من القوة الحربية أو بغية نوال أمر يرغبون فيه أو بدافع الأغراء ، لم يتم اشراق الديّاخلين في الاسلام روحه كاملة ، فبين المسلمين طوائف كبيرة متفرقة تتم حياتها الدينية والاجتماعية في كل مناسبة تقريبا عن أصلها الهندوكي وهي مزيج غريب من القديم والجديد ، ولا نعجب من هذا كثيراً لأن جيوش المسلمين زحفت على البلاد موجة بعد موجة من «بشاور دالي» دكا ، وما وراءها ومن جبال الهملايا إلى الطرف الجنوبي من شبه جزيرة الهند ، واستمر ذلك قروناً ، وكثيراً ما حدث أن الذين دخلوا الاسلام ولم يرفوه جيداً تركوا وراء الجيش بعد زحفه ولم يتألوا إلا حظاً يسيراً من العلم بالدين الجديد ، وتركوا يتذكرون ويعملون ما استطاعوا وكان ضغط البيئة الوثنية عليهم عظيماً ، إذ بقي على الوثنية جيرانهم بل أقاربهم في نواحي أخرى ، فلا نعجب أن تبقى عبادة الاوثان في القرى كما كانت وأن تبقى العقائد الوثنية وأن يظل القسس البراهمة يؤدون عملهم وأن تظل الاعياد الهندوكية مرعية ، وليس موطن العجب في أن يتمسك الناس بهذه العقائد والعادات الموروثة بل العجب أنهم ما يزالون يعتقدون بالاسلام ، وقد أورد «ريزلي» و«دكروك» في تقارير الاحصاء وفي التقاويم معلومات كثيرة عن موضوع العقائد الهندوكية وعن العبادات والعادات التي تسير عليها هذه الجماعات من أنصاف المسلمين الذين يظهر منهم ميل إلى مختلف النحل مما جعلهم حديثاً موضع عناية المصلحين الشديدة من جانب المسلمين والهندوك ، وهناك طوائف لم

(١) «السادة» ملاله النبي ﷺ والمغل سلاسل المغل المسلمين ، و«الباتان» سلاسل الأفغانين ، والمشايخ سلاسل الصحابة . ولكن بين هذه الطوائف اختلاطاً وزواجاً ومساواة على الخلاف من الطوائف الهندوكية .

يقتصر أثرها على إهمال قواعد الإسلام الخس المفروضة ، بل يعبدون أربابا هندوكية صغيرة وكبيرة ولا يذوقون لحم البقر ويتخذون من البراهمة قسيسين في بيوتهم ويعتقدون بخرافات عديدة أصلها هندوكي أو وثي ، هذه الجماعات في الغالب متأخرة جاهلة حتى أن حالتهم أثارت اهتمام المصالحين ، ونستطيع أن نزعج مطمئنين أنهم بجهود المصلحين والتعليم وبازدياد معرفتهم بتعاليم الإسلام الخالصة سيصيرون أكثر تمسكا بمذهب أهل السنة أو بعبارة أخرى يمكن القول إنهم سيميلون إلى أن ينهجوا منهج جمهور المسلمين في الفكر والعمل . وهنا مصدر آخر لاضطراب المسلم الهندي الذي هو أكثر تمسكا بمذهب أهل السنة ، ذلك هو احترام الهندوكيين لأماكن المسلمين المقدسة ، وأعرف بنفسى ضريحين هما ضريح « سالار مسعود » قرب مدينة « بهايج » ، وضريح « الشيخ سرور » ، قرب « ديراغازي خان » ، يكثر فيهما حجاج الهندوك كثرة عظيمة وصدقاتهم دخل عظيم لسدة الأضرحة ، ولا يمكن أن يخطر على بالنا أن يسمح لمجوسي أو مسيحي بدخول مكان إسلامي مقدس في فارس أو العراق ليطلب الشفاعة ، على أن نهضة الشيخ الدينية ، هذه النهضة التي صحبت الحركة التي قامت بها فرقة « أكالي » ، من الشيخ ، منذ عشر سنين ، أدت إلى اقتياد الصور الهندوكية من كثير من معابد الشيخ القديمة المقدسة وربما كان التنازع بين الطوائف مما أدى إلى منع الهندوك من دخول أماكن المسلمين المقدسة التي من ذلك الطراز المشاع .

حاولت حتى الآن أن أبين عدد مسلمي الهند وتكوينهم وأن ألفت النظر إلى تكيف يثنهم لهم تكيفا خاصا دون أن أشير إلى ماتج عن قبض الانجليز على أعنة الأمور ومائشأ عن سلطانهم المفروض من تسوية بين الطوائف . كلنا يعرف الحقائق التاريخية ولكن لابد من ذكرها هنا باختصار ، في القرن الثامن عشر لم يبق للوك المغل أي سلطان ، وظلت مقاطعتان عظيمتان هما

«أوده» و«حيدر آباد» خاضعتين لحكام مسلمين يتظاهرون بالولاء لا باطرة
«دلهي» ولكنهما كانتا رغم ذلك مرتبطتين بمعاهدات مع الانجليز، أما
السند الإسلامية فبقيت خاضعة لحكامها، وقبضت قبائل «المرات» والانجليز
والسيخ على السلطة شيئاً فشيئاً حتى وجد الامبراطور نفسه سجيناً للمراناثم
صاحب معاش يتقدمه إياه الانجليز، وأخذ المسلمون يتقومترون بانتظام حتى
ألفوا أنفسهم منذ أكثر من قرن في منزلة من الانحطاط والمهانة، وتوالت
عليهم الضربات في الثلاثين سنة التالية، ذاقوا أولاً الحقيقة المرة وهي أنهم بعد
أن كانوا سادة الهندوك منذ ستائة سنة أصبحوا كالهندوك رعية لحكام الترموا
الحياد حتى ظهروا في مظهر من لا يبالي بنتائج الكفاح بين الطائفتين من أجل
اشرة والمنافع المادية، ثم جاء «ما كولي» بتراره الخطير الذي قضى بجعل
اللغة الانجليزية لغة التعليم العالي، وسرعان ما ألغيت بعد ذلك اللغة الفارسية
التي كانت لغة المحاكم الرسمية ولغة الدواوين، وأدخل «ما كولي» في ذلك الوقت
قانون العقوبات، واضطر القضاة الذين كانوا يطبقون أحكام الشريعة إلى
إخلاء السيل لضباط الإدارة، وهؤلاء قد يكونون من معتنقي أي دين وقد
يطبقون الشريعة على المسلمين وحدهم في مسائل الأحوال الشخصية وحدها
كالزواج والميراث وذلك إلى الحد الذي يسمح به الحاكم الدخيل لحسب.
وجد المسلمون أن جاههم ولى وأن قوانينهم زحزحت عن مكانها وأن لغتهم
أهملت جانباً وأن تعليمهم فقد قيمته المالية، ثم وقعت ضربات أقوى هي إضافة
«السندور» «أوده» إلى السلطة الانجليزية واثورة التي انتهت بمحو آخر ما بقي من مظاهر
حكم المغل الامبراطوري في دلهي وبمصادرة أملاك المسلمين بمصادرة واسعة
التنطاق، هذه النكبة الأخيرة أنزلت المسلمين إلى أسفل درك من الكبرياء المثلوم
والياس القاتم مما لاح أنهم لا يقدرزون على الخلاص منه، ويقول سيد
عبد اللطيف في كتابه عن تأثير اللغة الانجليزية في أدب اللغة الاوردية عن

هذه المدة ما يأتى : « لم يترك إنداك للمسلمين في شمال الهند ركن يأوون اليه ويجدون فيه المعونة ، وأصبحت حالهم تبعث على الرأى بعد أن سلبت منهم السلطة والثروة ، وأدى الانحلال التدريجى فى حياتهم الدينية والسياسية إلى سقوطهم السياسى ، أنفوا من ممارسة الصنائع والتجارة والعمل ، وكانت الإدارة عماداً مرهم ومذبدووا يفقدون سلطانهم السياسى زادت حالتهم الاقتصادية سوءاً على سوء ، وقامت فى غضون الجزء الأول من القرن التاسع عشر حركات كثيرة جديدة بالذكر نشأت فى جل أمرها عن شعور بالكبرياء المثلوم وعن رغبة فى العزلة والوقوف موقف الدفاع ، وبقي بعض هذه الحركات إلى يومنا فلا نحتاج إلى التفصيل فى وصفها ، ويكفى أن نقول إنها كانت من الطراز السفلى المتشدد الذى شعوره « الرجوع إلى القرآن » ولكنها كانت مصحوبة بنزعة عقلية عملت على زيادة بؤس الجماعة الإسلامية بعد خيبتها سنة ١٨٥٧ ، أبى المسلمون بتأثير زعمائهم الدينيين المتعصبين أن يستفيدوا من الفرص التى أتاحها لهم الانجليز لتحصيل العلم الأوروبى ، ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك أنهم أصروا طويلاً على عدم الالتفات بالفصول التى افتتحت فى كلية دلهى فى ١٨٢٧ ، أما الهندوك فلم يصيبهم مثل هذا التردد ، خلا لقليل من المتمسكين بالقديم ، وبفضل شغفهم بتحصيل العلم الجديد سبقوا مواطنيهم المسلمين . وسلك المسلمون ، عدداً قليل من شذ مثل حافظ نظير أحمد والكاتب الكبير زكاه الله ، تلك الخطة عدة سنين بعد الثورة ، ولكن خلاصهم كان قريباً ، ففى ساعة يأسهم المظلمة كان يعوزهم قائد يخرجهم إلى النور ويقيم ماتهدم من بنيانهم ووجدوا هذا القائد فى سر سيد أحمد خان . ولدهذا البطل المسلم المبرز فى دلهى عام ١٨١٧ وبدلاً من أن يشغل منصباً سورياً فى بلاط المغل الذى أنهكه الكبر آثر دخول الخدمة الانجليزية فى ١٨٣٩ وهو يناهز التاسعة عشرة وأحرز له رقيه المبكر منصباً مسئولاً حينما اندلعت الثورة ، وكان أثناءها وفاقاً للانجليز بما أدى لهم من خدمات

جليلة وفي آخرها ضاعف مابداً من جهود لاسترداد كرامة الجماعة الإسلامية
وللعمل على تقدمها ، وكلما مرت السنون وبدأت جهوده في صورة أصدق زاد
ظهور عظمة هذا الزعيم الكبير ، وكانت البساطة والصراحة والتمسك بالغاية
والعقل المثقف والخيال والحاسة والشخصية الآسرة وغير ذلك صفات توفرت
لديه فأحسن استعمالها . رأى أن أول ما يجب عليه هو تبرئة جماعته من تهمة أنهم
السبب الأكبر في الثورة حتى إذا استردوا كان لهم من سمعة طيبة رأى أن لا بد من
قبول النظام الجديد والتماس النجاة في العلم الجديد ، وعلى هذا بدأ يعمل وبعد
جهد دام سبع عشرة سنة أفلح في افتتاح الكلية الإسلامية الانجليزية الشرقية
في عليكرة سنة ١٨٧٧ هذه الكلية التي صارت منذ عشر سنين جامعة كما كان
يأمل . أدرك سرسيد من أول الأمر أن جماعته في حاجة إلى عصبة من الزعماء
يبدع علمهم تقاليد الماضي الخادعة ويزيل أنواع التعصب المهلكة وينفخ فيها
نشاطاً للعمل ويجعل منها قوة من المواطنين المخلصين الذين يحسنون التقدير ،
وأعلن غرضه في الحفلة الافتتاحية وهو أن يهز المجتمع كله بالتعليم ويبدع
رجال ، يدافعون ، كما يقول ، عن مبدأ حرية البحث المقدسة وعن التسامح
الواسع الصدر وعن الأخلاق الفاضلة ، ، نجح فيما رمى اليه نجاحاً عظيماً
فانتشر تأثيره وظهرت قوة كبيرة من الرجال الذين أخذوا من الجديد ماشاءوا
متمسكين بكل ما هو حيوي في القديم ، ونشأ من بين هؤلاء كل الذين يعملون
على التوفيق بين الإسلام والعلم الأوروبي الحديث والأخلاق الأوروبية
والاقتصاد الأوروبي أو يبينون — كما أحسبهم يفضلون أن أقول — أن
الإسلام ليس ديناً ضيقاً لا يسير التقدم بل هو دين عام في نزعته وأنه أثبت
قديمًا قدرته على التمشي مع ظروف الزمان والمكان وأنه ثبت ذلك مرة أخرى ،
ولترجع إلى سرسيد ، ثاني مؤسساته ندوة العلماء في لكنو وكلية لكنو
وهذا دار العلوم ، التي تتخف علماء الهند في علوم الإسلام تثقيفاً حسناً على ضوء

حاجات العصر الحديث ، وقد أفلح هذان الممها، إن كل في ميدانه المحدود ، وهناك إلى جانب جامعة عليكرة جامعات إسلامية في دكا ، و دلهي ، وكليات في جهات مختلفة كالكلية الإسلامية في لاهور وبشاور ومدرسة كلكتا، وكلية الشيعة في لكنو ومدارس عليا أخرى في الهند، وكان من النتائج الملموسة لحركة عليكرة تأسيس الجامعة العثمانية في حيدر أباد وهي التي أسسمها فخدمة النظام الحالي ، ونهج هذا المعهد طريقه الخاص بأن جعل اللغة الأوردية لغة التعليم الأساسي وأقصى الإنجليزية إلى المحل الثاني ، ويتصل بالجامعة قسم خاص للترجمة يمد الجامعة عن طريق الترجمة أو غيرها بكل ماتحتاجه من مراجع أورديه فيوجد بذلك ألفاظاً أوردية مهنبة يعترف بها الجميع وتعب عن كل الأفكار وتقابل الاصطلاحات الفنية التي يلاقيها الانسان في الكتب الأصلية ، هذه الجامعة تؤدي خدمة عظيمة جداً للغة الأوردية وللجاعة الإسلامية التي لها من هذه اللغة أقوى أواصر الاتحاد ، ومن المؤسسات الأخرى التي تعمل لترقية الأوردية « جمعية ترقية الأوردية ، في د أورانج أباد ، وجمعيتان من طرازها في الاقاليم المتحدة . وهناك نتائج أخرى ظاهرة للعيان ، نشأت عن حركة عليكرة ، وهي تكوين جمعيات في كل أنحاء البلاد تأخذ على عاتقها حماية مصالح الإسلام والمسلمين وسأقبس كلام الدكتور تيتوس مرة أخرى : « ومن الجمعيات الأخرى الجديرة بالذكر « المؤتمر الإسلامي العام للتعليم ، الذي أسسه في ١٨٨٦ سر سيد أحمد خان وكانت غايته ترقية التعليم الأوروبي بين المسلمين ، اتخذ هذا المؤتمر مركزه الدائم إلى جانب الجامعة الإسلامية في عليكرة ، وتعقد المؤتمرات كل عام في مدن مختلفة في شمال الهند عادة . ثم تأسست « الجمعية العامة لمسلمي الهند ، في ١٩٠٦ بقصد توجيه العناية الكبيرة لمصالح المسلمين السياسية لأن الناس أصبحوا يشعرون أن خطة سر سيد بتسكها عن أخذ قسط من حياة البلاد السياسية أضرت بمصالح المسلمين وإذا استثنينا بضع

سنتين أثناء الحرب وبعدها لم يتيسر أثناءها الاتفاق على الخطط ألفينا الجمعية تد
أدت عملها بانتظام بعقد اجتماعات سنوية وبإنشاء جمعيات إقليمية تتصل بالمركز
الأصلي، وهناك إلى جانب هذا عدد كبير من الجمعيات الأخرى كل تسعى على
طريقها لخدمة المجتمع في ناحيتها وفي سائر الهند في آن واحد، فجمعية علماء
الهند تعنى بشئون علماء الدين ولها فروع إقليمية وهناك الجمعية المركزية لتبليغ
الإسلام ومركزها مدينة « أمبالا » في البنجاب وهي جمعية قوية ناهضة
تنزع نزعة شاملة لبلاد الهند ولها فروع في الأقاليم بل في كل أجزاء البلاد
ويقال إن مهمتها المزدوجة هي : (١) منع الردة بالعمل على مكافحة جهود
حركة « آريا سماج (١) » التبشيرية وجهود المبشرين المسيحيين ، (٢) إرسال
مبشرين يعلمون المسلمين المتأخرين . وأيضا في كل مدينة هامة جمعية إسلامية
تعنى بتعليم المسلمين في تلك المدينة ومن أقوى الجمعيات « جمعية حماية الإسلام »
في لاهور وهي تضطلع بكثير من الواجبات مثل دحض الاعتراضات الموجهة
للإسلام والعناية بآيتام المسلمين واستخدام الوعاظ ، وأنشأت مدارس ودوراً
للآيتام ولها كلية ملحقة بجامعة البنجاب .

ومن النتائج الأخرى الهامة لجهود سرسيد نشأة مدرسة جديدة في الأدب
وكان هو أول باء على هذا بجته « تهذيب الأخلاق » التي غرضها الأول
تطهير الأخلاق والتي جهد فيها أن يزيل من بين المسلمين الآراء الخاطئة التي
لا تقوم على أساس صحيح والتي تتعلق بعزلة المرأة وتعليمها وما إلى ذلك ،
أما غرضها الثاني فهو خلق ذوق أدبي جديد . كان كتاب الأوردية إلى أيام
سرسيد يقدون في شعرهم وشعرهم الأساليب الفارسية تقليداً أعمى من غير أن
يأبهوا للصعوبات الفنية التي يقتضيها تغيير اللغة أو يحاولوا التخلص من تلك
المذاهب الصورية الجامدة التي تبلورت منذ ٦٠٠ سنة والتي عيذت الأبواب
(١) أي « تخلص الجنس الآري » وهي حركة تريد العودة للوثنية القديمة .

والأوزان الشعرية التي يلتزمها الشعراء دون سواها كما عذت موضوعات
للشعر وكرهت استعمال أى كناية أو استعارة أو تشبيه تخالف تلك التي أخلقت
دياجيتيم القرون، وكان أشهر أنواع الشعر هما شعر الغناء وشعر المديح وكان كل
منهما غزيراً فيه مبالغة وإغراق . وأما النثر فكان أغنى قليلاً لأن اللفظ كان
فيه مقدماً على المعنى وربما احتجج إلى عشرة أو خمسة عشر سطراً من العبارات
الجوفاء لاخبار القارئ أن ملكاً سار بجيشه ثلاثة أميال فى صباح يوم جميل .
لا حاجة إلى بيان ما فى مثل الأدب من جذب وماله من فعل يميت اللغة إلى
أقصى حد ، وما دام أكبر عدة الكاتب ألفاظاً متكلفة وكذباً وعبارات معقدة
كان مستحيلاً على سر سيد أن يستجد بالأدب ليعينه على تحقيق أول غرض
رمى إليه وهو أن يأخذ أبناء دينه من التعليم بحظ كاف ، غير أن المثل الذى يتمشى
مع الذوق المشترك والذى ضربه فى مجلته سرعان ما وجد مقلدين ونشأت بالتدريج
جماعة من الكتاب أطلقوا اللغة فيما بينهم من أغلال كانت تقيد عاوا وجدوا ماسموه
الأسلوب الطبعي وكاد يختفى شعر الغناء والمديح بموضوعاتهما وأدائهما العرفية
المحدودة ، وحل محلها أنواع من الشعر أكثر ملامعة تجعل للشاعر كامل الحرية فى
العبارة والموضوع ، وحدث مثل هذا فى نثر الأوردية فأصبح فى أسلوبه وموضوعه
شائعاً شيوع نثر أى لغة متمدنة اليوم وإن كان لا يزال متأخراً فى باب المذهب
الواقعي . وقد استنماد الأدباء من أنصار سر سيد من هذه الحرية الجديدة
فأخرجوا مؤلفات غرضها المرسوم حث مسلمى الهند وإيقاظهم وتعليمهم
حقائق العصر الحديث وإظهارهم على التغيرات التي يجب أن يقبلها الإسلام
الحديث كنتيجة للتطور المنطقي عن الإسلام الأول ، وصار البعض مثل محمد
شبلى نعمانى مؤرخاً للماضى المجيد وصار آخرون مثل حافظ نظير أحمد خان
كتاب روايات وقصص لكل منها مغزى خاص ، وكتب الشاعران العظيمان
لهذا العصر محمد حسين آزاد وسيد الطاف حسين حالى قصائد كثيرة غرضها

إستهزاء المسلمين ليدركوا سوء حالهم التي تقع عليهم تبعثها والتي يجب عليهم أن يحثوا عن طريق الخلاص منها ، نرى سيد الطاف في مسدسته المشهورة « مد الاسلام وجزره » التي لا يقرؤها من يعطف على الهندي المسلم من غير أن تبعت فيه الشجن ، نراه يبين لآخوانه وجوب إطراح الاستسلام القديم للآقدار ذلك الاستسلام الذي كان النتيجة الطبيعية لدين يدل مجرد اسمه على التسليم لارادة الله الذي لا يفتأ القرآن يؤكد قدرته وكبريائه وحكمه وقوته (١) يجب عليهم كما يقول سيد الطاف أن ينبذوا فكرة أن الاسلام جامد ويجب أن يقبلوا على تحصيل علم أوروبا ومبادئها بشغف وحاسة وأن يهضموا كل ما فيها من خير ويقتبس سيد عبد اللطيف قطعة من مجلة سرسيد ، « تهذيب الاخلاق » ، تستحق الذكر هذامرة أخرى لآنها تبين موقف سرسيد نفسه حيال الجود المنسوب للاسلام حيث يقول « إن التعليم الديني عندنا فاسد إلى أقصى حد فان أوامر الله التي بلغها ذلك النبي الحلو الشمائل في برامة وبساطة وصدق إلى أهل البادية الآمين الجهلة بطريقة سهلة واضحة صادقة ، قد شوها دخول فوارق وضروب من التمييز جوفاء وقضايا ميتافيزيقية وأدلة منطقية ما أنزل الله بها من سلطان حتى أن بساطة تلك الآوامر الأولى قدسنت ما كانت تحدته من أثر مما أدى إلى إضطرار المسلمين أن يهملوا الآوامر الصحيحة التي في القرآن والآقوال الصحيحة وأن يتبعوا ما اخترع زيد وعمر . ويميل النقاد إلى الاعتقاد بأن كتاب اليوم قد تنحوا عن موقف

(١) معنى الاسلام الاستسلام لا أوامر الله أى عدم رد الحق في ظاهره وباطنه ، أما الاعتقاد بارادة الله وقدرته وقدره فلا يوجب التواكل والتخاذل ، وجوهر الاسلام العمل فيجب أن يعمل الانسان غاية جهده وأن يأخذ بالآسباب ، أما إدراك النجاح فهو أمر آخر . وقد جاء في القرآن : (وقل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) وجاء في الحديث « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

سرسيد وأصبحوا لا يؤكّدون الحاجة إلى تحصيل علم أوروبا وثقافتها ، بل هم يقولون بكفاية القرآن وحده أساساً تقوم عليه النزعة الفكرية الحديثة في الإسلام ، ولكن جهود سرسيد مازالت قائمة ، وإذا كانت الغايات التي نشدها لم تتحقق تماماً فإن الطريق إليها على الأقل قد تبين وقطع فيه شوط كبير ، وإن سرسيد أحمد خان ليستحق كل الثناء الذي أغدقه عليه جميع الكتاب الذين درسوا حياته . لم تكتب له سيرة وافية باللغة الانجليزية ونستطيع الآن أن نرى سيرته في صورة صادقة ، ويظهر أن الوقت قد حان لكتابة سيرة وافية لحياته وغاياته ومراميه ومبلغ سيره في تحقيقها .

ذكرت الحركة التي بدأت بعد أن شمل الحكم البريطاني جميع البلاد والتي كان فيها شيء من الرجعية وكانت تغلب عليها الدعوة إلى الرجوع إلى أساسيات الإسلام كما أوحاه الله في القرآن ، ولا تزال في مختلف أنحاء البلاد جمعيات يرجع تاريخ بعضها إلى ذلك الحين أما البعض الآخر فهو حديث النشأة يقوم على مبادئ تشبه مبادئ الجمعيات الأولى ولكنها أكثر اتساعاً ، أشهرها جمعية « أهل الحديث » الذين يعتنقون بالحديث والقرآن ولكنهم يرفضون كل الآراء التالية التي أخذت شكل السنة والتي لا يستطيع السني العادي أن يحميد عنها ويظهر أن لأهل الحديث جمعية منظمة راقية وأنها تقوم بدعاية نشيطة عن طريق مدارسها ووعاظها وصحفها ، ومن أهم أغراضها تطهير الإسلام في الهند من أعمال الشرك والوثنية التي تكاد تشيع بين جميع مسلمي الهند ، ويميل أهل الحديث إلى الحزبية والتصعب مثاهم كمثل المتشددين في معظم الأديان الأخرى مما حدا بكريم أن يعتقد أن حركتهم عقيمة لمستقبل لها . وهناك طائفة أخرى تطلق على نفسها إسم « أهل القرآن » وهو يكفي في الكشف عن نزوعهم إلى التمسك بأصول الدين وليس لهذه الطائفة فيما يظهر وجود فعلي مستقل ولكن حركتهم أثرت تأثيرها لايعازهم بضرب من التفكير

أخص بهم شائع بين المحدثين الذين يندر أن ينتسبوا لأى طائفة معينة ، بل هم ينزعون إلى تأكيد قيمة القرآن ذاته ويميلون بأغفالهم أو حذفهم بعض السنة بل بعض القرآن إلى اتوسط بين الأعمال الصورية الجامدة عند غير المتعلمين وبين نزعة الزعماء المثقفين اليوم إلى التفكير القائم على البحث والاستنباط وسعة الرأى .

هذا هو فى الحق محور المسألة : هل يمكن الاحتفاظ بالقديم وإشرا به الجديد ؟ رأينا آراء سرسيد وأتى بعده رأى الشريف سيد أمير على الذى أبان عنه فى كتابه المشهور Spirit of Islam (روح الإسلام) الذى ظهر فى ١٨٩١ وكان موضع نقد كبير ، هو أولا دفاع عن الإسلام ودحض لآراء خاطئة يزعمها غير المسلمين عن ذلك الدين ويحاول الكاتب أن يجعل فى كتابه للدين أساسا عقليا ، وسأذكر رأى المؤلف من غير تعليق : يذهب أمير على إلى أن الإصلاح يجب أن يسبقه التعليم وتحرير العقل من القيود ويجب أن نطرح التمسك بالظواهر تمسكا صوريا لأنه أصبح عديم الأثر ويجب أن تكون أحكامنا صادرة عن استعمال العقل وعما نستشعر أنه حق وملائم فى ظرف ما ، للإسلام قدرة على صبغ مادته بصبغته وسيبقى جوهره وإن تغير مظهره ولو أن الأئمة كانوا أحرار آفى إستعمال رأيهم ونبذوا بشجاعة خمسمائة ألف من الأحاديث واستبقوا منها ثمانية آلاف إذا لجعلنا لأنفسنا مثل هذه الحرية . ولماذا يظن إنسان أن الإسلام صار مسبوكا فى قالب لا يتغير بعد الإجماع على الكتب الستة ؟ (١) لقد انتفع العرب الذى أسسوا الإسلام إلتفاعا كبيرا من مدينة

(١) أشهر الأقوال أنها البخارى ومسلم والنسائى وأترمذى وأبو داود وابن ماجه . على أن الأحاديث الصحيحة ليس فيها ما ينافى العلم الصحيح والعقل الصحيح وقد اتفق العلماء على تأويل ما لم يتفق مع القطعيات ، فكثرة الأحاديث لاتضير الإسلام شيئا ولاهى حائل دون ما يريد سيد أمير على .

الفرس وينذهب أمير على إلى أن الاتصال بمدينة الغرب سيفيد الإسلام في العصر الحديث كما أفادته مدينة الفرير من قبل ، ويشرك أمير على في هذا الرأي كاتب آخر هو مولوى « شراغ على » ، والشيخ خدناجش أخيرا وهو من كلكتا ويواصل اليوم في الواقع آراء سيد أمير على فنذ قليل كتب على نمط النزعة العقلية لا أمير على قائلا : ويجب أن يدافع الإسلام عن نفسه أمام الغرب ويجب أن نستعمل الأساحة التي صاغتها أيدي الغرب أينما ولينا وجوهنا وجدنا التعليم الغربي ، والوسائل الغربية ، وطرق الغرب في البحث ، وعاداته الاجتماعية والمناذاة بالحرية وتقرير المصير كما يفعل الغرب ، ولكن موجة هذه الروح الغربية لم تضعف الإسلام فينا بل هي زادتنا به تمسكا ، قال الزرقاني منذ مائتي سنة بوضع أحكام تقي بالوقائع المتجددة ، وهذا هو روح الإسلام الحقيقي فالوفاء بمقتضيات الزمان والمكان مفتاحه ، ووحدانية الله شعاره والأخوة الإنسانية عقيدته الكبرى ، والرغبة في التغلب مطمحه ، وما عدا ذلك فهو من اختراع الفقهاء وليس من جوهر الإسلام في شيء .

ومن مستنيرى المسلمين في الهند الحديثة كثير من الكتاب يتعاونون على أن يعرضوا الإسلام للناس في صورة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي نقلها لنا كتاب المسلمين ومؤرخوهم الأقدمون ، هذه الصورة الحديثة تظهر الإسلام لغير المسلمين في صورة لم يظهر فيها من قبل ، صورة فيها من المحبة والرحمة والروح الإنسانية الشاملة أكثر مما استطاع أن يظهره فيما سبق ، وإذا سلكتنا من هذا مسلك الناقد وجب أن نعتبر هذا الوضع للقضية دعاية لا بد أن تنعم فيها النظر ، أما الذين لا يريدون الدخول في ميدان التدفيس فتقبلونه بقبول حسن معتبرينه إضافة جديدة لما عندنا من أفكار تدعوا إلى محبة الإنسانية في هذه الحياة التي نعيشها ، على أن الانحياز العادي لا يجب عادة أن يعمق في أديان الأجناس الأخرى لعدم ميله لذلك أو لقلة غروره أو بحكم منصبه

الرسمى إن كان موظفا حكوميا ومن ثم فينبى تعرف مظاهر الحياة الاسلامى ومطالبها معرفة جىبه إلا أن قلىلا من الانجلىز خلا المبشرى والعلماء من يعرف كنه الأفكار الحدىة التى تشغل عقول مسلمى الهند والتى يفصحون عنها بن حىن وآخر فى كتاباتهم ، وىظهر أن من الخىر أن نقبل هذا الدفاع على علاته أما إذ لابد من النقد فلن نذهب إلى أكثر من أن نرجع هذا التغير فى تصویر المسألة إلى التأثير اللطف الذى ننا عن إتصال الاسلام بأدىان تشترك معه فى ذلك (١) .

إن أكثر مفكرى الهند المسلمين تغلغلا فى الحقائق هو الشاعر الفىلسوف سر محمد إقبال من لاهور ، فبعد أن اشتهر شاعرا باللغة الاوردىة كتب قصىدين بالفارسىة هما «أسرار خودى» (أسرار الذاتىة) و «أسرار بىخودى» (أسرار اللاذاتىة) (٢) ونشر أخىرا فى هىئة كتاب ست مقالات عن الاسلام ألقاها فى العام الماضى على طلبة جامعات مختلفة فى الهند ، ولما كان رئيسا للجمعىة العامة لمسلمى الهند فى ذلك العام التى أیضا محاضرة غایة فى الطراقة عن رأیه فىما ینبغى أن یكون علیه مسلمو الهند . وفحص آراء سر إقبال عن تطور الاسلام ومستقبله فى الهند أجدى على الغرض الذى نرمى الیه الآن من محاولتنا سبر غور فلسفته كما أماط عنها اللثام فى المقالات الخمس الاولى من كتابه الجنىد ، وأول ما یبهر الانسان

(١) إن الفضائل التى ىذكرها الكاتب هى من أصول الاسلام ، وقد كان طول تاریخه حاملا للواء الدل والرحمة والاخوة الانسانىة ومهما كتب الكتاب فستقع كل كتاباتهم دون تصویر ما فى الاسلام من هذه الناحىة . (٢) بین فى الاولى أن حىاة الانسان والامة فى تقوىة النفس واستخراج كل ما فىها من قوى ومواهب ، وأن هلاك الانسان فى غفلته عن فطرته وتردیده آراء الناس ومحاكاته أعمالهم ، و بین فى الثانىة كىف يؤلف الانسان نفسه التقوىة فى الجماعة ساعیا إلى المقاصد العامة (عن الدكتور عبد الوهاب عزام — مجلة الرسالة عدد ٥٣) .

من سر إقبال هو حبه للإسلام حبا قويا يفيض بالحسنة وهو يرى في الإسلام
المثل الأعلى الذي لو تحقق تماما لوفى بكل مطالب الإنسان في هذه الحياة
وفي الحياة الأخرى ، وإن سعة إطلاعه وروحه الشعرية جعلتا في ذهنه لبساطة
الإسلام الأولى وقوته وتأثيره صورة جذابة مؤثرة حتى أن أهم ما يشغل
باله يدور حول الرجوع إلى تلك العقيدة البسيطة ليسترد الإسلام ما فقدته في رأى
سر إقبال . يؤكد في أولى مقاولاته ركود الفكر الديني في الإسلام طيلة
خمسة القرون الماضية ، ويزعم أنه يرى الفكر الأوروبي قد استمد وحيه
من الإسلام يوما ما وأن يرى الأمور قد انعكست الآن ، بل يذهب إلى حد
القول بأن أكثر ظواهر التاريخ الإسلامي استلغافا للنظر هي سرعة تحرك
العالم الإسلامي نحو الغرب من الوجهة الروحية ، ويخشى أن يقنع المسلمون
بظواهر الحضارة الأوروبية الخلاب ويخفقوا في فهم روحها الصميمة . إن امتداد
سلطان الإسلام على الطبيعة جعل له عقيدة جديدة وتبع ذلك منطقيا حاجة الجيل
الناسي من المسلمين اليوم لتوجيه جديد في العقيدة ، وفي الوقت نفسه يعلم سر إقبال
ما يهدد الإسلام من خطر امتداد الاتحاد السوفيتي في البلاد الإسلامية
القديمة في آسيا الوسطى وأذلك فالحاجة شديدة إلى النظر في الحالة وإلى القيام
بمهمة جديدة بعد سلك الفكر في قالب جديد .

عزا سر إقبال في محادثة له مع كاتب هذه السطور إخفاق الإسلام اليوم
إلى انتشاره الباهر في القرن الأول من حياته . كانت الفكرة الأساسية هي إقامة
أخوة شاملة بين الناس ومن ثم فهناك أنظمة كصلاة الجماعة التي يؤدونها الناس على
صورة معينة تعيينا دقيقا مولين وجوههم شطر بقعة واحدة يقدسونها جميعا ويحج
المسلمون إليها كل عام ، ومن ثم أيضاً لم يغم كهوت يزعم لنفسه استئثاره بالسلطان
وأزيل كل ما بين الطبقات من حواجز . عاق تلك الفكرة الكبرى انتصار
العرب السياسي الذي لم يكن متوقعا وماتج عنه من الصبغة الامبراطورية التي

اصطنع بها الاسلام وطبعت الشريعة بطابعها وانصقت بها صلابة ما كان يقصدها
مؤسس الشريعة . ثم إن حركة المعتزلة أو أنصار العقل أيام العباسيين دفعت
محافظي ذلك الزمن لأن يتخذوا لهم حصنا وراء قانون ديني واجتماعي غاية في
الصلابة ، أما المفكرون الذين هم أكثر استقلالاً فانهم خرجوا على هذا
التقديس ، للظاهر ، وسلكوا طريق الصوفية الذي ينزع إلى الحقيقة المكنونة ،
« الباطن » ، ووجد عامة المسلمين أن لا بد لهم من اتباع أو ساط المفكرين الذين
حرموا أى انحراف عن الشكليات الجامدة في المذاهب الفقهية المعترف بها ،
وظل الاسلام قروناً كأنه لا يتحرك حتى مهد قيام الوهابيين في القرن الثامن
عشر السيل لمصلحين آخرين أوسع رأياً وأرحب صدرأً للآراء الجديدة ،
ويؤدى بنا هذا إلى جهود العصر الحديث في الإصلاح الذي يقول سر إقبال
في محاضراته السادسة إنه كله من قبيل الاجتهاد . أما نظرية الاجتهاد فقد بحث فيها
جميع من كتبوا عن الاسلام ، ومعنى كلمة الاجتهاد الجهد الذي يبذله أحد
المحققين مستعملاً رأيه إبتغاء الوصول إلى حكم في أمر من أمور الدين بدلا
من أن يقبل أحكام السلف ، والرأى السائد أن هذه الحرية في استعمال الرأى
عطلت في القرن الرابع الهجرى حين أرغم الناس على التقليد أو اتباع آراء
السلف ، ولكن المجددين يحاولون « فتح باب الاجتهاد من جديد » ، ونجد اليوم
سر إقبال يؤكد في محاضراته أن الترك بتقريرهم إلغاء الخلافة إنما استعملوا
حقهم في الاجتهاد استعمالاً صحيحاً ، ولتنظر في العلاج الذي يراه إقبال
للساوى الحاضرة . يرى أن الخطر العظيم الذي يهدد الاسلام هو روح
العصية في الشعوب تلك الروح التي لها دلائل كثيرة في معظم البلاد الاسلامية ،
فالفرس الذين دعيتهم العصية إلى الانحراف من جمهور المسلمين طالما اقتنعوا
بما كان لهم من تاريخ قبل الاسلام ، وقد اشتد شعور جنسى كهذا في مصر
وتركيا حيث أخذ الناس يفخرون بتاريخهم الوثني القديم بخوافيته وفراغته ،

يل وصل الأمر إلى أن زغلول باشا زعيم مصر الديمقراطية سيدفن في مقبرة للعظماء تجمعهم وأربعين من القراعة المخطئين ، وإذا استثنينا حزبا صغيرا ، يتزعمه الدكتور أنصارى ، تضافر مع زعماء الاستقلال الذاتى من الهندوك وجدنا أن مسلمى الهند وحدهم هم الذين يرفضون استسلام أى وحنى وطنى أو ثقافى من التايخ القديم للبلاد التى يرجع أصلهم إليها غالبا ، وكما أنهم كانوا إلى عهد قريب جداً أكثر الجماعات الإسلامية اهتماما بفكرة الجامعة الإسلامية فالظاهر بعد إخفاق تلك الفكرة أنهم الآن أكثر شعوب الإسلام اهتماما بإيجاد شبه نظام دولى إسلامى ، ويرى سر إقبال فى هذا النظام الأخير الطريقة الوحيدة لخلاص المسلمين وهو يتختم كلامه فى هذا الصدد بقوله : « ليس فى الإسلام قوميات ، ولا هو نزعة امبرطورية ، بل هو جمعية أمم ، تعترف بالحدود والصناعة والفروق الجنسية لسهولة الإشارة فحسب لالتصديق الاتفاق الاجتماعى للمسلمين » ، ولنلاحظ الطرافة التى فى هذا الكلام الذى نسمعه من شخص شرقى فى وقت يشعر فيه كثير من الأوروبيين بأنهم لا بد لهم من اللجوء إلى شىء من الإشراف الدولى على التسليح والمالية والتجارة معتقدين أنهم بهذا يقون أوروبا ، والحق أنهم يقون العالم كله ، شر الصدمة الداهية . وسأتكلم بعد قليل عن رأى سر إقبال فى الناحية السياسية . رأينا سر سيد أحمد خان يعد التعليم أكبر عامل على خلاص المسلمين وتقدمهم ، ولكنه أراد تعالينا من طراز جديد يحفظ على المسلم دينه ويزيده به تمسكا ، ولم يكن لسر سيد بد من طرح الاغلال البالية التى اخترعها الفقهاء وأن يأخذ بعقيدة أكثر بساطة ، ووطد فى الوقت نفسه عزمه على الاتقاع بكل ما فى التعليم الجديد من خير ليتصدر الغير فى السعى وراء كل ضروب السعادة المشروعة فى هذه الحياة ، وكل زعماء الجماعة الإسلامية منذ أيام سر سيد يوافقونه فى فكرته الأساسية القائلة بأن التعليم أول ما يلزم لكل إنسان ، ويوافقه أيضا جميع المسابمين الذين عرفتهم بنفسى ، وليس بين هؤلاء

أحدا أكثرهما بما يتعلم وإخلاصا في المطالبة به من الفلاحين العاديين وصغار الملاك، هؤلاء تغلب فيهم الأمية، ولكنهم يشعرون شعورا تاما أن أميتهم أقعدتهم كثيرا وأن أولادهم على الأقل يجب أن يحصلوا بعض العلم ليقروا على الثبات في معترك الحياة، ولتسالم عن حالة التعليم الحاضرة، قدمت للقارى وصفا موجزا للمعاهد العليا وهي تجمع بين التعليم الدينى والعلمانى والثقافى، فلتكلم أولا عن الناحية العلمانية. نجد آخره أوصاف للتعليم فى الهند فى تقرير لجنة « هارتوج » التى كُرنت لفحص مستوى التعليم فى الهند البريطانية وغرضها الأساسى الحصول على المعلومات التى تبرر ما يزعم من توسيع حق الانتخاب فى الهند الحديثة. يدل إحصاء ١٩٢١ على أن المتعلمين من مسلمى الهند جميعا ٣٠٩ فى المائة من الذكور و ٩ فى المائة من الإناث ولكن تقرير اللجنة يبين أن التعليم الإسلامى تقدم تقدما عظيما فى الخمس عشرة سنة الأخيرة، ومن الظواهر العجيبة أن الحاق الأطفال المسلمين بالمدارس الابتدائية يفوق نظيره عند الجماعات الأخرى ونرى هذا بوجه خاص فى الجهات التى يكون المسلمون فيها أقلية، وربما يظهر فى هذا شئ من التعزيز للرأى الذى أشرنا إليه آتقا وهو أن عزلة مسلمى الهند تحفزهم إلى العمل، ولكن امتياز المسلمين لا يتعدى اللحاق بالمدارس الابتدائية فكلما ارتقينا فى مدارج التعليم ازداد نقص الطلبة المسلمين، وتشاهد هذه النزعة بين البنات أكثر مما تشاهد بين البنين، ومن أسباب هذا النقص السريع فقر المسلمين الشامل لأنهم فى الغالب من الزراع وصغار المتاجرين، وهذا الفقر يعرقل كثيرا من الجهود التى تبذلها الحكومة باستمرار بحثا عن دواء لتأخر المسلمين، ومن العقبات الأخرى [شيوع ما يسميه التقرير المدارس الخاصة، فى كثير من الأقاليم عدا البنجاب وتختلف برامج هذه المدارس اختلافا عظيما عن برامج المدارس العادية لأنها تشمل دروس الدين الإسلامى والثقافة الإسلامية، وتعتقد اللجنة أن بقاء هذه المدارس على هذه النسبة الكبيرة ضار بمصالح المسلمين، وجاء فى تقرير اللجنة ما نصه :

قد أصبح الوقت ملائماً وأكثر من الملائم لبذل جهد لا يتقنى ابتغاء التفكير في طرق عملية ينقل بها الطلبة إلى المدارس والكلية العادية وتهدأ لهم هناك الظروف للثقافة الدينية والقيام بالعبادات ، وقد لاقى هذا الاقتراح رفضاً قوياً من أعضاء هندوكي في الراجستولا أدري ماذا تم فيه ، وأقول مرة أخرى إن زعماء اليوم في الجماعة الإسلامية يرون كما رأى سرسيد أن خلاص المسلمين رهين تعليمهم ، ونستطيع أن نؤكد أنهم سيتخفون من التعليم أكبر أداة تبلغهم غاياتهم ، مؤكداً أيضاً أن الجماعة الإسلامية لن تنبأ المكان اللائق بها إلا إذا قلت فوارق مستوى التعليم بين الجنسين وإلا إذا أخذ النساء المسلمات بنصيب أوفى من صوغ أفكار رجالهن ومن توجيه جهودهم . وكان نجاح سرسيد وأتباعه في تحقيق غاياتهم في هذه الناحية أقل مما كان متوقفاً وبقي الحظ الأكبر ليقوم به الخلف ، ثم إن رغبة الآباء متزايدة في تعليم بناتهم ، ولكن تعوق ذلك العادات الاجتماعية ، وحيثما أمكن التغلب على هذه العادات كان التقدم أسرع ، ورأيت بنفسى ما يؤيد هذه الدعوى بعض التأييد ، ذلك أن في جزائر أندمان ، جماعة صغيرة من قبيلة المابلا ، تقوم بكل شئونها بنفسها ، وبعد أن تخلصت تلك الجماعة من أغلال بيتها الوطنية في مابار تلوح عليهم دلائل الرقى التي لا تخلو من طرفة ، أكبرها رغبتهم في تعليم بناتهم ، ونرى البنين والبنات الذين بلغوا سن التعليم يتعلمون معافى مدارس القرى ويقومون معا بالرياضة البدنية أمام آبائهم الذين لا يكتفون ما يشعرون به من غبطة .

ويغلب وجود المدارس الخاصة المذكورة في البلاد التي فيها طائفة من المسلمين متشابهة تشابهاً يساعد على ذلك أو في الجهات التي تشتد فيها الحاسة الدينية ، والبنغال الشرقية خاصة بها وكذلك الحدود الشمالية الغربية وبلاد المابلا في ملبار ، ويؤخذ معلوم هذه المدارس من مدارس المعلمين الدينية في تلك النواحي ، أما في الهندستان فانهم يخرجون في دار العلوم ، المشهورة التي مقرها مدينة

« ديوبند » في « ساهرانپور » ، وهذه هي مركز علماء أهل السنة في الهند ،
والعلماء جمعية في دلهي تسمى « جمعية العلماء » ، وهي المرجع في المسائل الخطيرة
المتصلة بأمور الدين أو بالخطة التي يسلكها المسلمون في مسائل خاصة كثيراً
ما تكون سياسية ، هذه الجمعية صار لها سلطان عظيم ولا سيما بين المسلمين
الذي لهم بالانجليزية بعض الألسام ، وما دامت تصدر في آرائها عن العقل
والتسامح والفترة العامة فلا بد أن يظل لها خطر ما عند المسلمين ، وليس هناك حتى
الآن ما يدل على أن العلماء يتزحزون عما في آرائهم من تشدد وصلابة ، وكان
الأثر الوحيد الذي أظهرته روح التجديد للعيان هو تأسيس « جمعية العلماء » التي
نظمت صفوف العلماء ولمت شعنتهم بعد أن كانوا في شتات ، وسنرى عما إذا
كانت جمعيتهم ستحافظ على هذه النزعة السنية المحافظة أو أنها ستشارك يوماً
ما في حركة عامة إلى الأمام .

إن مسألة المرأة ، منزلها ، وحقوقها ، وتعليمها ، وتحريرها تشغل فراغاً كبيراً
من تفكير زعماء مسلمي الهند ومن كتاباتهم ، والكتاب في الهند مثاهم كمثل
أقرانهم في البلاد الأخرى مشغولون بالدفاع عن تعاليم الإسلام ، بل هم
يتعدون الدفاع إلى مهاجمة تقاليد أوروبا ويرفعون أصواتهم مؤكدين أن مكانة
المرأة في الإسلام أسمى وأوفر حرية وأكثر أماناً منها في المسيحية ، ولن
تفحص حججهم أو النصوص التي تقوم عليها ويكتفي وفاء بغرضنا أن نقول
إن هناك تحسناً في مركز المرأة إزاء الرجل ، ولن تسير حركة رقي المرأة هنا
بالسرعة التي تسير بها في بلاد يحكمها المسلمون مثل تركيا حيث نجد الحكومة
تقهر الناس على ذلك ، ثم إن الإصلاح يكون أبعد أثراً إذا كان ثمرة لشعور
متأصل في نفوس السواد الأعظم من المجتمع ، وحدث الآن أن بعض نساء الهند
من ذوات المكانة السامية ضربن أمثلة جديدة بالذكور فزعن الحجاب وأفلحن في
النهوض بأعباء الحياة العامة الاجتماعية والصناعية والسياسية ، وسرعان ما صار

لهن تأثير كبير ، غير أن هذه الامة قليلة ، فروح المحافظة المتغلغلة في سواد الامة ستؤخر شيوع هذه الحركة ، ونساء الهند بطبيعتهن لا يعرفن ثورة ولا احتجاجاً فلا بد أن ترقب تغير الخطة من جانب رجالهن ، وفي أثناء ذلك تعرض في دور السينما كل ليلة صور حقايق مبتذلة مبهرجة تتجلى فيها علاقات الجنسية الأوروبية والأمريكية فيجد فيها المسلم المحافظ كل ما يحتاج إليه من أدلة تؤيد وجهة نظره في عدم الترحيح عن العادات القديمة قيد شعرة .

ولم يجعل مسلمو الهند دفاعهم هذا الذي يتعدى إلى الهجوم قاصراً على تبرير معاملة المرأة في الاسلام ، فان منظمي فرقة الاتحادية قاموا منذ أكثر من ربع قرن بترقية هذه الوسيلة ترقية مستمرة بلغت أقصى الروعة ، فأخذوا وسائل الغرب وحاكوه في نشر دعايتهم ، ولقتت حركتهم الدينية نظراً لكثيرين وكسبت أنصاراً في كل أنحاء العالم بفضل قوتها الذاتية وتسمى فرقتهم تبعا لاسم مؤسسها ، مرزا غلام أحمد ، من مدينة قاديان في البنجاب ، أعلن المرزا رسالته إلى العالم في ١٨٨٩ وهو في الخمسين من العمر وبعد ذلك بعامين ظهر بدعوى أنه نبي ومجدد ، مهدي ومسيح ، أعلن أن المسيح (عليه السلام) لم يموت على الصليب ، ولم يرفع حيا إلى السماء كما يقول القرآن ولكنه شفى بعد الصلب وفر ومات أخيراً في دكشمير ، حيث اكتشف المرزا قبره ، واعتقد المرزا أن موت المسيح (عليه السلام) موتاً طبيعياً ، كما يزعم ، يؤيده في دعواه أنه هو المسيح ، وادعى أيضاً أنه المهدي المنتظر الذي يترقبه المسلمون جميعاً ولكي يعزز هذه المزاعم العريضة أذاع ثلاثة كتب رمت به وبأتباعه في جدل مع أهل السنة ومع جمعية الآرياساج ، الهندوك المصلحين ومع المسيحيين ، جدل لا يزال قائماً إلى يومنا هذا ، وأدى بالمسلمين السنيين إلى إخراجهم من الملة وإلى قتل أتباعه لما بلغ بهم الطيش أن يتجرموا على الاقتراب من ملك الافغان السني المسلم . ولما أن المرزا يزعم أنه المهدي فقد جاء يدعو للجهاد

تراق فيه الدماء كما يعتقد أهل السنة بل لجهاد سلمى ، ومع عدم تخفيفه من معاداة المسيحين رأى أن لابد من البقاء على الولاء للحكومة القائمة في الهند (١) وجعل يؤكدها به هذا ما أزعج بعض أهل السنة الذين يخالفونه في ذلك معتبرين الولاء للحكومة البريطانية مدعاة للرية ، وسرعان ما أعلن المرزا دلالة سماج ، أنه « كرشنا » (٢) وأن المسيح والمهدي والكرشنا شيء واحد ، أما عن أهل السنة فالظاهر أن المرزا أثار تشدهم وتقديسهم للأولياء ، وكان المرزا في الوقت عينه شديد الخصام للعقائين الذين بدوا يعدلون آراءهم عن مبلغ سمو الوحي المحمدي على المألوف والذين اشتد ميلهم إلى اتوفيق بين القوانين والمعادات الاجتماعية الإسلامية وبين الأفكار الحديثة .

ولما كانت مزاعم الرزا ترتكن إلى القرآن إلى حد ما لم يكن له بد من الاعتقاد بعصمته وأعجازه وأصله السماوى لتصادف مزاعمه قبولا ، ومن ثم أبدى أتباعه عناية خاصة بترجمة القرآن إلى الانجليزية ومضوا يحطون من قدر التراجم السابقة بل اتهموا مترجمين أمثال سبيل Sa'e بتعمد الخيانة في الترجمة . أما المسائل الاجتماعية فكان المرزا فيها محافظا متمسكا بالأصول لا يقبل تعديلا في أى شيء من التقاليد الخاصة بالمرأة كالحيجاب وتعدد الزوجات ، وإذا درس غير الأخمدى ما نشره المرزا من دعاوى وحجج لا بد أن يروعه ما في طبيعتها من سذاجة وقلة نضج حتى أمكن لكثير من خصومه أن يرموه بتهم شنيعة ، ولكن نستطيع القول أن نجاح المرزا لا يبلغ هذا المبلغ العظيم دون أن

(١) كان غلام أحمد موظفا عند الانجليز ، ويشيد في خطبه وكتبه بذكرهم ، وما يروى عنه أن الوقعة في جانب الله أهون من الوقعة في جانب الانجليز ، ولعل هذا يكفي في بيان صلته بهم ، والحق أن أمثال غلام أحمد من صنائع الاستعمار ما قاموا إلا باغراء دفعهم وما يريدون إلا إرضاء ساداتهم بتفريق كلمة المسلمين وقتل روح الشجاعة فيهم ولذلك نجد مبادئهم مشبعة بما يعمل على هذا (٢) أى : مجدد (المترجم) .

تكون له قهره على اجتذاب الناس ودون أن يكون مخلصاً لما زعم من وحى وفي ١٩٠٨ ملك غلام أحمد وصار « حكيم نور الدين » أول تلاميذه ، الخليفة الأول للمسيح ، وسرعان ما بدأ انقسام قبل موت نور الدين وذلك فيما يظهر لتدخل بعض أتباع المرزا في لاهور برئاسة « خواجا كمال الدين » وفي مسأله سياسية ، ثم اقتضح الانقسام عندما انتخب « مرزا بشير الدين خليفة ثانياً في ١٩١٤ ، ومن ذلك العهد نشأت فرقان مركز إحداهما مدينة « قاديان » والاخرى « لاهور » بينهما فروق عظيمة في العقيدة ، فتعتقد فرقة « لاهور » أن غلام أحمد كان لا يزيد كثيراً عن مجدد للأسلام وتفر بما تقوله الفرقة الاخرى ، فرقة « قاديان » من تكفير أهل السنة وتوثر تقريب الشقة بينهما (فرقة لاهور) وبينهم . وإن نشاط حركة الاحمديّة وصبغتها التبشيرية الحماسية أكثر طرارة عند العالم الخارجي من عقائد الفرقين وعلاقاتهما بأهل السنة ، تظهر هذه الحركة في مظهر من العداوة والتعصب لم تعدهما في مسلمي الهند ، فالاستمراء والازدراء سلاحان من الأسلحة التي تستخدم في الدعاية ، وهي تستشرد ماشاءت بما في كتب مشاهير النقاد الاوروبيين الذين نقدوا المسيحية متى كان ذلك مؤيداً لغرضها ، وهي لا تتورع عن الطعن في صحة الانجيل وعن مهاجمة شخص المسيح (عليه السلام) وتحثيره ولا تفتأ تؤكد إنعكاس المسيحية الحديثة وإخفاها ، ولعل هذا أخذ بثأر الهجمات التي وجهت من قبل محمد (عليه السلام) ودينه في كتابات كثير من علماء المسيحيين كما نرى ذلك منظماً في المراجع مثل قاموس الاسلام لـ « هيوز » (Hughes: Dictionary of Islam) ونرى أتباع المرزا يعملون بمبدأ الشيخ « خدا بخش » القائل « باستعمال الأسلحة التي صاغتها أيدي الغرب » وكان المنتظر أن يستخلصوا ما عندهم من حذق ونشاط لاشك فيهما استخداماً أكثر عبقرية من مجرد العمل بمقتضى مبدأ : الجزء من جنس العمل ، ومن العلامات التي تخيب الآمال في مسالك مسلمي الهند إزاء المؤثرات الاوروبية

جنوحهم للتقليد يدل أن يتكروا شيئاً جديداً من عندهم ، ومن أسف أن نعرف أن من المخترعات القليلة التي جادت بها قرائح الهندو حركة عدم التعاون ، هذه الحركة العقيمة المولدة للأحقاد ، ولكن إذا تدبرنا الواقع وجب أن نرى المسلمين على الأقل من أن يكون لهم نصيب في خاق هذا الفساد .

كتب الأحمدية كتباً كثيرة لم تنقطع ، ومنذ ١٨٩٢ ظهرت مجلات وطنية كثيرة تنشر في « قاديان » ، وظهرت أيضاً صحيفة بالانجليزية هي : The Review of Religions (مجلة الأديان) وتقوم هذه الصحف بدعاية قوية ضد المسيحية وضد حركة الإصلاح الهندوكية ، « الأرياسماج » ، وضد ديانة السيخ ، هناك مدارس منظمة تنظيماً حسناً ، وهناك إدارتان إحداهما لتنظيم جماعة الأحمدية والأخرى لتوجيه حركة التبشير ، وتقوم فرقة لاهور بحركة من هذا القبيل ولكن بنسبة أقل ، لكل من الفرقتين « بنسرون » خارج الهند وأتباع عن ارتدوا عن المسيحية مشتمون في بلاد كثيرة ، وأحسب أن مجموع مال القاديانيين نصف مليون من الأتباع وأن لفرقة لاهور أقل من ذلك كثيراً ، ومن العسير أن تسكن بمستقبل حركة الأحمدية ولكن يصعب أن نصدق أن عقيدة جامدة كهذه ستقدر على البقاء طويلاً قادرة على اجتذاب أنصار في عصرنا هذا أو على حفظ العقيدة الحالية لا نصارها من التغيير ، وإذا عرفنا أن زعماء أهل السنة يشعرون بحاجة ملحة لتجديد عقائدهم ويتأهبون للتنازل عن كثير مما يعدونه على الدوام كلمة الله الموحاة التي لا تتغير والتي وراها إيمان ثلاثة عشر قرناً تؤيدها بذكرياتها المقدسة إذا عرفنا هذا وجب أن نقسم : هل في وسع هذا الوحي المعقد الذي يرتكن إليه القاديانيون والذي جاء في آخر الزمن والذي يتطلب إيماناً قوياً جداً أن يقوى على الثبات في هذه الأيام التي لم يبق فيها من الإيمان إلا النصف والتي نجد فيها المتعلمين إمامين يأخذون بالشك وإمامين يحكمون العقل في المسائل الدينية ؟ أحست فرقة لاهور أنها غير قادرة على قبول

مزاعم غلام أحد كاملة ، ويظهر من المحتمل أن الفرع الأكبر لفرقة قاديان سيري من الضروري يوما قريبا أن ينقح عقائده .

لا نستطيع الافاضة هنا في بحث مسألة الخلافة جملة ولا مسألة أقل منها شأننا ظهرت بعد أن ألغت جمعية أنقرة منصب الخلافة وهي مسألة مؤتمر إسلامي عام ، ولكن يهمننا أن نتكلم عما كان عليه موقف الهنود المسلمين وعما هو عليه الآن إزاء هاتين المسألتين ، كانت مسألة الخلافة قليلة الخطر طالما كان امبراطور المثل يحكم في دلهي أو حتى يقيم في القصر الامبراطوري كأحد أرباب المعاشات ، وكان المسلمون يستطيعون الاشارة بالبنان إلى حاكمهم للمسلم ويرغمون أنهم يرون فيه ما يفي بحاجاتهم ، ولكن سحق أسرة المثل نهائيا في ١٨٥٧ جعل أهل السنة ، وهم الغالية ، يعيندون النظر في موقفهم واعتبروا سلطان تركيا خليفة لهم منذ ذلك الحين ، وكانت تغلب عليهم في ولائهم له نزعة دينية قبل كل شيء ، ولكنهم بعد فقد حاكمهم الزموني رجعوا إلى مبدأ اعتبار أن الإسلام دولة دينية كل مسلم مواطن فيها بمعنى الكلمة وكل مواطنها إخوة ، ولا نطواء جوانح أهل السنة الهنود على هذا الشعور أولوا السلطان احتراماً قوياً من قلوبهم من غير أن يضحوا بولائهم لحكامهم الحقيقيين في الهند - وهم البريطانيون ، وتأثير هذه العاطفة الطبيعية الخالصة اهتموا اهتماماً شديداً متعصباً بكل الحروب التي قامت بين تركيا وبين دول مسيحية عديدة طيلة السنين ستة الماضية ، وأخذ اهتمامهم في بعض الأحيان شكلا عمليا بجمع الأموال أو إعداد مستشفيات د الهلال الأحمر ، وساعد أهل البر الهنود مساعدة كبرى بأموال اكتبوا بها على إنشاء خط الحديد بين سوريا والحجاز ، ثم جاءت الحرب الكبرى ووقفت تركيا ضد بريطانيا العظمى فأعلن السلطان الجهاد يحكم أنه خليفة المسلمين ، ولكن دعوته لم تحدث أثراً فيما عدا بلاد الامبراطورية التركية أو هي أحدثت أثراً قليلا ، وظل مسلمو الهند - والالم في أفنديهم -

موالين للانجليز وأبليت الجيوش الإسلامية بلاء حسنا ضد تركيا ما عدا بعض
السنين من إقليم الحدود وماوراءه وأورطة شيعية كان أفرادها متأثرين بالدين
وحده من خير صلة البتة بالخلافة السنية ، وأرسلت بعض الأقاليم الإسلامية
مثل « راوالبندى ، و « أتاك ، و « شاهبور ، و « جهيلم ، إلى ميدان القتال كل
من فيها من البالغين سن القتال والقادرين عليه وأرسلت كثيرا ممن لم يبلغوا ذلك
السن وكانت تزهى بهذا العمل ، وبقي وراءهم كثير من المسلمين يهتمون
شديد الاهتمام بمصير تركيا إن هزمت هزيمة منكرة ، وبقي معهم آخرون
أكثر ذكاء وأقل شرفا في المقصد وجعلوا الفرصة سانحة لاثارة هياج واسع
النطاق وجمع الأموال بنسبة كبيرة ، واستمرت هذه الحركة ونشأت عنها جمعيتان :
جمعية خدام الكعبة وجمعية الخلافة المركزية ، وكان أكبر غرض للجمعية
الأولى القيام بدعاية للدفاع عن استقلال و قداسة سائر الجزيرة العربية ولاسيما
الحجاز واتخذت الثانية من الدعاية أكبر وسيلة للدفاع عن حقوق سلطان تركيا
وعن بلاده وجهدت في تخفيف العقوبات التي ستفرضها على المغلوب معاهدات
السلام ، بلغ الهياج ذروته في ١٩٢٠ حينما اشتد الشعور ضد الحكومة في شمال
الهند وأخذ المهيجون ، رغم ما عندهم من علم يمكنهم من معرفة النتائج التي يحتمل
أن تحدثها دعوتهم ، يدعون إلى المبدأ القائل بأن الهند أصبحت « دار الحرب ،
وأنبأوا من أصغى إليهم أنهم ماداموا لا يستطيعون مجاهدة الحكومة الكافرة فلم
يبق أمامهم إلا العمل بالمبدأ الآخر وهو مبدأ الهجرة أو الفرار من موطن
الكفر ، ويستحيل أن نجد ما يبرر هذا الطيش الذي لا أثر للتكفير أو
الاحساس فيه عند المهيجين الذين قدموا هذه النصيحة ، ولا بد أنهم عرفوا
أن بلاد الأفغان ، التي كانت دار « الإسلام ، لأن حاكمها مسلم واثني نصحوا
الناس أن يأووا إليها لهذا السبب ، لم تستطع الوفاء بحاجة أهلها ، ولكن
الآلاف من الأغرار فعلوا كما أمروا فباعوا أرضهم وبيوتهم وكل ما يملكون

بأنحس ثمن قبضوه بقداً وساروا في حمارة القبط إلى بلاد الأفغان فضاقت بهم ملكها أمان الله ذرعا وضافت بهم حكومته التي لم تستطع أن تجود عليهم بكثير من الأرض والعمل ولم تستطع أن تجود بشيء قط من أسباب الحياة وبعد أن ذاق المهاجرون آلاما عظيمة وتجرعوا كؤوس الفاقة وتكبذوا خسائر الموت رجعوا إلى الهند واحدا بعد واحد وقد عاد إليهم رشدهم ، فساعدتهم الحكومة التي بغضها لهم المهيجون على استرداد ممتلكاتهم التي رموا بها في غير تفكير وتفضل الذين اشتروها منهم فردوها لهم بالثمن الذي بيعت به في كل حالة قريبا ، وبقي في بلاد الأفغان فئة صغيرة من المصريين على اللجاج في الخصومة وقليل ما يعرف من أخبارهم . وثانية الحماقات التي ارتكبتها أنصار الخلافة إثارتهن قبائل المابلا ، المتعصين في « ملبار » قماموا بثورة عنيفة في سنة ١٩٢١ ولا بد أن المهيجين هنا أيضا كانوا يعرفون شر تحريضهم ويعرفون أن الآمال التي لوحوا بها لهؤلاء الأغراء كانت سرايا ، وقبائل المابلا ، يزبدون على مليون نسمة وهم في الغالب سلاسل من أعتق الإسلام من الهندوك ، أما سكان الشواطئ منهم فيجري في عروقهم دم عربي ، وهم من أتباع الشافعي المتحمسين وأغلبهم زراع بارادتهن في أراضي الهندوك ، وإن قلة ضمان مركزهم وما يتبع ذلك من ضعف اقتصادي زاد من تعصبهم وجعلهم منذ سنين طويلة على استعداد لضروب الهياج العنيف المفاجيء ، هذه هي الحالة التي استغلها المهيجون ، وثب المابلا ، فجأة وجعلوا منهم ملوكا وصوبوا هجماتهم عدة أيام إلى الموظفين وأصحاب الأملاك الانجليز ، ثم تحولوا إلى ظالمهم الهندوك فذبحوا كثيرا منهم وأرغموا كثيرا منهم على الدخول في الإسلام ، وكان النهب والتدمير ختام هذه الرواية وما فيها من ضروب التطرف ، وظل هؤلاء المابلا عاما كاملا يقاومون الجيوش العظيمة التي كانت ترسل لاختصاصهم وكان مصيرهم أسوأ كثيرا من مصير المهاجرين ، إذ قتل منهم ألوف كثيرة وحكم

بالنفي الطويل على ما بين الخنثى والعشرة آلاف ، أرسل منهم ١٤٠٠ إلى جزر
« أندمان » ورضى نصف هذا العدد بالذهاب إليها عن طيب خاطر فيما بعد ،
ولا بد أن نذكر أن مئات كثيرة من هؤلاء السجناء المنفيين صحبتهم نساؤهم
وعائلاتهم في « ميناء بلير » التي استوطنها الكثيرون ترفرف عليهم السعادة
ويعتصمون بالحرية في الأرض التي يمتلكونها تحت إشراف الحكومة مباشرة
وهم آمنون غاية الأمن ، ويظهر أن هذه المستعمرة الصغيرة المتجانسة
التي تعيش في وسط البحر قد طرحت تعصبها القديم وهي تعيش في سلام مع
كل من حولها . وقد زار تلك الجزائر بعد أربع سنين أحد الذين أهاجوا
المابلا على الثورة فاحتج المابلا احتجاجاً شديداً عند رؤيته واستذكروا السماح
له بدخول بلادهم وإزعاجهم مرة أخرى . وكان المظهر الثاني لحركة الخلافة
ذلك الاتفاق المتكلف بين أنصار الخلافة المسلمين وبين حزب الاستقلال
الهندوكي ، دوت الأسواق شهوراً بأصوات الهتاف لحياة الوحدة الإسلامية .
الهندوكية ولكن الوحدة كانت ناقصة بقدر ما كانت متكلفة لأن العامل
الوحيد فيها كان هو مجرد إجماع الطرفين على خصومة الحكومة القائمة ، واتفق
أجاءها فجأة بانتخاب الجمعية التشريعية الثانية طبق إصلاحات موناجو وبتنافس
الطائفتين وحقد كل منهما على الأخرى منذ ذلك العهد . ثم إن حكومة
أقنرة الوطنية ألغت منصب الخلافة نهائياً في سنة ١٩٢٤ بعد أن سلبت
الخليفة سلطته الزمنية قبل ذلك بعامين ، وربما كان هذا كافياً أن
أن يضرب جمعية الخلافة الضربة القاضية في أي بلاد عدا بلاد الهند ، بلاد
الوهم المنطوي على غرور النفس ، إلا أن ذلك لم يكن في الهند وإستمرت
الجمعية تؤدي عملها ولكنها أعلنت في ١٩٢٥ أنها حولت عنايتها لتحسين
الحالة الاجتماعية بين مسلمي الهند ، وتقتصر سياستها الخارجية الآن على
الاهتمام بالمؤتمرات الإسلامية التي تعقد بين حين وآخر وتنفض من غير

أن تحدث آثاراً ملموسة .

لقد أطنبت بعض الاطّئاب في وصف حركة المتطرفين في مسألة الخلافة فما هي أنواع الشعور التي تحتلج في نفس الرجل العادي من مسلمي الهند المعتدلين لاشك أن مباغته الاثراك له - هؤلاء الاثراك الذين ظل عشرات السنين يعتقد أنهم حماة الاسلام - بقرار إلغاء الخلافة خدشت ما كان يعتز به من روح المحافظة ، لكنه سمع أن الخلافة ألغيت من قبل وهو يأمل صابراً أنها ستبعت من جديد ، ويرى الكتاب أن إلغاء الخلافة كان قضاء منطقياً على شيء مضى أوانه ويقول الشيخ « خدابخش » : « إن إلغاء الخلافة أجل حادث في العصور الحديثة ، وإن آثاره الحسنة بعيدة المدى ، هو آخر ثمرة لأفكار إسلامية محضة ظلت تكافح طويلاً في سبيل السيادة ، وهو خاتمة وهم خادع ، وهو مبدأ الأفكار الحديثة التي تقابل أفكار العصور الوسطى ، هو يفتح الطريق لنمو القوميات ويطلق الأفكار الحرة من أغلالها ، إنه سيخلق للاسلام معنى للوحدة جديداً أساسه الاخلاص والتقاليد الثقافية والمصالح المادية ، ، ويرى سر إقبال أن إلغاء الخلافة استعمال صحيح لحق الاجتهاد من جانب حكومة تركيا وإن كنا لا نخاله يوافق على أن ذلك سيقوى تلك « القومية » التي هي غفريته الخفيف .

وقد نالت المسألة في مجلتها إهتماماً جديداً هادئاً بما حدث أخيراً من زواج ولي عهد حيدرآباد من إحدى كريمات الخليفة السابق عبدالمجيد ، وربما يدور بخلد البعض أن تنشأ مسائل كثيرة معقدة عن هذا الزواج ولكن الرأي السائد بين العارفين من الهند يرفضها جميعاً ، والآن تركز العناية على المؤتمرات الإسلامية التي عقدت أشهر مؤتمرات عنها في القاهرة ومكة في ١٩٢٦ وحضر ممثلو الهند كلاهذين المؤتمرين ، ولكن بلاداً كثيرة لم ترسل ممثلين وكان

يتم إجراءات المؤتمرين قليل من روح الجند ، وسيعقد في القدس في أوائل ديسمبر من هذا العام (١٩٣٢) مؤتمر آخر قليل الحول كسابقه ، والحق أن المشاكل الداخلية قد أصبحت ملحة على مسلمي كل البلاد الإسلامية حتى أنهم لا يستطيعون توجيه عناية كبيرة للشئون الخارجية عند الحج ، ولا تزال الهند تغزو الحجاز بعدد وافر جداً من الحجاج كل عام وتحتاط حكومة الهند احتياطاً محكماً لا تجعل راحتهم ، ولا يزال الحج لدى مسلمي الهند قاطبة ولا سيما المنعزلين منهم عاملاً له أكبر الفضل في توثيق صلته بموطن دينهم وباخوانهم من البلاد الأخرى .

إن حركة الهجرة وثورة المابلا مثلاً يدلان على استعداد مسلمي الهند لتسليم قيادتهم للمهيّجين من غير وقوف ليتدبروا فيما إذا كان هؤلاء جديرين بالثقة ، ولا يكادون يعرفون أن المسألة دينية وأن الدين في خطر حتى يحشدوا أنفسهم ويقوموا جميعاً بعمل قلما يكون في النهاية خيراً لهم ، ومن أمثلة هذا الاستعداد حادث مسجد « كرنبور » أيام نيابة « لوردهاردنج » حين ارتجبت الهند الإسلامية كلها لأن المجلس البلدي المحلي أراد إصلاح عوج جاج شارع فاقترح أن يزيل من فناء المسجد ركناً صغيراً ليس له حظ عظيم من القداسة لأنه كان خارج خط الأخذية ، وحدث أثناء الهياح مصادمات بين الشعب وبين الحكومة انتهت بذهاب الأرواح حتى تطلب الأمر حضور نائب الملك نفسه ليهدي ما وقع من شغب ، ومن جهة أخرى فإن بلدية لاهور تعمدت تدمير مسجد غير رسمي في ١٩٢٢ يؤيدها الحكام وقتة كافية من الجند ، ودمر المسجد بسرعة قبل أن يبدأ أي هياح ، لم يذكر نبأ هذا الحادث في الصحافة المحلية مع أن الجميع علموا أن عمالاً من المنبوذين استخدموا في تخريب ذات المحراب ، ولما لم يجد المهيّجون ما يثيرون الناس له سلكواهم والصحفيون لأول مرة طريق الحكمة وأغفلوا الأمر إغفالا تاماً ، ومن الأمثلة الأخرى على السهولة التي يستطيع المهيّجون أن يستغفروا بها الجماعة الإسلامية تلك

الحركة الخطرة ، حركة القميص الأحمر ، في إقليم الحدود ، أثارت هذه الحركة في برهة قصيرة من الزمن قبائل الاتريدي القوية فيها وراء الحدود وألبتها على الحكومة في ربيع ١٩٣١ وجعلت المقاطعة في حالة حرب وأسلمت عاصمتها عدة أيام لحكم الطغام وأصبحت خطراً مريعاً يهدد استقرار البلاد كلها ، كانت يواعث المهيجين في هذه الحادثة قليلة الصلة بحقوق المسلمين ومظالمهم لأن الجماعة كانت إذ ذاك على استعداد للتضامن في العمل عند أقل إشارة ، ولا تزال الحركة باقية تحمل في طواياها خسارة الأموال والأشخاص عند أنصارها الجاهلين ، ونشبت أخيراً ثورة مسلمي البنجات في صيف وخريف ١٩٣١ على حاكم كشير الهندوكي وعلى حكومة الشيوخ البرهمانية في تلك الولاية التي يبلغ المسلمون فيها ٧٧ في المائة من السكان ، أطلق المهيجون على أنفسهم لقب «الآحرار» واستطاعوا ، بما يعتمدون عليه من قوة الاختصاص في دعوتهم ، أن يثيروا الجزء الأكبر من الجماعة الإسلامية في البنجاب لتقوم بمظاهرة هائلة ضد الحكومة حتى اضطرت هذه أخيراً إلى الإقدام على تلك الخطوة المريبة بأن طلبت معونة الجيوش البريطانية (دون الهندية) لتعيد النظام في الحكومة ولتقمع اندلاع ثورة داخلية يزيد بها تعقيداً التعاطف الحى بين مسلمي الهند البريطانية . تظهر هذه الأمثلة التي ذكرناها هنا أن المسلمين — مثلهم كمثل السيخ الذين هم طائفة لا تهر نظام الطوائف — لهم قدرة فطرية على العمل الجماعي وأن المهيجين كثيراً ما يستخفونهم ويقردونهم إلى طرق كثيراً ما تؤذى مصالحهم أبلغ الأذى ، لذلك كانوا في حاجة مستمرة إلى القيادة الحكيمة العاقلة ، وإن إيقاظ المصلحين لهم أبرز إلى الميدان كثيراً من القادة ولكن عددهم لا يزال أقل من أن يفي بحاجتهم .

بقى الآن أن نستعرض الناحية السياسية الخالصة لمسلمي الهند المحدثين ، رأينا كيف وقف مسلمو الهند موقف المدافع منذ فقدوا سلطانهم السياسى ،

وأول ماخطر لهم من الأفكار هو أن يرجعوا إلى أنفسهم ويتحصنوا
بتقوية العقيدة البسيطة للإسلام الأول تقوية شديدة ، هذه العقيدة التي
عزوا فساد أمورهم وما أصابهم من ضيم إلى فسادها ، ثم جاء البرنامج الانتشائي .
على يد سر سيد أحمد خان وأنصاره وتزايد الميل إلى المذاهب العقلية ، ولكن
المسلمين كانوا مايزالون يشعرون بحاجتهم لأن يواصلوا تنظيم صفوفهم للدفاع
وإن تسميتهم لبعض جمعياتهم الكبرى وما أعلنوه من أغراضها مثل : جمعية
حماية الإسلام ، تدل دلالة واضحة على نزعتهم التي لم يحبا ظهورانية الحسنة
من جانب الحكومة ، وقد أخفق المؤتمر الهندي الذي أنشئ في ١٨٨٥ إخفاقا
تاماً في أن ينال أى تأييد من جانب المسلمين ولم يجتمع بين أعضائه بعض
المسلمين إلا في قترات قصيرة جداً وفي ظروف خاصة جداً كما حدث في ١٩١٦ ،
ولكى يقاوم المسلمون المؤتمر أسسوا في ١٨٩٢ : جمعية الدفاع ، لتكون وسيلة
لبسط مظالمهم أمام الحكومة بطريقة صريحة في تجنب كل ما يشبه الثورة ، ثم
خطوا خطوة أخرى بتأسيس : الجمعية العامة لمسلمي الهند ، في ١٩٠٦ لأنهم
شعروا أن جمعية الدفاع لا تنفي بالحاجة أمام تزايد قوة المؤتمر الهندي ، وفي
١٩٠٩ رضى الانجليز بمنح أول قسط من الأفكار السياسية وهو المعروف
بإصلاحات : مورلي - ميتو ، التي أعقبتها بعد الحرب إصلاحات : مونتاجو -
تشلمزفورد (١) ، ولما أنشئت أول حكومة فيها عدد أكبر من الوزارات طبقاً
للأفكار الأخيرة وأسندت بعض الوزارات لأول مرة لوزراء مسلمين .
وهندوك يختارون من الأعضاء المنتخبين للمجالس الجديدة عند ذلك بدأت
المنافسات الطائفية الحادة بين المسلمين والهندوك ومضى عليها الآن عشر سنين
ولا نرى لها آخراً يمكن أن تستقر عنده مع قيام الظروف الشاذة التي يفرضها
وجود الجند البريطانيين في الهند . والآن نسيت فكرة الجامعة الإسلامية التي

(١) أسماء لوردات انجليز .

أبدى مسامو الهند لها اهتماماً كبيراً قبل الحرب ، ماتت الحركة حقاً ، وما هو أشق على النفس ألا يكيها أحد ، فالأحداث التي تصيب الحجاز ومصر وفلسطين وسوريا وتركيا لا تحرك قلب المسلم الهندى إلا قليلاً ، وهى تحرك جبهة بدرجة أقل ، ويتمركز كل شعوره السياسى حول العمل ضد الجبهة الهندوكية ، ولا تزال كلمة « الدفاع » هى الصيحة التى ينفر لها مسلمو الهند جميعاً ، الدفاع عن الجماعة أو عن الإسلام الذى يواجهه أو يحقق به خصم وثى يفوقه عدداً وعلماً وثروة ولكنه خصم أقل خطراً لما يعوزه من تضامن وإخاء يؤلفان صفوف المسلمين ، وليست الخصومة بين الهندوكى والمسلم بنت اليوم بل كانت دائماً ولن يتيسر محوها مادام للآديان والقوانين الاجتماعية فى الهند هذا السلطان الذى نراه الآن ، وربما يساعد التعليم أو التشبع بالمثل الديمقراطية العليا على أن تعود الطائفتان سريعاً إلى حالة من التسامح كانت قبل أن تغرس الأصلاحات بذور الشقاق وهذا جل ما يمكن أن يقال ، وتكاد كلمة « خصومة » لا تكفى فى وصف ما بين المسلمين والهندوك ، إنه بغض تشعر به الجماعتان منشؤه الفوارق الأساسية التى لا سبيل إلى التوفيق بينها وتحليل « كريم » ، لهذه الفوارق غاية فى الطرافة ولنتقبس بعضه هنا . يقول كريم : « الهندوكية ديانة صوفية واسعة المدى متشعبة الجوانب تروغ عن يريد فهمها وتخضعه فلا يستطيع تعريفها بطريقة عقلية وتسمح بكل التعاريف الممكنة لما فيها من توحيد مشوش لا سبيل أمام العقل لفهمه ومن اعتقاد وجدائى بالآله ومن الشرك به والرمز له ومن صريح الخرافة ، فيها أنظمة تؤيدها جزاءات دينية وفيها تقديس البقرة ، وفى هذه الأنظمة وهذا التقديس دون ماسواها تظهر صلابة الهندوكية وسرعة غضبها ، أما الإسلام فهو أقل من الهندوكية اتساعاً لأنه إيمان بالله قوى تميزه الحماسة فى رفض كل شريك له فى وحدانيته وعظمته ويميزه شعور صادق بالفرق الجوهرى بين الله الخالق القادر على كل شئ وبين مخلوقاته . ومن وجهة العقيدة

نجد الهندوكية تتسع لكل شيء أما الإسلام فهو على عكسها يرفض كل ما ليس من أصوله ، والهندوكية من الوجهة النظرية لا تلاقى أى مشقة فى صيغ كل فكرة جديدة بصيغتها أو فى تبريرها بما تحوى روحها الشاملة لكل شيء ، أما الإسلام فهو بشريته الدقيقة الواضحة وبإصااته نزعة القديمة آخذ فى الضيق بالمستحدثات ضيقا سريعا مستمرا (١)

« يعتبر الإسلام العالم مخلوقا لله ويعتبر الإنسان عبدا له قدر له أن يحمل صروف الحياة وأمر بأداء واجبه وسيسأل عن أعماله أمام الله ويرجو ثوابه . وتمتاز النزعة الإسلامية بطابع من الرجولة الخالصة اتى لاتين ، أما الهندوكى فهو يرى الدنيا — وكذلك يرى الإنسان — وهما ، أو هى فى نظره بعض الحقيقة بما دعاه إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح والأعمال ، والحياة عنده محوطة بروح من الرقة لين أثوى . »

« ويختلف ماضيها التاريخى اختلافا بينا ومتضاربا تضاربا كبيرا فى هذه الحالة لان المسلمين هم الذين فتحوا البلاد ، وليس للمسلمين تاريخ قومى بالمعنى الحديث لهذه الكلمة وإذا كان لهم فهو ثانوى الأهمية عندهم ، إن تاريخهم الحقيقى شيء أسمى من القومية ، الهندوك يقدسون فى تاريخهم « برتهى » ، و « راج » ، و « بارتاب » ، و « شفاجى » ، و « بيراجى » ، الذين حاربوا المسلمين دفاعا عن شرف بلادهم وعن حريتها بينما يعد مسلمو الهند غزاة الهند الفاتحين أمثال محمد بن القاسم والملوك أمثال اورانجزب (٢) أبطالا لقوميتهم . »

ونشاهد هذا التباين عينه فيما يفضله كلا الجانبين فى الناحية اللغوية فبينما يتكلم الفريقان لغة واحدة هى « الهندستانية » نجد المسلم يخلع عليها ثوبا فارسيا صرفا

(١) الحق ان توافق الإسلام مع المستحدثات التى يقضيها العقل الصحيح والعلم الصحيح والمصلحة الصحيحة أمر لا شك فيه وتاريخ الإسلام القديم والحديث شاهد بذلك . (٢) آخر ملوك المسلمين الأقوياء فى الهند (المترجم) .

والهندوكي يستخدم الكلمات السنسكريتية (١) والحروف ، التجارية ، الخاصة بها ، والحياة الاجتماعية لكل منهما مستقلة استقلالاً تاماً وإذا استثنينا ما يحدث نادراً بين الهندود الذين أشربوا الروح الاوروية فانهما لا يأتيا كلان معا فضلا عن أن يكون بينهما أى ضرب من العلاقات العائلية ، وقد أفلح زعماء الاستقلال الذاتي الهندوك في قرات قصيرة أثناء الحرب وبعدها في الوصول إلى تحالف مشترك فيه زعماء الخلافة أكثر من كل الممثلين المسلمين ولكن الحلف كان متكلفا وزال بسبب ما كان يتطلع اليه الفريقان من مظاهره بجودهم ووزراء الطائفتين في الحكومة التي انشئت وفق مشروع لإنشاء المجالس النيابية الجديد ، أخذت النار التي تحت الرماد في الوميض في ١٩٢٢ واضطربت في ١٩٢٣ ولم تقف الاصدامات تكرر بين الفريقين منذ ذلك الحين ، واشتدت في كل مدينة كبيرة تقريباً في الهند مشاغبات خطيرة في مناسبة أو أكثر ، وبلغ مجموع القتلى والجرحى من الجانبين عشرات الالوف ، وكانت هذه المشاغبات كلها اتفاقية غير منظمة وكان تقادها أو علاجها عسيراً جداً ، وكانت تصحبها حملات شديدة من جانب الصحافة ، وأخيراً فهناك حركات منظمة من الجانبين تقصر جهدها على الإصلاح الداخلي وعلى محاولة الاعتداء بتحويل الآخرين عن دينهم ، بدأ الهندوك في ١٩٢٣ بحركة «الشدى» التبشيرية لكي يستردوا إلى حظيرتهم من اعتنق الاسلام اعتناقاً نصفياً فأجاب المسلمون على ذلك بحركة «التبليغ» التي ترمى إلى تثبيت هذا الفريق في دينهم ، ومن الحركات الأخرى حركة «السنجتن» الهندوكية التي تنافسها حركة «التنظيم» الاسلامية وترمى كل منهما إلى ترقية وتنظيم أتباع كلا الدينين الذين هم أقل ضلالة فيه ، وجمعية الخلافة التي كانت يوما شديدة الانحلاص لزعماء الاستقلال الهندوك هي اليوم من أكبر العاملين على حركة التنظيم ، ولم تثمر حتى الآن تلك الجهود التي بذلت لمحاولة إزالة

(٣) اللغة الاصلية للنص الهندى الإوروبى (المترجم).

الفوارق بين الطائفتين فالمسلمون يطالبون بضمانات أكيدة في الدستور الذي سيوضع قريباً والهندوك يستنكرون ضرورتها ويعلمون بحسن المعاملة ويبعد أن تتاح الفرص للاتفاق ، وليس من السهل على من يعرف ما بين الطائفتين من تنافر مركز في الطبع أن يصدق بإمكان العمل بمقتضى قصاصة من الورق يتفق عايتها الطرفان ، ولا يرى أحد مخرجاً من هذا المأزق إلا عن طريق إنشاء البرلمان الذي وعد به رئيس الوزراء ، وبهنا الآن أن نذكر أن الأزمة قد حشدت في صعيد واحد كل أولى الشأن من المسلمين إلا قليلاً ممن شذ وكلمهم يفهمون خطورة النتيجة تمام الفهم ويوطدون العزم على الدفاع عن مثلهم العليا وعن حقوقهم وحضروا مؤتمرى المائدة المستديرة في لندن وكونوا فيها جبهة متحدة تختلف اختلافًا بينا عما في صفوف خصومهم من انقسام ورغم أن المسألة الطائفية لم تحل بعد فإن الحكومة البريطانية أعلنت مستنيرة بمناقشات المؤتمر عزيمتها على أن تجيب بعض مطالب المسلمين حالاً فستجعل السند ولاية قائمة بذاتها وسترفع مقاطعة الحد الشمالى الغربى إلى درجة ولاية يحكمها محافظ وهذه المنحة إجابة على طلب سر إقبال الذى أعرب عنه في الجمعية العامة لمسلمى الهند ، في ١٩٣٠ التى سبقت الإشارة إليها ، قال سر إقبال في تلك الخطبة إنه يخشى على الإسلام من القومية المخربة التى تقطع صلتها بالدين وأصر على أنه بما أن المجتمع الهندى ليس بين وحداته حدود جغرافية كما في البلاد الأوربية وبما أنه ليس له قانون عملى يتعين بشعور جنسى مشترك فإن النظام الطائفى وحده هو الذى سيكون أساساً لايجاد كل متسق الأجزاء ، وإن هندا إسلامية ، في داخل الهند هى التى تستطيع وحدها أن تصون المبدأ الأساسى للإسلام ذلك المبدأ الذى يجعله دولة شاملة ، وأحسن طريق يبلغه هذه الغاية هو أن تتمركز حياة الإسلام في إقليم معين بل إنه ليعين أجزاء الهند التى يريد فصلها كلا باسمه ، هى : البنجاب وإقليم الحدود الشمالى الغربى والسند

الفصل الخامس

أندونيسيا

بقلم الأستاذ ك . ك . برج

مقدمة

- ١ — نظرة عامة ، ٢ — صنوف المدينة المختلفة في أرخبيل الملايو ، ٣ — الوثنية ،
- ٤ — الهندوكية قبل انتشار الاسلام ، ٥ — الاثر الباقي للهندوكية في جاوة ،
- ٦ — أثرها فيما عدا ذلك .

١ — يبعد طرف سومطره الشمالى الغربى عن حدود نيوجينى الاسترالية بقدر ما تبعد لندن عن الخليج الفارسى أو عن ساحل الذهب الافريقى ، ويمتد الجزء الهولندى من أرخبيل الملايو بين خطى طول ٩٥ ، ١٤١ شرقا ، ويتصل فى الغرب بالطريق التجارى العظيم الذى يصل الهند بالصين واليابان عن طريق سنغافورة ، ويتلاشى شرقا فى لانهائية المحيط . تقع هنا الجزائر التى عرف الاتسمون قبلنا أنها غنية بالذهب والتوابل لحد يكاد العقل لا يصدق ، وظل باب هذه الجزائر مفتوحا أمام التاجر الصينى الذى تفرغ للقيام بانهجارة خلال القرون ، ودخلها التأثير الأوروبى عن طريق مضيق ملقاوسار شمالا إلى جزر الفلبين وجنوبا محترقا بحر جاوه إلى جزائر الملوك ، جزائر التوابل ، وبمرور الزمن صارت نقط الطريق الجنوبى ولاسيما ساحل سومطره الشرقى وساحل جاوة الشمالى أكبر شأنا من جزائر الملوك نفسها ، وعلى حين أن الغابات الاستوائية التى لا يمكن اجتيازها تعوق فى غير هذه البلاد دخول الانسان نجد خصوبة هذه البلاد الفائقة قد جذبت الصينيين من كل طراز والهندوك والتاميل والعرب

والأرمينيين والأوروبيين واليابانيين ليتخذوها وطناً دائماً ، وأدت الظروف هناك من الاستعمار ، إلى علاقة استعمارية ، بالبلاد الأصلية بالمعنى الحديث للكلمة ، كان أرخبيل الملايو بلداً مستعمرة على الطريقة القديمة طيلة الـ ١٥٠٠ سنة التي نستطيع فيها أن نستعرض تاريخها وتقدمت بهذا في الجملة . والمعضلات الاجتماعية هنا حديثة العهد ، أعني أنها نشأت منذ طرأت التغيرات على العلاقة بين البلاد المستعمرة والبلاد الأصلية ، هذه التغيرات التي جعلت لفكرة البلاد المستعمرة معنى مختلفاً كل الاختلاف عن ذي قبل ، والتي يمكن الشك في أن تأثيرها كان حتى الآن نافعا .

تترامي حدود دار الإسلام ، في عرض هذه الجزائر وتمتد وهمية غير واضحة ، وبيننا تمتد حدود العالم الإسلامي شرقاً كل يوم أمام الدعاة صامتين مجهولين متطوعين وغير مبعوثين رسمياً نجد المسلمين في الغرب في معركة حياة أو موت يكافحون خصماً أقوى منهم ، هو النفوذ الأوروبي ، ويدافعونه في كل ميادين الحياة تقريباً ولهذا السبب تتجلى في أندونيسيا ، بخلاف جهات العالم الإسلامي الأخرى ، بعض المظاهر التي تمتاز بها البلاد المتطرفة على حين أنها من جهة أخرى تشارك بلاداً أخرى ولا سيما الهند في خصائص كثيرة . ولكي نستطيع إدراك خطورة الحركات الحديثة المختلفة في أندونيسيا وعلاقتها بالإسلام ، ولكي نستطيع الحكم عليها جهد طاقتنا لا بد أن نبدأ بوصف العوامل التي حددت أو على الأقل أثرت في تطورها إلى اليوم وأن نعرف كنه هذه العوامل وقوتها .

إذا درس الباحث أرخبيل الملايو فسرعان ما يروعه أنه كان دائماً فيج الصلر للمدنيات الأجنبية ، فمضم على نحو ما كل التأثيرات التي وصلت إليه ، ونادراً ما كانت أندونيسيا بالنسبة للشعوب الأخرى تعدو مستعمرة ومخزناً من الوجهة الاقتصادية وأعجوبة لعشاق العلم والفن ، ولا تحس بأن لها تأثيراً

في مصائب الجماعة الإسلامية ومستقبلها أكثر مما يحس بذلك إنسان يدفع نصيبه
بلحية لا يشترك في إدارتها ولا أكثر مما يشعر به دافع الضرائب نحو حكومة
بلاده، هذا إذا بالغنا قليلا. ستبوأجاوة أبرز مكان في الصفحات التالية حتى ليظن
الإنسان أن لفظة «أندونيسيا» خطأ في عنوان هذا الفصل وقع بدل لفظة «جاوة»،
ويمكن تعاليل ذلك بأهمية جاوة العظمى، هذه الأهمية التي تجعلها لا تقاس بغيرها
في أرخبيل الملايو، وحتى في هذه الأيام التي ارتقت فيها بلاد مثل سومطرة
وبورنيو بسرعة لا نظير لها من الوجهة الاقتصادية نرى ٤٢ مليونا من الـ ٦٢
مليونا التي تعمّر جزر الهند الشرقية الهولندية تعيش في جاوة، ورغم أن
جاوة لم تعد مركز الحياة الروحية في أندونيسيا فهي على كل حال تلعب الدور
الأكبر فيها، ولا بد أن أقول إن فراغ هذا الفصل لن يمكننا من العناية بكل
التيارات الحديثة، ولم أحاول أن أجعل للتفاصيل المكان الأول بل حاولت أن
أرسم الخطوط الرئيسية، ولا بد لي أن أكون واضحا أن أتبع مجرى كل من
هذه الخطوط من وجهة نظر معينة، ثم إن القارىء يجب ألا ينسى - حتى ولو
لم نلقت نظره لهذا - أن هذه الخطوط في الحقيقة تلتقى وتفرق باستمرار
وتتقاطع وتتفصل حتى نطن لأول وهلة أن ليس هناك نسق مقرر في هذه
الخطوط الكثيرة المتداخلة، فالخطر الذي يتعرض له من يكتب عن هذه
الأشياء هو أنه مضطر أن يصور شيئا متغيراً على الدوام بشيء ثابت وفي
هذا تشويه للحقيقة الواقع .

٢ - ورغم كل ما يمكن أن يقال عن كفاح أندونيسيا الآن في سبيل الوحدة
فلا نستطيع أن نتعاضد عن أن الوحدة الحقيقية في أرخبيل الملايو الآن لا تزال
هي الوحدة التي تعمل على وجودها الحكومة الهولندية، هذه الدولة ليست إلا
مجرد ستار ظاهري يخفي النزاع ويظهر للعالم وحدة أندونيسيا (١). في أندونيسيا

(١) لعله يريد أن وجود هولندية حائل دون نزاع داخلي منشؤه اختلاف
الاجناس والاديان وغير ذلك بين أهل إندونيسيا (المترجم) .

أجناس متعددة وأمم كثيرة ومئات من اللغات المتباينة وصنوف من الثقافة متباينة تبايناً يستحق التقدير ، كل هذه لا تزال بحيث يسهل تمييزها . واتصل بعض هذه الشعوب الأندونيسية بالبلاد الأجنبية اتصالاً مضى عليه قرون وبعضها لم ينفذ عن نفسه غبار العصور التي « قبل التاريخ » ، إلا منذ ربع قرن ، ومعرفتنا بالأمم الأندونيسية من الوجهة العلمية لا تزال معرفة سطحية فحسب ، يصدق هذا على داخل بورنيو وسليبيس والجزائر الصغرى الكثيرة في شرق الأرخيبيل بل على سومطرة وجاوة وبالي أيضاً ، ونعرف هنا ما يقرب من ثلاثين لغة وهو عدد صغير من مجموع ما هناك ، وعلماء الأجناس أكثر معرفة ببعض هذه الشعوب وقد كونا المؤرخون النقط الأساسية في تاريخ البعض الآخر . وقد تعمق العلماء في دراسة تيارى اشقافة الرئيسيين اللذين كان لهما تأثير شامل قبل وصول الأوروبيين وهما الهندوكية والإسلام ، ولكن البحث في الأشكال التي تشكلت بها بين شعوب اندونيسيا ما يزال في طفولته ، ولم يشتغل في هذا الميدان من ميادين البحث العلمي إلا عدد ضئيل جداً من العلماء وليس عند الأوروبي العادي في اندونيسيا - خلا قليل من أفراد جديرين بالتقدير - إلا فكرة سطحية جداً عن مدينة جيرانه الاندونيسيين ، واللغة الملايوية التي يتعلم الكلام بها في ثلاثة أشهر إن هي إلا وسيلة للتعبير فقيرة يستطيع أن يفهم بها مع الخدم والعمال في صلاته اليومية بهم ولكنه لا يستطيع الإفصاح بها من أفكار عن طراز أرقى .

٣ - جرت العادة على إطلاق اسم « وثنيين » على أهل الجهات التي لم يدخلها الإسلام أو الهندوكية أو المسيحية حتى اليوم ، غير أننا إذ نستعمل هذه الكلمة لا نملك أنفسنا من تذكر كلمات جوتى Goethe (١) : « إذا أعوزت الناس عن الشيء » .

1 Denn eben wo Begriffe fehlen, da stellt ein Wort zur rechten Zeit sich ein (Faust, 1 p. 60)

فكرة واضحة كثرت عنه ألفاظهم الغامضة ، والوثنية في أرخيل الملايو أهم من غيرها بمراحل من وجهة الثقافة ، ولكننا نعرفها أقل مما نعرف غيرها ، ويصعب جداً أن نقول ما هي الوثنية (Paganism) على التحقيق ، ولن نبلغ في معرفتها كثيراً إن وصفناها بأنها تعدد الآلهة (Polytheism) ، فسرعان ما يتضح من إزدياد المعرفة أن فكرة الآلهة لها معنى مختلف كل الاختلاف عما لها عندنا وقد زاد العلم في مصطلحاته التي تشير إلى الوثنية : animism . وما هو أغمض منها Pre—animism ثم أضاف إليها بعد ذلك ما هو أخفى Dynamism (١) ، ويمكن أن تنطبق كلمات « جوتى » على هذه الأسماء أيضاً . لم يتفق الباحثون بتاتا على أصل الوثنية وجوهرها ، ويرى الاثنولوجى المشهور الألب شميدت Schmidt أن لكل وثنية أساسا تقوم عليه من التوحيد ، ولكن كثير من أقرانه الباحثين لا يشركونه في هذا رأى ، وهم يرجعون فكرة الإنسان الغامضة عن قوى الكون إلى خوف الشعوب الفطرية مما يحقق بهم من شتى الأخطار خوفاً ، غريزيا وتعقده هذه الشعوب بوجود اتصال داخلى وثيق فى كل العالم المادى الذى تعمل فيه هذه القوى ، ويحول شعورهم بوحدة الكون دون أن يميزوا بين الأشياء تمييزاً دقيقاً حسب خصائصها حتى أن صور الحياة المختلفة مثلاً ليست فى نظرهم مختلفة فى الجوهر بعضها عن بعض ، ولا هم يميزون الأحياء تمييزاً واضحاً عن الجمادات ، ويقسمون العالم كله ويقسمون كل قواه ومظاهره إلى طوائف حسب مميزات خارجية متبادلة كثيراً ما تفوننا خصائصها ودلالاتها ، والأشياء التى توضع فى مجموعة واحدة تعتبر متصلة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً حتى لقد يكون كل منها عين الآخر وحتى أن الأثر الذى يقع على أحدهما يؤثر فى كل الأشياء المتصلة به ، يرجع السحر فى أصله

(١) أنواع مختلفة من الوثنية بين الأمم المتأخرة لم يتفق العلماء بعد على تحديد معناها (المترجم) .

إلى هذه الفكرة الأخيرة وعن السحر ينمو الدين فيما بعد .
وليست أفكار الوثنيين وعقائدهم وأعمالهم السحرية ثمرة للبحث ولا للتفكير
الذى يبحث عن العلة ، بل هي تنمو بطريقة غريزية أو غير عقلية أكثر مما
تنمو بغير ذلك ، والقليل الذى تنموهم أتناعرفه عنها يرجع خاصة إلى الدراسة
المقارنة لأساطير الأمم الفطرية ، وإلى ملاحظة رسوم عباداتهم ، لأن
الوثني لا يقدر على تدوين ما يحول فى نفسه من إحساسات ولا يقدر على
الإفصاح عنها بلسانه فيكفى الباحث مؤنة هذه المهمة، ولعله قد وضع مما تقدم
أن تحليل خصائص الوثنية والهندوكية والإسلام حينما نموا فى ظل التأثيرات
الوثنية يحتاج إلى معرفة اثولوجية تامة ، ولا يستطيع الباحث أن يكون لنفسه
فكرة عن معنى وثنية أرخبيل الملايو إلا بعد أقصى الجهد والدراسة الشاقة التى
يزيدها صعوبة اختلاف وثنية اندونيسيا عن غيرها اختلافا عظيما ناشئا عن
بيئتها وإن كانت تشبهها فى الأساسيات .

٤ - كانت الهندوكية من أول العوامل الخارجية التى نجد لها تأثيرا فى
العصور التاريخية ، ويحسن أن نسمى الهندوكية ثقافة الهند الوطنية بدل أن
نسميها ديانة الهند لأنها تشمل مذاهب دينية وفلسفية متعددة قد تتضارب أشد
التضارب ولكنها تشترك جميعا فى الاعتراف بالنظرى بكتاب مقدس هو الفيداس ،
وفى الاعتقاد بالحرمة الخالدة فى كل دائن (التناسخ) وفى الاعتراف بعدم اتمالك
نظام الطوائف وهو نظام اجتماعى تولد عن الخصومة بين الجنس الآرى
الأيض والجنس الدرافيدى المستمر (١) ، ويرمى إلى الاحتفاظ بسيادة السلالة
الآرية إلى الأبد ، ورغم وقوع حروب دينية فى الهند كانت حرية العقائد
تسترعى النظر فى العصور القديمة ، واستطاعت المذاهب القائلة بوجود إله
والقائلة بوحدة الوجود والمذاهب التى تنكر وجود الله ، استطاعت كلها أن تنمو
(١) الجنس غير الآرى الذى تنتمى إليه بعض شعوب الهند الجنوبية (المترجم)

في داخل حدود الهندوكية نموًا لا يعوقه شيء ، وإذا كانت الهندوكية لم تقيم قض
بدعاية لعقيدها فإن هذه الدعاية كانت مستحيلة لأن نظام الطوائف حصرها
بطريقة آلية في البلاد التي يقطنها الهندوك .

والراجح أن فريقا من الهنود الذين اختلطوا بالاندنوس عن طريق
الاستيطان في أرخيل الملايو كان من أحط الطوائف التي لم تختلف ثقافتها كثيرا
عن الوثنية الاندونيسية ، ولم يلعب هذا الفريق دورا هاما في تاريخ اندونيسيا
الثقافي بل الذي لعب ذلك الدور بالفعل هم الهندوك من الطوائف العليا ، ويظهر
من سير التاريخ أنهم قبضوا على أعتة السلطة السياسية في جاوة ، وكونوا لهم
شبه مجتمع خاص فوق الأهلين وذلك رخصا لقواعد نظامهم الطائفي ، وإذا
ترجع لدينا أن عند البراهمة الذين نزحوا إلى أرخيل الملايو ظل صغيرا جدا
وأن أعضاء الطوائف العليا الآخرين لم يكونوا يتمون إلى أرقى طبقات
المجتمع الهندي ولم يكونوا من حملة الأفكار الفلسفية العالية بل كانوا أتباع
إحدى الديانات الشعبية ، وإذا زعمنا فوق هذا - كما هو واضح - أن مستوطني
الهنود لم يحضروا معهم نساءهم بل تزوجوا من البلاد الجديدة ، إذا عرفنا هذا
كله فلن نكون بعيدين عن الصواب إن اعتقدنا أن سلائل المستوطنين
الهندوك في جاوة وقفوا بكلنا قدميهم في وثنية هذه البلاد ، ورثوا عن أسلافهم
الهندوك الأفكار الاجتماعية الهندية وصور البيانات الهندية والآداب والعادات
الهندية ثم ورثوا بعد هذا علاقات تربطهم بالهند جعلت الطريق مفتوحا أمام
تأثيرات أخرى تسير إلى أرخيل الملايو .

هـ - وبسبب الزيادة المستمرة في امتزاج الأجناس زاد تأثير الثقافة
الأهلية القديمة في ذلك المجتمع الهندوكي - الجاوي بمرور القرون زيادة منتظمة
ولاسيا أن الاتصال بالهند أصبح أكثر مشقة حينما هبط الأوروبيون
الشرق ، وحالت قوة التقاليد الطائفية ، التي كان نظام الطوائف لا يزال يؤيدها

حتى بعد أن لم يصبح له وجود ، حالت دون تلاشي العناصر الهندوكية في الثقافة الهندوكية - الجاوية تلاشياً تاماً بل هي طبعت كل تاريخ جاوه الثقافي بطابعها ، والحق أنها لا تزال تؤثر فيه للآن ، وسنرى فيما يلي أن التراث الهندوكي - الجاوي جعل للإسلام في جاوة صبغته الخاصة وأنه لا يزال يؤثر بعض التأثير في الحركات القومية في أيامنا . ولما كانت القومية الجاوية عاملاً عظيماً في الحركة القومية في أندونيسيا ولما كانت الحركة القومية من جهة أخرى حليفة للإسلام في الظروف الحاضرة فهذه الملاحظات القليلة عن المذاهب الهندوكية - الجاوية ليست فضولاً لا طائل فيه في هذا المقام ، ولا بد أن نفصح عن رأى كهذا في مقام آخر .

ولعله قد وضح بما تقدم أن الهندوكية ليست ، حتى في صبغتها الجاوية ، ديناً عاماً في جاوه ، ولا تنكر أن جزئيات من الثقافة الهندوكية أصبحت بمرور الزمن حقاً مشاعاً للشعب الجاوي كله ولكن هذا لم يتيسر إلا لأن ذلك الشعب الفطري استطاع قبول هذه الجزئيات من نواحي كثيرة لشدة تشبعها بمناصر الثقافة الوطنية .

٦ - ولم تستطع الهندوكية ، في أي مكان من الأرخيل ، أن تؤثر تأثيراً مستمراً مثل ما فعلت في جاوة ، لأنكر أن بعض الشأن كان لها فيما عدا جاوة مثل أقاليم مختلفة من سومطرة وسواحل بورنيو - إذ اصرقنا النظر عن جزيرة « بالي » التي تبوأ مكاناً شاذاً من نواحي عدة - ، ولكن يلوح أننا نستطيع أن نزعّم أن شيوع الهندوكية المصطبغة بالوثنية الجاوية لعب في تلك الحالات دوراً أكبر من الدور الذي لعبه مجي الهندوكية من الهند ذاتها . لن ندخل في تفاصيل هذه العملية ويكفي أن نقرر أن تأثير الهندوكية في الإسلام في سومطرة كان أقل من تأثيرها فيه في جاوة وأن الإسلام لذلك يبدو في سومطرة على صورة أكثر نقاء .

الإسلام في أندونيسيا

- ١ — خصائص الدعوة الإسلامية ، ٢ — مجيء الإسلام من الهند ،
- ٣ — إقراره عادات البلاد ، ٤ — مسأيرته المذاهب الهندوكية — الجاوية في جاوة ،
- ٥ — خصائص الإسلام في النواحي الأخرى .

١ — لا حاجة بي هنا إلى الاطّنباب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية . يقابل أو هام الهندوكية وما فيها من غموض ومراوغة شريعة الإسلام وعقيدته المحسوستان اللتان يكاد لا يكون فيهما أثر للخيال واللذان بلغتا من النقاء ما بلغتته التربة التي نشأتا فوقها على حد تعبير « سنوك هورجروني » (Snouck Hurgronje) (١) ورغم كل ما في الإسلام من إصرار على الشكليات فلا تزال فيه تقوى إنسانية حارة وإسلام لله لا يمتاز بهما الهندوكية وإن لم تكن منهما صفرا . ونظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أوتموت لا أثر له في الإسلام ، دين الديمقراطية ، وقد استمد قوته على الدوام من حب الجماهير له حبا حماسيا . إن الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانا وإن معتنقيه ايفخرون به ولكنهم مع فخرهم هذا لا يدافعون غيرهم . « الإسلام يعلو » ، تلك صيحة الداعية المسلم يدعو بها الوثني لدينه ، « أدخل في الإسلام فتكون من الجماعة الإسلامية السامية » ، وما أسهل اعتناق دين محمد (صلى الله عليه وسلم) هو لا يستلزم دراسة معقدة ، فليس هناك إلا التطق بالشهادة التي تتضمن الإيمان بالله الذي لا شريك له وبرسوله ، وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية . وإن إجماع المسلمين على أن اختلاف الرأي رحمة من الله ، هذا الإجماع الذي يستلفت النظر بليته وتسامحه ويبرهن لنا برهانا جديرا بالذكور على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد

(١) من أكبر مستشرق هولنده .

الكلمة ، يؤيده عدم وجود سلطة معينة ترغب الناس على رأيها (١) .
 عن هذه العقلية نشأت الطريقة الإسلامية المجرية في الدعاية ، تدعو الناس
 أولاً لأن يصيروا مسلمين ولو في الظاهر ، وتحاول — إن أمكن — إدخالهم في ظل
 الحكم الإسلامي ، ويتبع ذلك تغلغل الإسلام أخيراً في كل ميادين الحياة .
 وإن شئنا أن نصدق أن الإسلام بأخروته للمسلمين جميعاً وبأنه عنصر في العالم الإسلامي
 هذا الشعور الذي يبعث الدعاة في نفسه عند أول دخوله في الإسلام ينمو ويخلق
 فيه استعداداً عقلياً لا اعتناق الإسلام من صميم قواذه . والحج المقروض على
 كل مسلم أن يقوم به مرة في حياته إن استطاع إليه السبيل والذي أذاه ملايين
 من الأندوس — رغم أن الشريعة تعفيهم منه لعدم قدرتهم عليه — واستيطان
 عدد عظيم من الأندوس أود الجاوي ، — كما يقول أهل جزيرة العرب — في مكة
 التي هي المركز المشاع للعلوم الإسلامية والتي حل الأندوس إليها حماسهم
 للحج ، وأثر اللغة العربية في العمل على الوحدة ، وتشابه طرق التعاليم في كل العالم
 الإسلامي ، كل هذه العوامل جعلت فكرة الوحدة الإسلامية باقية في المكان
 نالاً ، حتى بعد أن تم تمزق إمبراطورية الخلفاء إلى ولايات مختلفة رغم
 عقيدة وحدة الأمة تحت لواء الدين . والمثل السوء الذي ضربته أوروبا التي
 تزعم أنها مسيحية ، هذا المثل الذي ظل قروناً يضع المصلحة الفردية فوق
 المصلحة العامة لم يقتد به العالم الإسلامي إلا في هذا القرن ، وعذره في ذلك ما وقع

(١) لعله يريد أن يقول إن عدم قيام كهنوت بين المسلمين ، وتسامحهم فيما يخص
 باختلاف الرأي وعدم قيام سلطة دينية ترغب الناس على رأيها ، كل هذا يجعل الحياة
 الدينية الإسلامية يسيرة أمام من يريد دخولها — ولا ننظر أن الأجماع على التسامح فيه
 تفريق لكلمة المسلمين إلا إذا انقلب الأمر إلى تعصب كل لرأيه . والاجتهاد بالرأي
 في الإسلام من الأصول المحترمة التي عمل بها منذ نشأته الأولى ولا تزال إلى اليوم ،
 وهذا فيما يظهر لي هو الطريق الوحيد لارضاء العقل (المترجم) .

عليه من ضغط خارجي .

٢ - وأول من نشر الإسلام في أرخبيل الملايو هم التجار ، بالسلم عادة وبالغف أيضا في بعض الأحيان ، دخل في شمال سومطرة قرب آخر القرن الثاني عشر ثم سار منها إلى جاوة في غضون القرن الخامس عشر ، وكان الناس وما يزالون يتقبلونه راضين في الجهات الوثنية للأسباب التي سبق ذكرها ، ونجحت الدعوة الإسلامية حتى في الجهات التي أثرت فيها الهندوكية تأثيرها من قبل ، وقد لفت « سنوك هورجروني » النظر مرة بعد مرة إلى أن الإسلام دخل إلى أرخبيل الملايو في القرون الأولى عن طريق الهند دون سواها فلم يستطع الإسلام بطبيعة الحال أن يصون نفسه من تأثير الهندوكية ، واختلاط الإسلام بعناصر هندوكية سهل سرعة انتشاره في الشعب الجاوي . لأنه اطمأن إلى الهندوكية منذ العصور القديمة ، كما عمل على ذلك قلة النظر الثاقب وقلة روح النقد مما لم يساعد على تبيين الفوارق الحقيقية بين الهندوكية والإسلام ، ولكن الإسلام لاقى مع ذلك معارضة شديدة من دوائر البلاط في شرق جاوة حيث كانت الهندوكية الجاوية إحدى التقاليد القوية طيلة القرن الرابع عشر وربما كانت كذلك طيلة القرن الخامس عشر ، تلك المعارضة التي لم تنكسر شوكتها إلا بعد حرب دموية شعواء كما تبتثنا لأفاصيص الجاوية .

٣ - وكان من حسن حظ الإسلام أنه لم يسكد يظهر على سواحل جاوة حتى نقلت المقادير مركز توازن السلطة السياسية في جاوة إلى جاوة الوسطى حيث كانت الهندوكية - بعد أن خسرت كية كبيرة من قدرتها على المقاومة - قد انعمرت أثناء القرون السابقة في ثقافة البلاد انعماراً أكبر كثيراً مما كان الأمر في شرق جاوة ، ومع ذلك فتجتاح الإسلام - ولا سيما هنا - يجب أن يعزى أولاً إلى إفراره العادات القديمة إقراراً شاملاً . ثم رأينا الأسماء الإسلامية تظهر في القاب حكام جاوة ، قري هؤلاء يتحلون بأسماء :

خليفة الله و بناتا جاما ، (حامى الدين) ونرى البانجولو (١) يتبوا
فى المجتمع الجاوى مكان القاضى والمحامى المسلم ، ولكن نجد فى
البلاط إلى جانب هذا كل صنوف العادات الهندوكية - الجاوية وكذلك كل
صنوف موظفى البلاط القدماء ، ونجد آداباً وشعبة بالهندوكية وضرباً من التمثيل
الهزلى متصلاً اتصالاً وثيقاً بالآداب ، ونجد رقصاً وموسيقى وعناصر أخرى
كثيرة من الثقافة القديمة التى قد لا يبيحها الإسلام ، نجد كل هذا باقياً يكاد
لا يتطرق إليه الوهن ، ولا يعارض الحاكم الجاوى المسلم فى أن يعد آلهة
وأبطال فالمها بهاراتا ، (١) أسلاًفاً له بعد محمد (عليه الصلاة والسلام) وبعد من
يقدسهم من حملة الإسلام الأولين إلى جاوة ، كما أن قاضى الشرع لا يعد
من العار أن يتحلّى باسم ديوجى سوارا ، (٢) ، الذى يعيد ذكريات ما كان يطمح
إليه الناسك والسحرة الهنود مما ليس من روح الإسلام .

(٤) لذلك يختلف المكان الذى تبوأه الإسلام فى تاريخ جاوة الثقافى
والأثر الذى أحدثه فى سير الحوادث اختلافاً تاماً عما نجده فى الهند ، فبينما نجد
الهندوكية والإسلام فى الهند ، رغم تأثير كل منهما فى الآخر فى ميدان الدين
والفكر ، يقف كل منهما خصماً للآخر فى معسكر منفصل تمام الانفصال عن معسكر
صاحبه بسبب الفوارق الاجتماعية والسياسية وينا يصعب جداً أن نتظر توافقاً
فى المستقبل القريب ، نجد كل الفوارق آخذة فى التلاشى فى أندونيسيا . وترى
من سيكون النصر إلى جانبه فى هذه المعركة القائمة بين وثنية الرافيين
السذج وبين الإسلام الذى يقول بتوحيد الله ؟ وهل انتصرت المذاهب الهندوكية -

(١) أحد رؤساء المجتمع الجاوى ، يشبه رئيس القبيلة أو القاضى ، وكان تحديد
معانى هذه الألفاظ موضع بحث طويل مع بعض الطلبة الاندونيسين فى القاهرة
(٢) ملحمة من الشعر الخرافى تشبه الألياذة فى ذكر الأبطال والآلهة ولكنها تزيد
عن الألياذة كثيراً فى الطول (٢) اسم يطلق على المتصوف الوثنى (المترجم)

الجاوية أو الاسلام إنتصاراً حقيقياً في دائرة البلاط ؟ ليس من اليسير أن نجيب عن هذا السؤال اجابة شافية تماماً . إن عماية مزج دينين أو مذهبين فلسفين مختلفين تمام الاختلاف وتوحيدهما تحت ضغط الفكر الفطري ، هذه العملية اتى اضطلعت بها جاوة من قبل يوم كانت « الشفاية » و « البوذية » ، رغم تشابههما الظاهري الشديد ، تتأخران في سبيل السيادة ، حدثت مرة أخرى بعد دخول الاسلام ، وإن الحلق الجاوى أو ال « جاماجاوا » (الدين الجاوى) هو الذى كان يمد كل شئ وحتى عهد قريب المتصر الحقيقى بجمعه بين المتناقضات من غير تمحيص .

ونستطيع أن نذكر ما يضيئ المقام عن ذكره من الامثلة التى تسترعى النظر على هذا التوفيق الذى ينزع إلى محو الفوارق ، ويكفى الآن أن نذكر أمثلة قليلة جديرة بالذكر . هناك كتاب جاوى يسمى « سيرة كابولك » يبحث فى شخصية قفيه هو « أحمد متمكن » يقال إنه نشر فى « تويان » (على الساحل الشمالى لشرق جاوه) فى الربع الثانى من القرن الثامن عشر مذهباً صوفياً تفرع فى جوهره من مذهب أهل السنة ؛ نشأ شئ من الاضطراب من أجل هذا الأمر ودخل الحاكم أخيراً فى النزاع لأن خصوم « أحمد متمكن » أشفقوا من خطر أعماله على البلاد وعلى الدين ، وأتى رسول من قبل الحاكم وشرع فى التحقيق ولكى يستطيع تكوين رأى عن مذهب الفريقين حرضهما على الجدل فى مسائل دينية وكان من أهم موضوعات البحث فى تلك المناسبة مذهب صوفى لكتاب معروف جيداً بين الكتب الهندوكية اسمه (نواروشى) أو (بيماشوشى) يحوى قصة (بهما) و (بانداوا) الذى طاف مرة للبحث عن ماء لاستاذة (درونا) ووجد الحكمة العليا آخر الأمر ، وبعد مخاطر كثيرة ، فى قرار البحر فى بطن كائن يشبه الطفل ولكنه يجمع فى نفسه العالم كله ويسمى (نواروشى) أو (ديواروشى) . وظهر جلياً أن الخطيب (أنوم قدوس) ، بطل مذهب أهل

السنة أعرف بالحكمة الهندوكية - الجاوية من أجدهم تمكن نفسه وقد أثار النزاع اهتمام الحاكم بـ (نواروثنى) وبدلاً من أن يتم بمصالح الإسلام عمل أقصى جهده - وهو الـ « بناتاجاما » (حامى الإسلام) - للحصول على نسخة من هذا الكتاب الوثقى ، مع أن الحكمة التى فيه لا يقرها الدين وما فعل ذلك إلا لأن ذلك هو ما أدته إليه مصلحته .

وحتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نجد فى دائرة البلاط هذه النزعة العقلية نفسها رغم تأثير العرب المتزايد ، وكان « رانجاوارستا » آخر شعراء البلاط الجاوى العظام وعلمائه ، يعد أن ملك بلاده كان ولا يزال من «سلالة» « أرجونا » ، ومحمد (عليه السلام) وكانت آلهة القصص الهندية القديمة لا تزال عنده شيئاً أحيالاً يزعمه فضلاً عن أن يقضى عليه اعتقاده بوحداية الله فى الإسلام ، وكان « رانجاوارستا » رغم هذا يتمتع بتقدير عظيم وشهرة عظيمة لتعاليمه الدينية ، وكتبه التى زاد بها فى ثروة الأدب الدينى الجاوى تبين لنا فى وضوح ما يجب علينا أن نفهمه من ذلك ، كان لا يزال فى « رانجاوارستا » « نجلمو » أو العلم والحكمة الجاوية التى يسير فيها الإسلام إلى جانب الهندوكية فى سلام ووثام كما يسير فى كلمة « نجلمو » نفسها كل من الكلمة العربية الأصلية : « علم » والكلمة الهندوكية ، وإنما استطاع أن يسير معاً فى سلام وإخلاص لأن خصائصهما الحقيقية ظلت غامضة أمام العقل الجاوى الذى لا يعرف النقد .

وان محاولات التوفيق بين ألعاب « الوابانج » (١) وبين الإسلام فى جاوة مثل إلbas الإبطال الخرافيين ثوباً إسلامياً تثبت اثباتاً لا شك فيه أن بعض الدوائر بدأت تشعر بالتناقض بين الديانتين ولكنها تدل أيضاً على أنه كان يعوزها العقل الناقد الذى لا بد له من فصل الأشياء وعدم الخلط بينها ومن التمييز بينها ، وربما كان « ديزانثرن » (٢) الذى يتخرج فيه فقهاء جاوة (١) ضرب من التمثيل الهزل الوثقى يشبه « الأرجون » (٢) المعهد الدينى . (المترجم)

المسلمين صورة باقية له الماندالا ، (٣) الجاوية أو الهندوكية الجاوية القديمة ، ولم تتغير حياة السنسكريتية (طلاب الدين) ، واسمهم تحريف عن الاسم الهندوكي «سنسكري» (العارف بالكتب الهندوكية المقدسة) كما لم يتغير المركز الاجتماعي لهذه المدارس الدينية تغيرا عظيما في جاوة رغم أربعة قرون مضت على دخول الإسلام .

هـ - ولا نزاع أن الزمن قد ساعد الإسلام ، ففي سومطره وغيرها من الأقاليم التي ظلت خارج دائرة التأثير الجاوي بدرجات متفاوتة والتي تلاشت فيها من أجل ذلك بقايا الهندوكية أسرع مما تلاشت في جاوة ، نشأت ممالك صغيرة تغفل الإسلام فيها ، وهو وحده القوة الروحية التي لا تنازع ، تغلغلها أبعدغورا ، وحارب متعمداً بمجموع عادات البلاد وسارت الآداب الإسلامية المشهورة إلى بلاد الملايو عن طريق الهند فالكتب الدينية كالقصص التي تتجلى فيها التقوى والتي أخذت من السنة ومن تاريخ الأنبياء وكالسير المصطبعة بصبغة إسلامية عامة مثل سيرة الاسكندر وسيرة الأمير حمزة (١) ليست ثوبا ملايويا ، وكما إنتشر التأثير الهندوكي من جاوة يومامما كذلك إنتشر التأثير الثقافي الإسلامي على أجنحة اللغة الملايوية من مراكز قليلة في مضيق ملقا وصارت الملايوية لغة رسمية للدول التي في الجزء الغربي من أرخبيل الملايو مثل «أجه» و «مناجكابو» في سومطره و «جوهور» في ملقا وأفلحت في أن صارت لغة مشتركة (lingua franca) بين أهل اندونيسيا السهولة تركيها وبفضل معونة الإوروبيين ، ولم يكن قط للأمم التي تتكلم اللغة الملايوية مركز سياسي يجعلها تسود غيرها فسومطره وملقا كانت يعوزهما التجانس الذي عمل على عظمة جاوة بل إن ذلك التجانس أصبح مستحيلا لما صارت جاوة أعظم مستوطن للهنديين .

(١) الصومعة (٢) لعله يريد بالاسكندر ، ذا القرنين المذكور في سورة الكهف ولا أدري من يريد بالأمير حمزة أهو يريد سيدنا حمزة بن عبدالمطلب أم غيره (المترجم) .

عوامل التجديد

١ - الاتجاه الجديد في الثقافة بسبب تجارة أوروبا وملاحتها ، ٢ - الدور الذي قامت به مكة وحضرموت ، فكرة الجامعة الإسلامية ، ٣ - قيام حركة التجديد المصرية ، ٤ - الوهاية الجديدة ، ٥ - تأثير مجلة المنار ، ٦ - حركة التجديد على شاطئ سومطره الغربى .

١ - ظهر الأوروبيون في مياه أندونيسيا في أوائل القرن السادس عشر ، وكان من النتائج التي نشأت سريعا عن انتظام حركة الملاحة نحو الشرق اتصال أرخبيل الملايو بجزيرة العرب اتصالا مباشرا ، على حين نقص تأثير الهند الثقافي في أندونيسيا نقصا كبيرا أوهو على الأقل فقد أهميته ، وعلى حين قل شأن التاجر الهندى كثيرا بمنافسة الأوروبيين له في ميدان التجارة ، ثم إن الملاحة البخارية وفتح قناة السويس سهلا اختلاط الشعبين وأسرع في توجيه ثقافة أندونيسيا توجيها جديدا .

٢ - وعلى هذا فان الظروف الخارجية بوأت جزيرة العرب المكان الذى تبرأت منه الهند حتى ذلك العهد ، وكان معنى هذا سئوح فرصة حسنة لمذهب أهل السنة ، وأخذت تترعرع في مكة جالية من طلبة العلوم الدينية ، وصار الذين غادروا مكة متمكنين من دراستهم منابع يفيض منها تأثير مذهب أهل السنة في بلادهم ونشأت ألوان جديدة من الآداب في لغة الملايو وهى المسماة آداب الكتاب ، وترجمت إلى الملايوية كل صنوف الكتب الدينية والفقهية والصوفية والسنية ، وكان لهذه الكتب - رغم شذوذ أسلوب اللغة الملايوية - جمهور متزايد من القراء في سومطرة أولا وفي جاوة بعد ذلك حيث نرى نزعة أهل السنة تنمو رويدا رويدا في نفوس طلاب الدين بتأثير هذا الأدب الإسلامى الجديد .

وإذا كان هذا التأثير ، الذي يجب أن نقدره حق قدره ، وصل إلى الشعب من طريق العلماء خاصة فإن الجماهير وقعت مباشرة تحت تأثير عرب حضرموت شديدي الاستمساك بمذهب أهل السنة ، هؤلاء العرب الذين بدسوا يرحلون زرافات من بلادهم المجدة إلى أندونيسيا في القرن التاسع عشر ، وهنا هيات لهم خصوبة التربة ومحا احترام أهل البلاد ظروفًا للمعيشة أحسن كثيراً مما كان لهم في بلادهم بل أحسن مما يمكن أن يكون لهم في الهند . ولما كانوا تجاراً فانهم أفلحوا في توثيق صلتهم بأهل البلاد ، ونشأت أوامر أخرى عن طريق الزواج ، وأثرت الأحياء التي كان يسكنها الحضرميون - أو «الكوجا» كما يسميهم أهل أندونيسيا - تأثيراً عظيماً في مجاورها ، هذا التأثير الذي كان يكون أكبر شأنًا لولم تضع الحكومة الهولندية العراقية في سبيل هجرة الحضارمة وحرية انتقالهم .

وسخط هؤلاء الحضارمة - بالطبع - من معارضة الحكومة الاستعمارية لهم كل السخط ، وربما كانت تريد مكافحتهم اقتصادياً أكثر مما كانت تريد مكافحتهم دينياً ولكنها غرتهم فظنوا الأمر دينياً ، ولذلك أحدثت شكاياتهم في العالم الإسلامي صدى أوسع مما كنا نتصوره لولم يكن الأمر دينياً . ثم أن مظالم أخرى احتفظت قلوب المسلمين على الهولنديين ، وفي مكة حيث التقى مسلمو أندونيسيا دار الكلام كثيراً حول تضيق الحكومة المستعمرة على مسلمي أندونيسيا تضيقاً متكرراً التحول بينهم وبين أدا شعائهم الدينية ودعا إلى إثارة هذه المسألة أن محاولات هولندية منع الأندونيس من الحج كانت مهاجمة لمالية أهل مكة الذين يعيشون إلى حد كبير على ما ينفقه أهل جاوة ، أضف إلى هذا أن حرباً يعدها الأندونيس جهاداً ، أقيمت سنوات كثيرة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وفي أوائل القرن الحالي ضد المسلمين المتحمسين في «أجه» ، وأضف إليه أيضاً أن مسلمي أندونيسيا رأوا شبح التنصير يتراوح مراراً أمامهم حينما جاهر

المبشرون المسرفون في حماسهم بعدم الاعتراف بالصفة الإسلامية لأهل جاوة وسومطرة وبهذا نستطيع أن نعرف لماذا ساد في مكة الرأي القائل بأن الهولنديين من أشد الأتباع الأوروبية تعصبا على الإسلام ونداء له . وكان طبيعياً جداً في هذه الظروف أن يعمل الحج والمقام في مكة بدورها على دفع كثير من الأندونيس إلى معاداة ومخاصمة هولندا والحكومة الهولندية في أندونيسيا مما كان متمشياً من نواح أخرى مع المبادئ المتعلقة بالجهد ، تلك المبادئ التي قامت في الجامعة الإسلامية من أول تكوينها .

ولما كان الأندونيس أقل شعوب الإسلام قدرة على التفكير في شن حرب مادية — مع مراعاة نقص التنظيم الحربي في العالم الإسلامي — قصروا أمرهم على أخذ نصيب في حركة الجامعة الإسلامية ، بقدر ما كان ذلك ممكناً في بلادهم النائية ، وعلى معاضدتها مالياً في مشروعاتها ، ومعلوم أن قناصل السلطنة العثمانية حاولوا بين حين وآخر في أوائل هذا القرن استغلال وجود نزعة للجامعة الإسلامية وتسخيرها لمصلحة سلطانهم وبلادهم : فحاولوا حل جميع المسلمين على الاعتراف بسيادة السلطان بحكم أنه خليفة المسلمين جميعاً ، وتكاد قلّة مالدنيا من معلومات عن الموضوع تجعل مستحيلاً علينا أن نعين إلى أي حد تغلغل تيار الجامعة الإسلامية في اندونيسيا ، ولكنها لعبت دورها في تمهيد السيل لما أعقبها من حركات إسلامية .

وإن وجود صحف اندونيسية تعرف كثيراً من أهل البلاد بالحوادث الجديدة في العالم الإسلامي له اليوم شأن عظيم في إضرام مآتوري من وميض العواطف المتعلقة بفكرة الجامعة الإسلامية ، ففي العام الماضي مثلاً (١٩٣١) ترددت إشاعات عن الاضطهاد الذي كان يلقاه مسلمو طرابلس من الحكومة الإيطالية ، وكان من أثر هذه الإشاعات في مسلمي أرخبيل الملايو أنهم كتبوا في صحفهم مقالات حماسية وعقدوا اجتماعات يعلنون فيها سخطهم وفكروا

في مقاطعة البضائع الإيطالية حتى اضطرت حكومة الجزائر الهولندية إلى مطالبتهم بالاعتدال - وأذاعت الحكومة الإيطالية منذ شهر قليلة فقط (ديسمبر ١٩٣١) انكارا تاما للإشاعات الجارية في اندونيسيا، أذاعته في صورة بيان صادر من مصدر إسلامي في طرابلس يؤكد فيه حسن علاقة إيطاليا بالمسلمين فيها، فالظاهر أن مسلمي اندونيسيا لا يسرون دائما وراء الحقائق حين يعبرون عن عطفهم على الجامعة الإسلامية .

٣ - وبينما عمل التأثير الأوروبي ، ولا سيما في غضون القرن التاسع عشر وبطريقة غير مباشرة وعن غير قصد ، على تقوية الاواصر التي تربط مسلمي اندونيسيا بسائر العالم الإسلامي وعمل بالتالي على شد أزر مذهب أهل السنة باتقاصه من المذاهب المحلية ، بدأ يسود في نواحي أخرى تأثير أوروبي غير قصدي كسابقه ولكنه فيما يختص بالإسلام مدمر في جوهره ونتائجه . إن توسع أوروبا توسعا شاسعا من جميع جهاتها تقريبا ، اخترق حدود العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، وأحدث حركة شديدة حلت محل الهدوء النسبي في القرون السابقة ، رأى المسلم المعتر بنفسه أن الكافر يحتاجه ورأى نفسه مرغما على التلمذ للغرب وعلى اتخاذ وسائله إن أراد ألا يسحقه الكافرون، فبدأ شبان الهند والمغرب ومصر وسوريا يفدون إلى جامعات أوروبا حيث كانت المذاهب القائلة بتحكيم العقل تحتفل بأكبر انتصاراتها، وإذا كانت تقاليد الثقافة الأهلية لشعوب الإسلام المختلفة والظروف المذلة التي دفعتهم إلى التعلم في أوروبا أول عقبة في سبيل تشربهم الثقافة الأوروبية فإن تضارب تيارات قوية الآن في تلك الثقافة كان عقبة أخرى ، وربما كانت القوة العظيمة التي أحرزتها أوروبا في القرن التاسع عشر قادرة على إرغام الناس على إحترامها ولكنها لم تكن تقدر على إرغامهم على محبتها والعطف عليها ، ومهما إشتد ميل الطلبة لتشرب الثقافة الغربية لذاتها فإن تحقيق ذلك لا يتيسر إلا على أساس من

التفاهم ، ولم يكن منتظراً من أوروبا في تلك الأيام أن تفهم حقوق رعاياها المسلمين ومطالبهم ومظالمهم لأنها كانت لا تزال تعتقد إعتقاداً راسخاً أنها أفضل منهم من جميع الوجوه ، وكان لابد لها أن تتعلم من سير الحوادث أن الأساس الروحي الذي تستند اليه قوتها وتفوقها كان قلقاً بعض القلق بسبب مافى صميمه من تضارب فلا تعجب من أن النزوع لمقاومة النظام الثقافي السائد فى أوروبا ذلك النزوع الذى ازداد قوة على قوة فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يدب أيضاً فى نفوس الأجناب المسلمين فى أوروبا ، ثم إن العلاقة القائمة بين بلادهم وبين أوروبا جعلت للمقاومة صبغة سياسية أول الأمر ولا شك أن الخصومة السياسية تخلق حائلاً دون أن يفهم المتخاصمون ثقافة بعضهم بعضاً فهما صحيحا .

وهكذا عاد كثير من الشرقيين الذين تربوا فى أوروبا إلى بلادهم وقد ارتبوا من ثمرات المدنية الأوروبية خيراً وشرها من غير أن يقدروا دائماً على تشربها ، عادوا متأثرين بقوة أوروبا وتقدمها السريع ولكن من غير أن يكونوا فى الجملة أكثر نقاداً إلى مافى أساسها من قوة أضعف من الأوروبية العادى نفسه ، اتفعلوا بالثقافة الأوروبية وبناتج البحث العلمى الأوروبية ولكن من غير أن يكون لهم شغف خاص بأوروبا ومن غير أن يميلوا للاعتراف بسيادتها السياسية والاقتصادية حقاً طبعياً ، وبدأ الشباب فى كثير من بلاد الإسلام يطمحون إلى استئلال بلادهم ونظراً لضعفهم عن أن يفعلوا وحدهم شيئاً ذا خطر لم يكن لهم بد من اللجوء إلى الشعوب التى نشأوا منها ، ودعا التضامن الوطنى أو السياسى إلى تضامن فى ميدان الدين ، وأحسن الذين ضعفت المذاهب العقلية عقيدتهم أوقضت عليها أن تروى بهم تلك المذاهب سيجعل التعاون مع شعب متمسك قليلاً أو كثيراً بمذهب أهل السنة مستحيلاً على الإطلاق ، كانوا يريدون تسخير أبناء وطنهم لتحقيق غاياتهم

السياسية وربما كانت معاضدة أبناء وطنهم القوية لهم في ذلك كافية في تعويض الكثير منهم عن تضحياتهم المعنوية بكتبتان آرائهم الخاصة ، وكان إظهار الإسلام وإضمار غيره ، وهو ما يسمى «تفاقا» بعض في الأحيان في مصر ، أسهل عليهم لأنهم كانوا يميلون إلى اعتبار الدين كمية مهمة بجانب المثل الوطنية العليا (١). هذه ناحية من المسألة ولنوجه عنايتنا للناحية الأخرى أيضاً . يبين الأستاذ «سنوك هورجروني» في محاضراته التي ألقاها في أمريكا عن «الإسلام» كيف تنتهي التغيرات الخطيرة في الأحوال الثقافية العامة للشعوب بنهضة دينية ، ونستطيع جريا مع هذه النظرية أن نلمح في بلاد إسلامية مختلفة حركات دينية قامت في نفس الوقت الذي دخل فيه التأثير الأوروبي ، ولا ضرورة للتورط في معرفة أي البلاد ظهرت فيها قبل غيرها النزعات الحديثة في ميدان الدين ولا في تفاصيل كل حركة من حركات التطور ، وقد يكون «جولد تريبر» مصيياً حين يعزو أول باعث على حركة التجديد إلى الهند ، ولكن يلوح أن ليس هناك سبب يدعونا للزعم بأن الهند كان لها تأثير خاص في سير الحوادث العام لأن الأسباب والظروف كانت متشابهة تشابها عظيما في جميع بلاد الإسلام ، ورغم أننا لا نستطيع جحود ما كان للهند من تأثير في تطور الأفكار الحديثة بين مسلمي أرخبيل الملايو بل ربما كان تأثيرها عظيم الشأن ، فالتأثير لا يتعرض لهذا التأثير هنا ، لأن الإسلام الحديث في الهند ، لما له من علاقات مع الهندوكية المشبعة بروح التجديد ، أكثر تعقدا منه في أي مكان ، ويظهر أن العلماء لم يفحصوا إلا مسألة الصلات بين الإسلام

(١) الحق أن هؤلاء الشبان الذين يتكلم عنهم الكاتب لم تبلغ المدينة الغربية منهم هذا المبلغ ، وكانوا يشعرون بصلتهم بالإسلام صلة وثيقة على مثال ما أبان عنه الأستاذ «جب» في المقدمة ، وتاريخ الحركة القومية في مصر لا يؤيد ما يزرعه كاتب هذا الفصل ، وقد تمشى الإسلام على ثمرات العقل الصحيح تمشيا تاما (المترجم) .

الحديث في الهند وحركة التجديد في أندونيسيا فحسب كافيا ، على حين درس بعض الباحثين المبرزين تطور مصر الحديث وعلاقاته بأندونيسيا ، ولست بحاجة أن تؤكد أننا في الملاحظات القليلة التالية لن نمس إلا بعض النقط الهامة في حركة التجديد الإسلامية في مصر وفي تأثيرها في أندونيسيا ، ومن المسلم به بديهيا المكان وجود فوارق خاصة كثيرة أثرت في حركة التطور حتى يكاد ذلك لا يحتاج إلى تأكيد .

وجد الجيل الناشئ في مصر نقطة صالحة يوفق فيها بين الإسلام الأول وبين الأفكار الحديثة وذلك بقبوله رأيا خاصا في مسألة الاجتهاد التي بحثت في القرون السابقة أيام هرطقة المعتزلة وأيام ابن تيمية والوهابيين ، ورغم رفض السواد الأعظم من المسلمين لهذا الرأي الجديد فقد وجد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في نفس الوقت الذي دخل فيه التأثير الاوروبي بطلا مقداما يلتهم حماسة وفتية من أعظم فقهاء المسلمين نفوذا هو مفتي مصر الشيخ محمد عبده (توفي في ١٩٠٥) . أدرك هو وأشياعه الذين عرفوا بالسلفية أن نزعة الشباب المتعلم على الطراز الاوروبي إلى تحكيم العقل تتطلب إصلاحا جديدا من جانب الفقهاء والمتكلمين ، وأفلح أخيرا بمظاهرة كبار رجال الدولة في نيل بعض الاعتراف بنزعة الجامعة بين مذهب السلف وبين الآراء الحديثة رغم معارضة دوائر أهل السنة في الأزهر له ، وكان الأساس الذي رأى السلفية أن في وسعهم أن يجمعوا عليه من يعترض على أشياء يراها تشديدات في العقيدة الإسلامية ولكنه يقبل هذه العقيدة في جملتها فيماتدا ذلك ومن ينزع نزعة التجديد على أساس تحكيم العقل ويحتج به الإسلام مالم يعرقل تحقيق المطامح الحديثة وما دام يعمل على رفع شأنها كان ذلك الأساس هو أن المجتهدين يستطيعون في كل العصور أن يوفقوا بين الإسلام وبين الحاجات المتجددة ليجعلوه دائما في مقدمة الأديان ، وكانت مجلة (المنار) في مصر أول مصباح

أرسل شعاعا من هذا التفكير الجديد على جمهور عظيم من المسلمين .
هـ — ولم يشرق « منار » القاهرة على المصريين وحدهم ولكنه أشرق على العرب في بلادهم وفي خارجها وعلى مسلمي أرخبيل الملايو الذين درسوا في الجامعة الأزهرية أو في مكة وعلى الاندونيسى المنعزل الذي ظل محافظا على علاقاته بقلب العالم الاسلامى بعد عودته لبلاده النائية على حدود دار الاسلام هؤلاء جميعا رأوا الاسلام على نور جديد لم يروا فيه مثالا للتشدد والجلود ورأوه لا يزال الدين المختار بين الاديان ، وحامل المثل العليا لكل زمان مضى والمثل الجديدة لكل زمان آت ، وهو شاب متجدد الشباب ، حامل لواء كل تقدم ، شديد فى تسامح ورفق ، وأصبح الذين اقتبسوا من نور المنار فى مصر «منارات» صغرى فى اندونيسيا بعد أن عادوا اليها .

والدليل على نماء الافكار الجديدة فى تربة اندونيسيا الارتفاع بالاساتذة المصريين فى بلاد كثيرة لكى ينشئوا الشبان على الروح الجديدة وعلى المثل العليا الجديدة . وبالطبع بدا هذا النور الجديد لآعين الكثيرين نورا خادعا يعشى العيون ، ولم تعدم الافكار الجديدة معارضا ، وتأثير مجرى النزاع بين الشيوخ والشبان وتعينت مواضع النزاع بينهم بعوامل كثيرة اختلفت باختلاف البلاد . ويكاد يكون محالا أن نصف حركة التجديد هذه من كل نواحيها فى أرخبيل الملايو ما دمنا لم ندرس إلا مظاهر قليلة لحركة التجديد فى تلك البلاد وما دمنا لانكاد نصل إلى مصادرها . ونستطيع فى الجملة أن نقول إن شأن حركة التجديد هنا فيما يظهر ، أقل كثيرا من شأنها فى الهند أو فى مصر لان العوامل التى نشأت عنها حركة التجديد فى اندونيسيا لم تبدأ فى العمل إلا بعد أن انتشرت فى الهند ومصر . وكان أول ظهور حركة التجديد الاسلامية فى سومطرة وجاوة مبتسرا على نحو ما ، فضاعت الحركة بين السقاسف بدلا من أن تجدد فى السير على جادة التقدم . وفى غضون العشرين سنة الاخيرة غير التعليم على الطراز

الأوروبي الحالة الثقافية العامة في اندونيسيا تغييرا جوهريا ونشأ عن ذلك أن الحركة الإسلامية الحديثة تنزع نزعة التجديد الآن وتقل فيها السذاجة .

٦ - ويظهر من بحث الاستاذ ب . شريك B. Schrieke الهام في حركة التجديد على ساحل سومطرة الغربي أن كل الأفكار الحرة ظهرت في عشرات السنين الأولى من هذا القرن في كلا الناحيتين السياسية والاجتماعية أما في الناحية الدينية فسارت مقاومة ما كان يعتبر « بدعة شرعية » جبنا لجنب مع الدفاع عن الأنظمة الجديدة التي تتطلبها روح العصر : « بدعة لغوية » كالاصلاحات في نظام التعليم واستعمال الحروف اللاتينية والملابس الأوروبية والقاء خطبة الجمعة باللغة الوطنية ومعرفة أول رمضان من طريق الحساب بدلا من طريق الملاحظة ، وتمتاز حركة التجديد على ساحل سومطرة الغربي بسميزات أهم من هذه السفساف التي قامت من أجلها خرب كناية ومنازعات بين المجددين والقدماء ما تزال قائمة كسائل النية جهراً أو سراً وهل الطهارة الوضوئية ضرورية عند مس القرآن ، تلك المميزات التي يؤكد بها (شريك) هي : ١ - إثارة استعمال العقل على طريقة المعتزلة بدل الخضوع لقدماء المجتهدين خضوعاً أعمى وليس معنى هذا أن المجددين امتلكوا ناصية النقد العلمي كما امتلكها الأوروبيون ، ٢ - ونشأ عن هذا رفض الرأي القائل بأن كتابي (التحفة) و (النهاية) أشهر كتب الفقه الشافعي في اندونيسيا يجب أن يكونا ، دون ما عداها من كتب الفقه القديمة ، الدليل الذي يرجع اليه الانسان في تعيين مسلكه إزاء المسائل المتنوعة ولا سيما العملية منها ، وفوق هذا صار الناس أحرار في التقيد بالتقليد أعني اتباع رأى الأئمة السابقين ، ٣ - قصر صحة الاجتماع على إجماع مجتهدى عصر معين ولا يكون إجماعهم صحيحاً إلا إذا وافق القرآن والسنة ، وحركة التجديد هذه التي انبعثت من (المنار) وذاعت من مجلات الملايو أثناء العشرين سنة الأخيرة أحدثت حركة عظيمة في «أراضى بادانج الواطئة» وحركة أقل.

منها أيضا في الأراضى المرتفعة ، وكان النضال مع القديماء المتمسكين بمذهب أهل السنة ، ذلك النضال الذى اتخذ أشكالا متطرفة فى كثير من الأحيان بسبب حب الناس للعادات القديمة جدا خاصة ، عاملا على تضيق نشاط المدرسة الحديثة من الناشئين تضيقا عظيما ، ولانسى أن مقاطعة « مناجكاو » إحدى المقاطعات القليلة فى العالم التى تحكمها الامهات (١) وفوق هذا اضطربت حركة الشبان الناشئين بحلول الحركات السياسية فى المكان الأول مستقلة عن الاسلام . وسنوجه هنا الآن لهذه الحركات

أصل القومية ونموها

١ - القومية الجاوية نتيجة لادخال الحكومة الهولندية الاضطراب فى التنظيم الاجتماعى
٢ - مطامح الاشراف ، ٣ - مسألة ظهور المهدي (راتو آدل) قرب قيام الساعة
٤ - تأثير نظام الزراعة الاجبارى ، ٥ - السياسة الخلقية الاستعمارية وتغير المجتمع
الاهلى ، ٦ - التطور الحديث ، ٧ - خصائص القومية الجاوية ٨ - القومية الجاوية
مزيج من عناصر كثيرة ، ٩ - الدور الذى قامت به « شركة اسلام » ، ١٠ - حركتنا
« المحمدية » و « الاحمدية » .

١ - لعل القارى يذكر أننا وصفنا المجتمع الجاوى القديم بأنه مجتمع « استعمارى » بمعنى الكلمة القديم ويمكن أن نقارن مركز الهولنديين فى أندونيسيا أثناء حكومة « شركة الهند الشرقية المتحدة » بمركز اشراف المجتمع القديم من وجوه كثيرة . كون الهولنديون طبقة جديدة عالية حتى أن المجتمع الذى كان ثنائى التركيب قبل دخولهم صار ثلاثيا ، وجريا وراء مصلحة تجارتهم قتلوا تجارة وملاحة الاشراف الجاويين المنافسة لهم التى وجدوها عند هبوطهم أرخبيل الملايو ، ولكنهم فيما عدا ذلك تركوا المجتمع كما وجدوه مع دفعه

١ - من الشعوب المتأخرة ما يسود فيها الآب ومنها ما يسود فيها نفوذ الآم

حتى ليعتبر الآب ضيفا أو زائرا (المترجم)

إلى بعض الأعمال التي يقصد بها خدمة تجارتهم وبهذا أوجدوا بطريقة غير مباشرة أول عامل أثر في تغيير المجتمع تغييراً حاسماً بدأ في الظهور من ذلك الحين، الواقع أن حكومة شركة الهند الشرقية المتحدة، لم تظهر في مظهر من السلطة الأدبية ولا هي ادعت لنفسها ذلك، وما كانت ترمي إلا للإشراف على المنتجات وعلى نقل المحصولات فلم تستطع أبداً أن تحمل محل الإشراف القديما، ولأن تدعيمهم في نفسها لأن الإشراف في ذلك الوقت كانوا مرتبطين بأهل البلاد بروابط كثيرة وإن ظلوا محتفظين بمركز اجتماعي ممتاز، وتزوج الهولنديون من نساء جاويات لم يكن من طبقة الإشراف البتة لما بين هؤلاء وبين الهولنديين من خصومة، فصار من المستحيل الوصول إلى حل يوفق بين المتنازعين ويحسم نزاعهم المتزايد كما حصل في جزر الفلبين، ولما لم يحدث ظهور شركة الهند المتحدة تغييراً في موقف الزراع أول الأمر وجد الإشراف أنفسهم في مركز دقيق غاية الدقة، فبعد أن سلبوا سلطانهم في الحكم صاروا شيئاً فشيئاً إلى المكان الأوسط بين الشركة وبين سواد الشعب في المسائل السياسية وفي الاقتصادية أيضاً فلم يصبح ممكناً أمامهم إلا مطمح واحد هو الاندماج في غمار الشعب الجاوي في المستقبل، وكان الإشراف يعدون أنفسهم أرقى مدينة من الحاكم الدخيل، وكانوا أعزة أباة فلم يطيقوا احتمال هذا الضيم، فلا تعجب أن يخبرنا التاريخ الجاوي بشوارث عنيفة أظهرت ضعفهم شيئاً فشيئاً، وكانت آخر حركة كبيرة تجلت فيها مقاومتهم هي التي قام بها الأمير ديانيجارا، أكبر شخصية في الحرب الجاوية بين سنتي ١٨٢٥، ١٨٣٠ ولا يشق علينا الزعم بأن نمسك الإشراف إزاء الهولنديين تحسناً منذ تلك الأيام أو تغيراً تزيهاً تاماً، وكثيراً ما يسمى الإشراف الذين لا يزالون يقومون بدور هام في إدارة البلاد «رعية مؤالين» بجانب هولندية، ولن يستطيع الحكم على هذا الزعم إلا الإشراف الجاويون أنفسهم هؤلاء الذين ليس من مصلحتهم الكلام في هذا الأمر وسكوتهم

عنهم ذهب ، و التاريخ يعلمنا ألا نجري كثيراً وراء الوهم فيما يتعلق . بمعنى هذا السكوت ، فالولاء للحاكم الأقوى يجلب منافع ينبغي ألا نبخسها قدرها كما أنه يتيح فرصاً مستقبلية ولا سيما إذا كان مركز الأشراف مهدداً بخطر جديد من جانب حركة الشعب . وكان من غلطات الهولنديين التي لم ينفردوا بها أنهم لم يحاولوا - مع تضحية بعض المرافق إذا اقتضى الحال - إيجاد علاقات مع أهل المستعمرات قبل فوات الفرصة ، ونستطيع أن نعد هذه الغلطة غلطة طبيعية إذا راعينا ظروف الزمان والمكان ويمكن أن نجد من الأدلة الصحيحة ما يغفرها ، وأن نشعر بأننا مقتنعون بأن الكثير من محاسن الحكومة أصلح الخطأ فيما بعد بل أربي على ذلك بما جعل لها فضلاً ، وأن نحث غيرنا على أن يسحبوا على التاريخ ذيل النسيان . وفي الوقت نفسه أصبحت هذه الغلطة عاملاً عظيم الشأن في تاريخ نمو عواطف الكراهية لأوروبا ، ولا يمكن أن نزيلها أو ننسخها بالإنكار أو الإخفاء ولا سيما بعد أن أعطينا خصوم الحكومة المستعمرة سلاحاً من البحث في التاريخ بحثاً علمياً كما في أوروبا .

٢ - ماذا كان يتوقع أعداء شركة الهند أن يكسبوا ؟ لم يكونوا ينتظرون في المسائل المادية سوى مجدهم وقوتهم ولكن ربما كانت عيونهم تنو في المسائل العامة إلى استرداد الإحوال التي كانت قبل هبوط الهولنديين أعنى استعادة القوة السياسية والاقتصادية للأمراء والأشراف ، ولم يكن هذا بالطبع المثل الأعلى الذي يطمح إليه الشعب بأسره بل كان المثل الأعلى لمن لهم في الحكم مأرب ، وربما لا نستطيع تسمية مقاومتهم لشركة الهند في القرون الأولى حركة قومية لأن سواد الأمة وقف عنها بمعزل بل لم يكن معنياً بها ، وأؤكد كلمة وربما ، لأننا لا نتردد في أحوال أخرى أن نسمى الحركة حركة قومية من غير بحث في تفاصيل نسبة القائمين بها لسواد الشعب من حيث عبيدهم أو مكانتهم الاجتماعية .

٣ - وكلما قل الأمل في إمكان الرجوع إلى العهد القديم في جأوة أصبح ذلك الرجوع من ضروب الخيال ، ومن السخط على الحاضر والحين إلى الماضي تتولد الآمال الخاصة بالمسيح ، وتغيرت الآراء الخاصة بعلامات الساعة ، هذه الآراء التي كانت موجودة من قبل ، لتنتظم مع الموقف الجديد ، سيأتي إلى « راتو آدل » [(الحاكم العادل)] يومًا ما ويضع نهاية لحكم الأجانب ، ونشأت آداب مشربة بهذه الآراء ، وظهرت كتب تنبأ بنهضة جأوة وتعلن نهاية الحكم الهولندي قهرا فزى على سبيل المثال « ديانيجارا » بطل الحرب الجأوية ينصب نفسه « حاكما عادلا » ويتخذ اللقب الغامض : « ايروشا كرا » الذي ينسب للمسيح المنتظر ، ولم يكن « ديانيجارا » أول ولا آخر « حاكم عادل » ، فال تاريخ الجأوى يقص علينا نبأ « مهديين منتظرين » قبله ، كما تخبرنا التقارير الاستعمارية الهولندية عن آخرين بعده ، ولسبب قوة هولنده وتوطدها أثناء القرن التاسع عشر كان « الحكام العادلون » المتأخرون أقل خطراً على الحكومة الاستعمارية مما كان « ديانيجارا » ولكنهم في الوقت نفسه كانوا أكثر عدداً ، ولما كان الاعتقاد بالحاكم العادل وليد مقاومة الحكومة الاستعمار فانه أثار مقاومة جديدة فكتب لنفسه البقاء ، وأدت ظروف سنعود إليها فيما بعد إلى إذاعة الاعتقاد « بالحاكم العادل » ، وزيادة على صبغته المحلية الاندونيسية يسهل أن نعدو الآمال المتعلقة بالمهدي عند المسلمين شيئا وحداً ، هذه الآمال التي دخلت في أذهان الجماهير في نفس الوقت الذي انتشر فيه الإسلام ولا تزال إلى يومنا تؤثر تأثيرا عظيما ، وكان كثير من الجاويين يعتقدون أن الحكم الهولندي سينتهى في ١٩٣٠ وأساس ذلك اعتقاد « بالحاكم العادل » يلوح أنه لعب دورا له بعض الشأن في الأعمال الثورية التي قام بها « الحزب الوطنى الاندونيسى » ، والتي قضى عليها تدخل البوليس في ١٩٢٩

٤ - لاشك أن الاشراف الجاويين لم ينالوا تقديرا في مركزهم الاجتماعى [الوسط الجديد] فلم يكن بد من سقوط بعض هيبتهم في أعين الزراع كما تحدثت

قوتهم وضاع تقديرهم في عين الأجنبي ، وزادت خسارتهم زيادة عظيمة عند ما بدأت الحكومة الهولندية تتدخل في إنتاج نباتات استوائية معينة للسوق العالمي فأدخلت النظام الزراعي ، قهراً وقوي حتى صار بالفعل وسيلة لنزف ثروة البلاد لخزائن هولندية ، وقد عمل بهذا النظام في أقوى صورته تطرفاً لمدة أربعين سنة وكان له نتائج سياسية عظيمة وإن لم تنشأ عنه مباشرة ، ذلك أنه جعل الزراع الجاويين يشعرون تمام الشعور لأول مرة تقريباً بوطأة السيادة الاستعمارية الاقتصادية ، زد على ذلك أنه بسبب تزعر الأشراف في مكاتهم الوسطى كشف هذا النظام عن اشتراك واضح في المصالح بين الأشراف والزراع وهذا يؤدي آخر الأمر إلى أن يقتدى سواد الشعب بمطامح الأشراف القومية كما أن قوة الشعب العظيمة ستوضع أيضاً تحت تصرف الأشراف المتفوقين معنوياً وبعد ذلك تحت تصرف المفكرين الذين هم غالباً من سلائل الأشراف الشريفة ، ولم يكن بد من أن يثير غلو النظام الزراعي آخر الأمر مقاومة ترتكن إلى أسس خلقية يوجهها له الهولنديون أنفسهم في هولنده وفي المستعمرات أيضاً ، ولم تمر السنة الثائرة : ١٨٤٨ من غير أن تترك لها أثراً .

• سرت هذه المقاومة إلى الجمهور في شيء من الضوضاء بعد أن نشر « دويزديكير » كتاباً ثورياً في ١٨٦٠ . اتحل هذا العالم الهولندي اسم « مولتاتولي » من « ماكس هافلار » ، وشن الغارة على جشع التجار الهولنديين وعلى الحكومة الاستعمارية ، ورسخت أصول هذه المقاومة وازداد أمرها وقوى تأثيرها بعد نشر ما كتبه رجال أمثال « فان ديفتر » و « سنوك هورجروني » من أبحاث عظيمة الشأن ، وساعد حسن الحظ على تشرب الناس لأفكارهم الثيرة في ميدان السياسة الاستعمارية مقترناً مع ما يسمى « اليقظة الآسيوية » ، وبذلك ضعفت قبضة اليد الحديدية على الشعب الجاوي بانقلاب من أسفل وضعف من أعلى وكان الأثر النفسى بالطبع هو أن الجاويين الآن

فهموا أحق الفهم ثقل الضغط الذي كانوا يرزحون تحته وأدركوا فوق ذلك حاجتهم الملحة إلى الحرية ، ومن ذلك الوقت كلما ضعفت يدهو لندة تحررت قوى جديدة من الشعب وتحررت رغبات الناس في الحرية وهكذا تحطمت القيود باطراد وتتابعت الحوادث آتتد بسرعة عظيمة ، فبعد سنوات قليلة من انتصار اليابان على روسيا ، وهو الانتصار الذي كان يحس الناس أنه با كورة انتصار آسياعلى الجنس الأبيض ، فتح باب التعليم على الطريقة الأوروپية أمام جماعات كبيرة من شبان البلاد ، وحوالى هذا الوقت نفسه أسس شبان الطبقة العليا ، الذين فتحت قليلا أمامهم المدارس الأوروپية العليا والخاصة فى عشرات السنين الأخيرة أول اتحاد سياسى هو «بودى أوتاما» (١) وكان من شأن الحنر الذى قوبل به هذا الاتحاد الأرسوقراطى المعتدل فى تلك الأيام أنه لم يروح إلى أحد أنه فى ١٩١٢ ستأسس «شركة إسلام» وهى جمعية شعبية كانت قبل ذلك بكثير قد حازت عدداً عظيما من الأتصار حتى فيما وراء حدود جاوه بكثير . سارت شركة إسلام سنوات قليلة معتدلة اعتدالا شديداً أحياناً ومنتطرة أحياناً أخرى وذلك غالباً لاضطراب نظام العالم وتغير كل القيم بين ١٩١٤ ، ١٩١٨ ، وبعد اصطدامات عنيفة مع الحكومة المستعمرة عادت «شركة إسلام» إلى الاعتدال ولكنها فقدت نفوذها فى الشعب لأنه تركها لينضوى تحت لواء جمعيات أقل منها إذعانا .

٦ - وبعد منح الشعب حقوقه السياسية بتأسيس المجلس الوطنى فى ١٩١٦ لم تقدر حكومه هولندة بطبيعة الحال على توجيه حركة التطور الزاحفة ، التى تكتسح كل شىء ، فى الطريق الذى رسمته ، ولم يرض الشعب بالنظام الجديد الذى وضع بعد قايل وألغى أقلية العنصر الأهل فى البرلمان الاستعمارى ، وإن وضع نظام جديد بعد عشر سنين من نظام قبله يدل أكثر مما يدل أى

(١) معنى هذه العبارة فى لغة البلاد الأصلية: الحلقى الفاضل، أو النزعة الفاضلة (المترجم)

شيء آخر على أن حركة الرقي كانت سائرة سيراً سريعاً .
ولا أريد إحصاء الجمعيات التي لعبت أو لا تزال تلعب دوراً في حياة
أندونيسيا السياسية أثناء عشر السنين الأخيرة ، ويكفى أن أذكر أن كلا منها
أكثر حماسة للقومية من صاحبها ، وأن مقاومة هذه الجمعيات لهولندية تبدو في
حرية متزايدة وأن الفرق بين الأندونوسي والهولندي - كما يتميز الأمر عن
الأبيض تمييزاً تاماً - آخذ في الوضوح شيئاً فشيئاً ويرجع بعض ذلك إلى تأثير
الصحف من الجانبين ، هذه الصحف التي تكاد لا تختلف في تعصبها الحاد ، وقد
خف ضغط هولندية قليلاً في ١٩٣٠ . وإن نشاط الحكومة في مكافحة الخطط
الثورية للحزب الوطني الأندونوسي الذي تقدم ذكره في صدد الكلام عن
الاعتقاد بالحاكم العادل ، أدخل اضطراباً في الحركة السياسية الوطنية ، ثم
إن الأزمة الاقتصادية الحاضرة تستنفد معظم جهود الناس . ونظراً
لاضتماد الجمهور اعتماداً عظيماً من الناحية الاقتصادية على السلطات السياسية
والاقتصادية في هولندية فإن الأزمة تجعل أي كفاح سياسي أو اجتماعي
أو اقتصادي من جانب الأهالي للقبض على أئنة السلطان قليل الشأن لارجاه
فيه بجانب سلطان هولندية حتى أن الأمل قليل في أن يواصل الشعب الجاوي
سيره في المستقبل في الطريق الذي بدأ فيه أثناء عشرات السنين الأخيرة ، وبالطبع
لا نستطيع التكهن بشيء عن تغيرات أكثر مما حدث ولكن من الطبيعي أن
تتمكن تلك التغيرات في هذه الأيام المحملة بالنكبات .

٧ - ظلت الحركة القومية في جاوة تنطور في أكثر من عشرين سنة من
حركة تقوم بها طائفة من الشعب إلى حركة شعبية ومن أمنية خير منظمة إلى
قوة منظمة . أما الحركة القومية الشائعة فيما عدا جاوة فلم تنشأ إلا في بعض
الجهات التي تعرضت تعرضاً كافياً لتأثير أوروبا في مدة من الزمان كافية ، واست
أؤكد أن الشعب بمخاوفه معنى بالحركة القومية في البلاد التي فيها مثل هذه

الحركة ، هي تظهر أولاً عند الطبقات العليا ثم تتسرب ببطء إلى الزراع اللاحقين
المحافظين الذين لا يعرفون غير الطاعة ، وقد بدأت طبقة الأغنياء تظهر حثراً
معتزاً ببدأ كلحما تغلغل الحركة في الشعب لأن حرب الطبقات، وهي نتيجة
طبيعية للقومية في هذه الأيام ، ترسل نذيرها أمامها في هذه البلاد أيضاً ،
وستضطّر غداً أرستوقراطية جاوة - كما اضطّر الأمرالحاكون في الهند اليوم -
إلى التفكير فيما إذا كانوا سيؤيدون الحكومة المستعمرة أو سيتضافرون مع
جمهور شعبهم ارتكاباً بالأخف الضررين ، وإلى لبعد أيضاً عن تأكيد أن كل
المشتغلين بالحركات السياسية أو نصف السياسية في أندونيسيا عندهم شعور
سياسي كامل أو أن عندهم فكرة واضحة عن المثل العليا التي تصرح أحزابهم
بالجهد لتحقيقها ، ولا نستطيع توقع هذا إذا نظرنا إلى التغيرات السريعة التي
يكاد لا يصدقها العقل والتي تحدث في القرن العشرين .

ومع ذلك نستطيع أن نرى في نمو نظام الجمعيات السياسية نموّاً
سريعاً علامة على أن العواطف التي كظمت طويلاً تحاول الآن أن تظهر ، ونظراً
لثقله نضوج الجماهير في السياسة كانت الجمعية السياسية مجرد وسيلة تظهر بها هذه الجماهير
إيثارها لجمعية دون أخرى وتفصح بها عن السخط من الموقف الحاضر ، أما
برنامج الجمعية الرسمي فهو بمعنى من المعاني قليل الشأن ونرى هذا في أندونيسيا
أكثر مما نراه في أوروبا ، وليس ضرورياً البتة أن يكون هناك توافق بين
ماتحس به الجماهير وبين برنامج الحزب وغاياته الرسمية ، يؤيد هذا اختلاف
مسلك الزعماء عن مسلك الأعضاء في المسائل الخطيرة التي تثير الاهتمام ومن
أن طوائف كبيرة تنضم لهذا الحزب حيناً ولذاك حيناً آخر أيهما يصادف أن
يكون موافقاً للظروف ، وأستطيع أن أؤكد أن الأحزاب الوطنية هي مجرد
للصورة التي يحاول الجيل الحالي في أندونيسيا أن يعبر بها عما في نفسه من شعور
بالسخط ، ولا نجد ما يؤيد زعمنا أن هذا الشعور نظم حتى صار عقيدة بمبدأ سياسي

معين تملأ نفس صاحبها . ونستطيع تحليل ما نراه من نجاح الشيوعية بأن دعائهم كانوا أقل الناس تحفظاً في الوعد بتحقيق كل الرغبات الممكنة ، على أن تأثر روسيا السوفيتية في ناحية الثقافة ليس حتى الآن دائماً ولا قوى الظهور ، وإن ما حدث منذ عشر سنين من تحالف الشيوعية السوفيتية الاتحادية والقومية الألمانية هو تحالف متكلف غير طبيعي ، وهذا التحالف الذي تربطه بالمسلمين أواصر كثيرة . والذي بدأ يتحلل من الشيوعية الزراعية الألمانية الموجودة الآن ليس قائماً على عقائد الجماهير .

٨ — إن الغاية الحقيقية في الحركات القومية في جمعية ما ليست ناشئة في جل أمرها عن روح التعاون ولكنها تنشأ في الغالب عن انتهاز الفرصة للتعبير من وجوه كثيرة عن شعور التضامن والمظلمة وعن مقاومة السلطان الألماني مقاومة غريزية ، وهذا نفسه يعمل على خلط الأعمال السياسية والاجتماعية والدينية والأعمال الخاصة بفكرة الجامعة الإسلامية والأعمال الدفاعية والثقافية حتى يستحيل أن يبدو كل منها متميزاً تميزاً تاماً . وحالة الجماهير لا تمكنهما من التمييز بين الأشياء حتى أنها لا ترى لها إلا ناحية واحدة مهما تعددت النواحي التي تظهر أمام عين الناظر الذي يقتصر على ظواهر الأمور ، وكل نشاط من الجماهير إنما هو مقاومة وكثيراً ما يكون معارضة لادخال الاضطراب اتساق المجتمع الألماني من الوجهة الاجتماعية والثقافية ، وبما يعنى الباحثين في الإسلام في أوندونيسيا عناية خاصة أن تأثير شعور الوحدة الإسلامية القديم يمكن أن يتجلى أيضاً في حركات كثيرة ، وأظهر ما يكون هذا في حركة شعبية مثل « شركة إسلام » التي زاد عدد أعضائها على مليونين في بعض الأحيان ، وإن تاريخها يبين أنها تكونت من عناصر غير متجانسة وأن هذه العناصر لم تشعر قط بما بينها من اختلاف نعرته من القديم والحديث من المؤلفات في جواهره ، وليس في أوروبا جمعية كانت تستطيع أن تفلح في الاحتفاظ بحياء مضطربة متقلبة

لا طوار مدة عشرين سنة كما فعلت «شركة إسلام» ،

تدفعنا هذه الخاصة في الحركة القومية إلى التغلغل فيها أكثر مما يسمح بذلك
العنوان العام لهذا الكتاب كما يظهر ؛ والحق أنه تاريخها أندمج أشد اندماج
بتاريخ الحركات الدينية المحضة التي تبوأ المكان الأول في العشرين سنة الأخيرة
ولا يزال شعور الوحدة الإسلامية بماله من تأثير عظيم يلعب اليوم — كما
لعب دائما — دورا هاما في وصل الحركات بعضها ببعض .

٩ — والحق أننا لنستطيع نكران أن «شركة إسلام» تمسكت دائما بأصلها
الإسلامي رغم تحالفها أحيانا مع الاشتراكية ثم مع الشيوعية ثم مع أنواع مختلفة
من القومية آخر الأمر ، بعثت على عقد المؤتمرات الإسلامية العامة التي عقدت في جاوه
منذ ١٩٢٢ والتي ترمي إلى تنظيم مسلمي أندونيسيا ليكونوا جامعة إسلامية على مثال
جامعة مسلمي الهند ، واهتمت اهتماما عظيما بالمؤتمرين الدوليين الإسلاميين اللذين
عقد في القاهرة ومكة واللذين حضر فيهما ممثلون أندونيسيون ، وحاولت أن تسمع
العالم كله في مسألة الخلافة وإن كان قد أصابها الغرور فلم تعرف قدر نفوذها في هذه
الناحية ، وأسست في أندونيسيا مجلس العلماء وهو مجلس من الاختصاصيين في المسائل
الإسلامية ونظمت أو حاولت تنظيم المقاومة ضد تدخل الحكومة المستعمرة غير
الإسلامية في المسائل الإسلامية ، وتذكرنا هذه المقاومة بمقاومة الأحزاب المسيحية
للمادة ١٧٧ من دستور الأراضى الواطنة في جزر الهند الشرقية وهي المادة التي تهدد
حرية المبشرين المسيحيين ، وبالاختصار عملت كل ما كان في حدود اختصاصها
وكل ما كان في وسعها عمله محافظة على مصالح الإسلام ولكنها في معظم
الأحوال لم تقن عملها حتى أن النتيجة لم تكن البتة عظيمة الشأن ولا طويلة
البقاء ، كانت غلطتها الكبرى أنها أرادت الاضطلاع بكل شيء في الميادين الدينية
والسياسية والاقتصادية والثقافية ، كانت ترى واجبا عليها أن تستعد لأخذ
نصيبها في الحكم بعد استقلال أندونيسيا فأنشأت مقدما دواوين مختلفة للإدارة

وإذا عرفنا أن « شركة إسلام » لم يكن فيها زعماء أكفاء البتة حكمنا أن هذه الدواوين لم تكن سوى مظاهر جوفاء .

١٠ - وبينما اضطرت « شركة إسلام » في ميدان السياسة أن تترك القيادة لأحزاب سياسية أكثر تطرفاً - كما رأينا - فإن جمعية المحمدية أخرجتها من ميدان الدين إخراجاً تاماً ، وهنا نواصل الكلام في الموضوع الذي تركناه في آخر الفصل السابق . جمعية المحمدية جمعية دينية اجتماعية أسست على مبادئ حديثة في « يوجي أكارتا » (جاوة الوسطى) في ١٩١٢ وأخذت تزحزح « شركة إسلام » من ميدان الدين شيئاً فشيئاً متمتعة في الوقت نفسه بعملته « شركة إسلام » ونجد جمعية المحمدية - بخلاف شركة إسلام - بعيدة عن السياسة فكان نجاحها في ميدانها الضيق أكبر من نجاح شركة إسلام ، وصار لها تأثير عظيم بإنشائها للمدارس وتأسيسها المكاتب وفحصها إياها على المصراعين وبيع الكتب وإنشاء للمستشفيات ومآوى الفقراء وملاجئ الأيتام وبايجاد إدارة لنشر الثقافة الإسلامية والدعاية لها والتصرف في أموال الأوقاف وترجمة كتب إسلامية إلى لغة البلاد وصارت تستطيع ألا تأخذ بنصيب كبير في التوفيق بين الإسلام وبين الظروف الجديدة كما أنها قطعت الطريق على المبشرين المسيحيين من وجوه كثيرة بعد أن اصطنعت وسائلهم . ظهرت حركة المحمدية في وسط جاوة أولاً وقصرت نفسها غالباً على جاوة ورغم أنها أثرت بعض التأثير في حركة التجديد على شاطئ سومطرة الغربي وهي الحركة التي تكلمنا عنها في آخر الفصل السابق فلم تقلح في المزج بين مختلف الحركات هناك رغم اتجاه هذه الحركات إلى غايات واحدة ، زد على ذلك أن عملها في سومطرة أصبح مختلطاً بالسياسة بخلاف سياستها في جاوة .

أخذت حركة الأحمدية تدب في جاوة وسومطرة وتنافس حركة المحمدية ببعض المنافسة في السنوات الأخيرة (١) . وللأحمدية بكلتا شعبتيها أنصار في (١) ليرجع القارئ إلى الفصل السابق ص ١٣٥ ليزداد علماً بحركة الأحمدية (المترجم)

الاندونيسيا درس بعضهم مذهب الاحدية في الهند ، وقد لفتت فرقة لاهور نظر
الاندنوس لأن أحد مبشريها نشط في الدعاية في جاوة منذ سنين واستطاع
المبشر مرزا والى أحمد بيح ، أن يكون طائفة صغيرة رغم أن المحمدية التي
تتفق روحياً مع الاحدية حاربت ونظرت اليه نظرة ارياب وحنقت على منافسة
الاحدية لها ، ألقى هذا المبشر دروساً إسلامية في مدارس حكومية قليلة ،
وأظهر زعماء « شركة إسلام » ، وأعضاء « اتحاد الشبان المسلمين » مودتهم للمرزا
والى وهذا آخر دليل على ميل مسلمى اندونيساميلاً دائماً إلى إغفال الفوارق
من غير تمحيص لها .

أثر التعليم الأوروبى

- ١ - الاشراف الاولون والتعليم الإسلامى ٢ - الرغبة فى الثقافة الغربية
- ٣ - تأثير التعليم الأوروبى فى قلب الأفكار ٤ - وحدة اندونيسيا ككل أعلى .
- ١ - إن الأصلاحات الروحية التى تجرى الآن هى أهم من التغيرات التى كانت
تكيف معالم المجتمع الأهلى فى الخمس وعشرين سنة الأخيرة ، هى أهم وربما كانت
أكثر بعداً فى نتائجها . واتصال اندونيسيا بالأوروبيين اتصالاً مباشراً ظل قليلاً
جداً حتى آخر القرن الماضى وكان قاصراً على عدد قليل من الباحثين وغيرهم
من أولى الشأن من جهة وعلى عدد قليل من الاندنوس الذين نفرتهم الظروف
من ثقافتهم الخاصة من جهة أخرى ، كان التعليم الذى أعطته الحكومة الهولندية
للاندنوس قاصراً على فئة صغيرة من سيكونون فى المستقبل موظفين فى الدواوين ،
أما غير هذه الفئة من الشبان ، فقد تركوا ليتعلموا عن آبائهم أو يكتسبوا تعليمهم
دينياً أو ليظلوا صغراً من كل علم ، كان أهم جزء فى تربية الطفل من أرسطراطية
جاوة تكوين أخلاقه وسبكه فى قالب يجعله عضواً بين أشراف المجتمع ،
وكان يجب أن تنمى فى الناشئ صفات تميزه فى مستقبل حياته عن عامة الشعب

ويجعله سائرياً، (نيلاً) كالشجاعة والفطنة وضبط النفس والخلق النبيلة، وكان يرجى منه فوق هذا أن يلم بأخلاق السلف وعاداتهم وبتقاليد الأسرة. لأن هذه هي الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الأندوسى، فاما الفتاة فكانت على العكس من الفتى، لم تكن في حاجة أن تتعلم أكثر من كيفية القيام بخدمة زوجها على الوجه الاكمل فيما بعد، وتظهرنا الكثير من الكتب الجاوية على خصائص هذا الضرب من التربية الخلقية الاجتماعية، أما التعليم الدينى الاسلامى فكان يقوم فى جوهره على سد حاجات الرجل العادى القليلة لمعرفة الاسلام معرفة نظرية، وكان متأثراً تأثراً عميقاً بالأفكار السحرية السائدة فى الجو الفطرى الذى يعيش فيه مسلموا أندونيسيا، وكان الانجلمو، هو الذى لعب أكبر دور فى نظام التعليم هذا قبل تسرب مذهب أهل السنة من بلاد العرب وظل الانجلمو، يلعب دوراً عظيماً من ذلك العهد. الانجلمو، مقام من الحكمة الكاملة فيه أكثر مما فى كلمة Science (علم) فى لغتنا ومما فى كلمة «علم» فى لغة العرب. ولا يبلغ الانسان ذاك المقام بمحدث ذكائه أو شغفه به دون ما عداهما بل بتربية القابلية العقلية تربية صحيحة وبطاعة الانسان لاستاذة طاعة عمياء وبتلقى رحمة الله، وليس هذا الاخير أقل شأنًا مما قبله.

٢- ورغم أن الناس ما يزالون يظهرون إثارهم للانجلمو، فانه بفعل الظروف أفسح المجال، فى الواقع، أمام الحاجة إلى التعليم الغربى. شعر الاندونوس ببعض هذه الحاجة شعوراً اضطرارياً لاختلاطهم بالاوروبيين وقام بنفوسهم بعضها لانهم أحسوا إحساساً واضحاً بالرغبة فيه لاعتبارات قومية، وأثار هذا الاحساس الهولنديون المتمسكون بسياسة استعمارية تتفق مع قواعد الاخلاق لانهم رأوا أن رفع المستوى الثقافى لأهل البلاد ونشر المدنية الهولندية الغربية بشكل عام من أهم واجبات الحكومة المستعمرة إن لم يكن أهمها جميعاً، ولا فى أنصار هذا التعليم من الاندونوس ومن

الأوروبيين مشقة كبيرة في إخضاع شوكة الذين رأوا التقدم في سياسة استعمارية من الطراز القديم فحسب ، وانتهت عشر السنين الأولى من القرن العشرين بنجاح المبادئ التي نادى بها أنصار السياسة الاستعمارية الخلقية ، ونال أول أندونوسى لقب الدكتوراة في فقه اللغة الاندونوسية قبل الحرب من جامعة ليدن ، واليوم ولم تمض خمس وعشرون سنة على فتح المدارس على الأسلوب الغربى أمام عدد كبير من أبناء أندونيسيا نجد حوالى ١٠٠٠ ٠٠٠ طفل من مختلف الجنسيات الاندونوسية يتلقون التعليم الأولى على الأسلوب الاوروبى ونجد عددا عظيما يتلقى العلم فى المدارس العليا والجامعات فى أندونيسيا وهو لئدة أو يقومون ناشطين بعمل ما بعد اتمامهم دراستهم .

٣ - وأكاد لا أجد مناصا من ذكر المشكلات الاجتماعية والمشكلات الخاصة بعلم الاجتماع ، هذه المشكلات التي بلغت من الطرافة درجة فوق المألوف والتي صارت ملحّة بعد تجربة خمس وعشرين سنة لقن أثناءها الشباب الأندونوسى علم أورربا ، ولا سيما أن هذه المشكلات لها على أى حال علاقة غير مباشرة بمركز الأسلام فى هذه البلاد ولا بد أن أقصر كلامى عماله بالموضوع علاقة مباشرة . إن تطور هواندة التاريخى جعل لمدينتها مميزات خاصة منها شعور عام بالاستقلال ينزع لأن يتقلب كراهية للسلطة وللنظام فى السياسة والدين وفى العادات الاجتماعية على حد سواء ، وفوق هذا تسود نظام التعليم الهولندى نزعة عقلية فردية ، وإذا استثنينا التعليم المسيحى المستقل استرعى نظرنا عدم وجود قاعدة خلقية للتعليم الهولندى ، ولا تلعب الأحزاب المسيحية الدور الأكبر فى نظام التعليم العالى فى المستعمرات ، ولما أنشئت فى أندونيسيا مدارس على الأسلوب الاوروبى لم يكن بد من تعيين كثير من المعلمين الهولنديين الذين كانت خبرتهم بالأحوال الثقافية للشعب الذى شغلوا بين ظهرانيه قليلة جداً ، لأنهم لم يعنوا لهذه المهمة إعداداً خاصاً حتى اضطر الأندونوس من جانبهم إلى

انتجاع الجامعات الهولندية لآ كمال دراسياتهم ، وعلى ذلك سكنت فى عقل الشباب
الاندونوسى الممتاز وقلبه فى أحسن قرات حياتة استعداداً وأفكار وآراء مستمدة
من الخصائص الهولندية والثقافة الهولندية ومختلفة أتم اختلاف عن الأفكار
التي كانت التقاليد تدعو إلى إعتناقها واحترامها فى أندونيسيا، وفى الجملة ففى
حين أن المعلمين الهولنديين كانوا غير قادرين ، بسبب إلتفاتهم لشعب نذ وحدته
الروحية منذ قرون ، على أن يحلوا محل الثقافة القديمة ونظام التعليم القديم
ثقافة جديدة ونظاماً فى التعليم جديداً لها ما لسا بقىهما من القوة الذاتية والتماسك
والملازمة لحال البلاد ، نجد أولئك المعلمين من جهة أخرى ينسفون بقوة ثقافتهم
الغريبة من نفوس الناس اعتقادهم بالعادات القديمة واحترامهم لها ، ومعنى
هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم وأساس الإسلام أيضاً لأنه متصل
بالعقائد الموروثة صلة وثيقة . إن التعليم الأوروبى يعمل على قلب وجهة نظر
الناس قليلاً لا يقف عند حد ، وقوة الضربة التي تعانيتها الثقافة الأهلية كل يوم ،
إنما يحس بها تمام الاحساس الاندونوس الذين هم أكبر سناً ، أما الجيل الجديد
فقد شب بين أحضان النظام الجديد ولم يظهره المعلم الأوروبى على شيء من
من الثقافة الأهلية حتى أن هذا الجيل لا يحس بما بين الثقافتين من
فرق إحساساً قوياً .

إن تغير نزعة الشباب الاندونوسى المستندة لثقافة القديمة ، هذا التغير الذى
يحدث الآن بتأثير التعليم الأوروبى وتأثير البيئة الهولندية يشبه ما حدث عند
الشباب المصرى منذ نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن كإرأينا ، ومسلك الشباب
الاندونوسى أزاء التعليم الغربى يسير على مثال ما سار فى مصر ، يظهر الشباب
عداءه للعقيدة الغريبة من وجوه شتى ولكنه لا يستطيع فى الوقت نفسه أن يستغنى
عن الثقافة الغريبة والوسائل الغريبة ، ويحاول إتخاذها وسيلة تبلغه الغرض
الذى وضعه لنفسه ، هو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم هذا منقطع من

وجوه كثيرة بسبب ثقافته الغربية عن جمهور الأمة التي ولد فيها، ومن جهة أخرى فان شباب أندونيسيا إنما اضطروا اضطراراً إلى ملاحظة وحدة الجنس الظاهرة بعض الظهور بين معظم شعوب أرخبيل الملايو وملاحظة اشتراكها في اللغة والثقافة، اضطرة إلى هذا اختلاط الشبان من كل جزائر أندونيسيا من أهل مجاوة وساندا ومادورا وبالي وأمبون ومينادو وأجه ومناجكابو وبتاك وغيرها، هؤلاء الشبان الذين يتصل بعضهم ببعض في الكلية أو في الجامعة .

٤ - وإذن فهناك قومية أندونيسية تعمل للوحدة ، تنمو بين الطلبة وتم في خصائصها الكبرى عن أصلها الأوروبي وعن نزعة زعمائها نزعة أوروبية . فتتظيم هذه القومية صفوفها في هولندا لم يكن البتة من الأمور الاتفاقية ، ومن أغراض بيرهمبونان أندونيسيا ، (١) أن تجمع كل الحركات القومية المحلية تحت لواء واحد يفضل قوتها الذاتية وبمعوة الجمعيات القائمة في أندونيسيا ، ولا شك أن هذه المحاولة سائرة في طريق النجاح فرغم أن الحزب الوطني الاندونيسي الذي يتصل بأوثق صلة ببيرهمبونان ، أندونيسيا قد حل بعد اصطدامه مع الحكومة في ١٩٣٠ ، نجد جمعيات الشباب المختلفة تسير في حماسة شديدة وفق الحكمة القائلة : « الوحدة فوق كل شيء » حتى لقد اختفت منذ أول يناير ١٩٣١ كل جمعيات الشبان المحلية وأفتت نفسها في جمعية شبان جامعة هي «أندونيسيا مودا» (٢) ، وهنا أيضاً تبين صحة الحكمة القائلة بأن الفكرة التي تحتتمر في نفوس الشباب هي التي سيكون لها الأمر في المستقبل

(١) جمعية أندونيسيا (٢) «أندونيسيا الفتاة» والمترجم

العقبات في سبيل سيادة الاسلام

١ - الشباب والاسلام ٢ - النهضة الجاوية ٣ - حياد جمعية أندونيسيا ٤ - اتحاد الشبان المسلمين ٥ - قوته الداخلية ٦ - المبشرون المسيحيون كعامل في التطور الحديث .

١ - لسكثير من صغار الشبان المثقفين منسلك إزما الاسلام يختلف عن منسلك الجيل السابق أتم الاختلاف ، فقد أصبحوا بتأثير التعليم العلماني لا يعبأون بالدين في الجملة ، وإذا احتكوا بالاسلام فكثيراً ما يميلون لقبول سلطان العلم ، والعلم ، بما في طبيعته من روح النقد ومن عدم اختصاصه بجماعة ما ، أظهر الاندوس على نقائص الاسلام وكثرة خداعه الديني ومن ثم كان تمسكهم ببعض التقاليد الاسلامية لا يعدو كثيراً مجرد عادات باقية (١) .

٢ - وهناك عامل له شأن عند الجيل الناشئ في جاوة . وجدت بعض التقاليد الهندوكية الجاوية القديمة ما يؤيدها من نتائج البحث العلمي الأوروبي ، وتكوين تاريخ امبراطورية ماجاباهت ، أحيا لهم مجداً قديماً يفخرون به ، وإن غلوا أحياناً في تقدير ذلك المجد ، واتخذ الشبان الجاويون مثلاً علياً في

(١) تعمل السياسة الاستعمارية الأوروبية في كل بلاد الاسلام على قطع صلة شعوب الاسلام بماضيها ولا سيما الديني ، فلا جرم يشب الجيل الناشئ في أندونيسيا جاهلاً بأصول الاسلام وأنظمتها . وليس بين روح العلم الصحيح وبين روح الاسلام تناقض ، ليس في الاسلام عقائد عمياء غير ممحصّة ، جاء في القرآن : « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، وهذا من ناحية النقد العلمي . أما عن عالمية العلم ففي الحديث : « تعلموا العلم ولو بالصين » ، وحذ الحكمة ولو كانت من كافر ، وإن ما في القرآن من حث على التبصر في الكون وأسراره وحث على التمحيص في المعرفة باب واسع أثرت مجرد دلفت نظر القاري له ، والاسلام بناحيته النظرية والعلمية وبما فيها من تمحيص ووضوح بعيد عن مخادعة معتقيه (٢) في اللغة الأصلية معناها بستان التلاميذ (الترجم)

البطولة من شخصيات التاريخ الغابر العظيمة كالملك «إر لانجا» والملك «أيام وروك»
 «ود جاجامادا»، الوزير الـ «كبر لا مبراطورية» «اجا باهت»، الذين بعثهم علماء
 الآثار وعلماء اللغات من ثرى التاريخ بعد أن كادوا يصبحون نسياً منسياً ،
 ومن الواضح أن مقارنة مجد العصر الهندوكى الجاوى بمجد العصر الإسلامى
 هى مقارنة باخسة للطرف الثانى لأنهم مؤدية حتماً لرفع شأن الهندوكية على حساب
 الإسلام ، ولكن هذا ليس ناشئاً البتة عن كنهه الديانتين ومزايا كل منهما أو عن
 نسبة قوة إحداهما الداخلية لقوة الأخرى ، فلا عجب إذن أن نرى حزب
 «بودى أوتاما» وهو الجمعية السياسية الارستوقراطية فى جاوة الوسطى تكتب
 على علمها الحياد إزاء مختلف الأديان ، ولا عجب أن نجد مدارس «تامان
 مسوا» (١) التى أنشأها «كى أجارديو اتارا» تلقن الطلبة إثارة المدنية الجاوية
 القديمة أعنى المدنية الهندوكية الجاوية على الإسلام ، أنشئت هذه المدارس أولاً
 فى الأمارات الوطنية وهى محاولة نادرة تستلفت النظر للقبض على ناصية التعليم ،
 وأخيراً فلا عجب أن تفلح الصوفية بما فيها من نزعة هندوكية قوية فى تثبيت قدمها
 إلى حد ما فى جاوة الوسطى ، ونظراً لكثرة طلبة جاوة الوسطى بين طلبة الجامعات
 تسربت هذه الأفكار المناصرة للهندوكية الجاوية إلى جميات الطلبة أيضاً وأثرت
 فى شعورهم بالجامعة الاندونسية التى يمثلونها .

٣ — وعلى الذين ينادون بوحدة إندونيسيا أن يضعوا هذه التيارات فى
 موضع الاعتبار كما لابد لهم من مواجهة أمر هو أن بعض القبائل الاندونسية
 التى تنجب عدداً كبيراً من المثقفين كقبائل ميتاهاسا وأمبون وباتاك قد
 ارتدت أغلبها إلى المسيحية ، على حين أن قبائل جزيرة بالى لا يزالون يعتنقون
 الهندوكية بعد تكييفها بما يلائم ظروفهم ، وأن قبائل أخرى لا تزال على الوثنية ،
 هذه الظروف نفسها ومعها النزعة العقلية التى أدت إلى بقاء التمسك الشكلى
 بالإسلام بين المثقفين فى مصر مثلاً ، أدت بالمثل فى أندونيسيا إلى أن يعلن المثقفون

حيادهم في الأمور الدينية كما أكد ذلك أخيراً رئيس حزب «جمعية أندونيسيا» في اجتماع الطلبة الهولنديين في لندن تأكيداً شديداً. وعلى هذا فإن الحركة الناشئة التي ترمي إلى وحدة إندونيسيا تقف رسمياً بمنأى عن كفاح المسلمين في سبيل الوحدة كما يدل على ذلك برنامجها الرسمي، ورغم أن هذه الحركة الأخيرة جزء من حركة الجامعة الإسلامية فمادامت تعمل بالفعل على توحيد الأندونيسيين فإن مصالح حركة الوحدة الأندونيسية والوحدة الإسلامية تسير متقارنة إلى حد ما، وهذا يؤدي إلى أن تعطف كل منهما على الأخرى عطفاً عظيماً، أضف إلى هذا أن الإسلام يطالب بأن يكون الدين الرسمي لامبراطورية أندونيسيا الجديدة التي ستحقق قريباً كما هو المأمول، ويرى كثير من المسلمين المخلصين أنه يستحيل قبول هذا المطلب لما سينشأ من نزاع داخلي يحدهه هذا المركز الممتاز.

٤ — ومن جهة أخرى فربما لاحظ القارئ بما سبق بعض الفرق بين الجيل الناشئ في «جمعية أندونيسيا» التي تكونت في هولندا وبين الجيل الناشئ في أندونيسيا ذاتها، وكان من نتائج اتساع دائرة التعليم الأوروبي عدم إمكان بقاء الفكرة الأولى التي تقصر ذلك التعليم على أبناء طبقات البلاد العليا، وكان من نتائج فتح المناطق النائية من جزر الهند الهولندية أمام التعليم الأوروبي بين ١٨٩٠، ١٩١٠ أن صار ذلك التعليم ينزع نزعة ديمقراطية تسترعي النظر، ذلك أنه ليس في أي مكان من أندونيسيا فروق طائفية دقيقة كالتى في جاوة، وفي المدارس العليا تزداد نسبة الطلبة من الأسر المتواضعة التي للإسلام فيها سلطان أقوى مما له في الطبقات العليا من المجتمع، ورغم أن شبان هذه الأسر يشعرون أيضاً بالقوة التي تسوقهم نحو حركة الجامعة الأندونيسية القومية فلا يزالون يحبون بتأثير يتقهم أن يتمسكوا بدين آبائهم ولكن على صورة متجددة ومثلهم الأعلى هو التوفيق بين الإسلام وبين الحياة الحديثة كما في مصر، وحاولوا إدخال هذا المثل الأعلى إلى جمعيات العشب المختلفة التي أنشئت قبل أول يناير ١٩٣١

فأرادوا أن يضيفوا إلى وحدة اللغة والثقافة والامة وحدة الدين أيضا ، ولما أخفقوا في حمل جمعيات الشبان كلها على قبول مطلبهم المتطرف وأعلنت الاغلبية حيادها في أمور الدين بتأسيس «حزب أندونيسيا الفتاة» ليمثل الوحدة الاندونيسية الجامعة امتنعوا عن التعاون معهم وانفصلوا عنهم في «اتحاد الشبان المسلمين» الخاص بهم .

هـ — وهل نستطيع أن نرى في رغبة هذه الفئة في الوقوف جانبا برهانا على قوة داخلية وثبات على الرأي يشبهان ما نلاحظه في جمعيات الشبان الدينية الحديثة في أوروبا ؟ لعل من عدم نضوج الرأي ، في هذا الدور الاول من حياة الاتحاد ، أن نستخلص من تلك الرغبة نتائج خاصة بما يمكن من تطورات مقبلة ، والحق أن المسألة هي : هل قوة الاتحاد هي بعض ماورثوه من حجة الاسلام والاعتقاد به دون قيد ولا شرط أم أن تدينهم سيلعب دورا كبيرا يزيد على الحد فيفسد حياة اتحادهم ، هل يدركون أفضلية الاسلام على سائر الأديان إدراكا عميقا يقوم على بعد النظر وعلى التحيص ؟ هل يعرفون حاجات الاسلام ومطالبه ، وهل يحبونه إلى حد الهيام ؟ وأنى لهم ما يعشهم على أن يجعلوه قوة روحية فعالة في قلوبهم وأن يوصلوا إسعاده إلى غيرهم كما هو الحال عند كثير من المسيحيين ذوى العقائد المختلفة ؟ أعتقد أن الناقد النزيه الذي يعطف على الاسلام عطفًا تاما سيميل للأجابة بالسلب على هذه الأسئلة ولكن يجب أن نتخذ التحفظ اللازم حينما يجيب أحد على سؤال يمس الحياة الروحية والاحساسات الداخلية للجماعة لا ينتمى هو نفسه إليها ، ونستطيع أن نعرف صحة هذه الأجابة السلبية بعد أن نرى دفاعهم عن الاسلام ذلك الدفاع الذي ينم عن عقل ضيق الافق ويظهر في صورة محاولة لاثبات أن الغرب ليس ألبتة أفضل من الشرق وأن المسيحية ليست ألبتة أفضل من الاسلام ، وحينما يحكمون على المسيحية بصورة «كاريكاتورية» للمحدوفينسون للامة المسيحية كل أخطاها لتوسع الامبراطورى

الأوروبي والراسمالية — وهما الناحيتان اللتان رأى الاشتراكيون وضعهما معا تعزيزاً لمبادئهم — فواضح أنهم عيال على أسلافهم الأوروبيين في تقديمهم وأنهم يعوزهم التمحيص والنقد المبكر، وإذا اعترفوا في إعلان مبادئهم بالتسامح جبال الديانات الأخرى — هذا التسامح الذي هو غريب عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية إلا في دائرة محدودة ضيقة وإلا إذا كان الباعث عليه هو حب الإنسانية — فواضح أنهم يتلاميذ الأحرار الغربيين، ولا يفتنون إلى أن التسامح سرعان ما يصير علامة على التدهور بمجرد سريانه إلى الجماهير التي تميل عادة إلى عدم الاكتراث بالمبادئ، هم في مثل هذه الأحوال يدلون على أنهم يرجعون عشر سنين وراء أوروبا حيث أدى التسامح المسرف إلى وضع الحضارة على شفا الجرف وحيث ينذل الآن في دول عديدة جهد منظم نشيط وإن كان لا يسمح بمعارضة لأصلاح ما نشأ من نتائج المبدأ القاتل: وبقدر ما هناك من رؤوس هناك آراء (١) وما دام إصرار الشبان المسلمين على آرائهم وتمحيصهم لمبادئهم لا يسموان عن مستواهما الحالي — مع استثناء القليل — فستظل القيمة الذاتية للجمعية صغيرة كما سيكون الأساس الذي شيدت عليه مزعزعا، وأحسب أنه لن يتضح لنا عما إذا كان اتحاد الشبان له حقاً قوة على أخذ قسطه من مقاومة العاصفة الهائلة التي توزع دعائم العالم الإسلامي وعلى التغلب على الأزمة الروحية التي تعاني شعوب الإسلام آلامها إلا بعد أن تترتب فيه روح النقد إما بنشاط هؤلاء الشبان الخاص أو بتأثير متزايد للتعليم الأوروبي.

٦ — فصل الآن إلى البحث في العامل الأخير في حركة التقدم الحاضرة

(١) هو مثل لاتيني: quot capita tot sensus ولعل الكاتب يشير إلى ما نشأ في أوروبا حديثاً من أنواع الفاشزم، وضروب الأحزاب التي تريد حمل الأمة كلها على رأى واحد وتسحق كل معارضة، وما حدث في ألمانيا في يونيو ويولييه ١٩٣٤ أكبر دليل على ما يقول الكاتب (المترجم).

وهو المبشرون المسيحيون في اندونيسيا . بعد أن ثبتت أقدامهم في القرنين السادس والسابع عشر في «أمبون» و«ميناهاسا» لم تظهر لهم إلا ثمرة قليلة في القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر ولكنهم من ذلك الوقت أبدوا نشاطا عظيما وأحرزوا نجاحا كبيرا في مناطق كثيرة ولكن هذه المناطق من أقل جزر الملايو خطرا ، أما في أهم نواحي اندونيسيا من الناحيتين السياسية والثقافية فانهم واجهوا مقاومة يتضافر فيها الإسلام والقومية ، ولا حاجة لاحد من عنوا بدراسة الكفاح بين الإسلام والمسيحية في جهات العالم الأخرى أن نخبره أن في اندونيسيا أيضا يجادل المبشرون المسيحيون من الإسلام منافسا خطرا وخصما ، وأنهم لم يحرزوا إلا قليلا من النجاح ، ويجب أن نضع إزاءه الخسائر التي عانتها المسيحية بسبب انتشار الإسلام بسرعة أكثر منها . وتضافر كل من الإسلام والقومية التي تنزع إلى الجامعة الاندونيسية معا في وجه المسيحية ، هذا التضافر يحتاج لشيء من الايضاح . الحق أن الاندونوس كثيرا ما يعدون المبشرين عاملا ثقافيا متصلا بأوروبا لا ينفك عنها . وفي هذه الحالة لا ينفك عن هولندية . ويعتبرون أن انتصارهم معناه اتباع البلاد التي يتصرفون فيها إتباعا سياسيا تاما للبلاد التي ينتمون إليها .

هذا الرأي الشائع ، رغم أنه غير صحيح على إطلاقه . الآن على الأقل - نستطيع أن ندين الأساس الذي يقوم عليه ، يرى الفلاح الاندونوسي الساذج أن الوطن والدين شيء واحد ، ومن السخف الذي لاحد له في رأيه أن يكون في الدولة خمس ديانات أو ست ، هو يعد المسيحية دين هولندية ولا يرى الفرق بين الكاثوليك والبروتستانت - إذا فرضنا أنه يعرف هذه الأسماء - أكثر من فرق في «المذهب» أو «الطريقة» ، على أن من الحق بين الهولنديين - كما هو حق بين الاندونوسيين - أن فيهم «الأحمر» و«الابيض» (المقصرون في الدين والمتمسكون به) وأن السواد - بالطبع - ألوان متنوعة من الأحمر ،

ويحتمل جداً أن يكون الذي أدى فريضة الحج وأوتى حكمة في تصريف
أموره الدنيوية أكثر دراية بهذا ولكنه راسخ القدم في معرقة الأساليب
الماكرة التي تجري عليها حكومة هولنده ، وهو يعرف كيف يحذر أبناء وطنه من
الخطر المسيحي حينما يرجع إلى أندونيسيا . والمتطرف من أنصار القومية يرى
من البديهي وجوب رفض كل ما أتى به الغرب ، وإنه ليحس بلذة باطنية
لا يستطيع إخفاءها حين يردد الإشارة إلى الفرق بين مبادئ المسيحية وبين
سلوك الأمم التي تزعم أنها مسيحية ، أما المعتدل منهم فقد لا يدعى المسيحية من
الوجهة النظرية عداء ظاهراً ولكن لا يحتمل أن يعطف عليها عطفاً شديداً في
وقت تعتبر فيه الردة إلى المسيحية عند كثير من أبناء وطنه نبذاً لدين السلف بل
خيانة لقضية الوطن ، ولهذا نجد وفاقاً بين جمعية تغلب على تلميذها النزعة
السياسية مثل « شركة إسلام » التي كان للخوف من التنصير الإلجباري نصيب
في نموها وبين جمعيات كالمحمدية واتحاد الشبان المسلمين فيما يختص بمقاومة
المبشرين المسيحيين ، كما نجد أن مقاومة هذه الجمعيات للمبشرين لا يلفظها التسامح
الذي يذكرونه في إعلانهم مبادئهم .

ولاحاجة بي أن أبين هنا الخطأ الذي تقوم عليه الآراء والأفكار التي
يقبلها خصوم المبشرين ولكن لا بد أن أضعها موضع النظر ؛ ونحن وإن صدقنا
دون قيد ولا شرط ما يقوله الثقات أمثال « أدرياني » و « كريمر » عن المبشرين
المسيحيين وعن أحوال الأهالي وأخلاقهم وعاداتهم وآرائهم حينما يقولون
إن تأثير المبشرين أقوى بكثير مما يبدو من مجرد عدد المرتدين إلى المسيحية
فيجب علينا أن نلاحظ أن هذا التأثير - حينما كان له نتائج ظاهرة ملموسة - أفاد
خصوم المبشرين بقدر ما أفادهم أنفسهم ، ويحضرني هنا مثلاً ذكر المقاومة التي
أثارها نشاطهم في جمعية المحمدية هذه المقاومة التي عملت كثيراً على تقدم هذه
الجمعية الأهلية ويحضرني أيضاً ذكر مدارس التبشير بتلاميذها الكثيرين
ونسبة المرتدين القليلة بينهم .

وإذا نظرنا إلى إخفاق المبشرين نظرة لا تنقيد بأي اعتبار وجدناه بالطبع .
شاهداً على نجاحهم ولكنه يجعل للمسيحية مركزاً غير مستقر بين التيارات التي
تعمل للتحكم في مجرى الحوادث ، وربما تكون المسيحية أقوى ويكون تأثيرها
أكبر لو لم تضطر إلى التغلب على مقاومة أنصارها الاسمين الذين يعتقدون بإمكان
الجمع بين الاعتراف بالمسيحية اعتراف قاطعاً وبين المجاهرة بما يعتقدون من أفضلية
الجنس الأبيض على أهل البلاد ، وعلى مقاومة من يسعون إلى إقناع الحكومة
الهولندية بأن تظاهر المبشرين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة رغم اتخاذها من
أول الأمر خطة الحياد في الأمور الدينية واحتفاظها ثلاثة قرون بوجهة نظر
محض عليها بعدم الاشتغال بأخلاق وعادات أهل البلاد إلا فيما يظهر أن
له ضرورة شديدة .

أما إن المبشرين سيفوزون أم لا في مستقبل كفاحهم مع الإسلام ، خصمهم
الروحي الخطير حتى الآن ، فهو بعد كل شيء — إذ لم تتدارك المبشرين رحمة
ربهم — رهين استقرار سلطان هولندي في أندونيسيا يشبه تماماً سلطان الحكومة
الجايزة . وفي زوال سلطان هولنده زوال أكبر عقبة أمام المبشرين وهي
العقبة السياسية وإن كان أحد لا يجرؤ على القول بأن نجاحهم يكون بذلك
مضموناً ، وأكثر ما يمكن قوله هو أن الفرصة المثيرة أمامهم للعمل ضد الإسلام
في المستقبل أحسن في أندونيسيا منها في كثير من البلاد الأخرى من ديار الإسلام ،
إذا نظرنا إلى خصائص الإسلام في أندونيسيا ، ولنسأل الآن عن وجهة الإسلام .
لا شك في أن هناك قوى هادمة تعمل في بناء الإسلام في كل أنحاء
العالم ، وينبغي ألا نبخس هذه القوى ما لها من خطر ، إن النزعة التي
تصيح كل شيء بصيغة الدين والتي امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى
جعلته مدة تزيد على اثني عشر قرناً دينا متمكناً في امبراطوريات انمحت فيها
القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها . لقد حاز الإسلام

كما بين «ستوك هورجروني» في خطاب له في ١٩٢٢ عن : «الاسلام» ومشكلة الاجناس، فضلاً لاسبيل لاثكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الامم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسلم ممن يعتنق ديناً آخر ويتبع فكرة أخرى في الحياة، ثم إن نزعة التوسع الامبراطوري الاوروبي هذا التوسع الذي نبذ فكرة العصور الوسطى عن الدولة المصطنعة بصبغة نصف دينية وحاول اللجوء الى القومية الفردية وذلك بعد كفاحه العظيم مع الاسلام أيام الحروب الصليبية بزمن قليل وبسبب ذلك الكفاح من وجوه كثيرة هذا التوسع نفسه أحدث أول الامر بين أوروبا والعالم الاسلامي انفصالا روحياً صار لا بد من إزالته فيما بعد بسبب حاجة أوروبا إلى التوسع ولم تكن إزالته مستطاعة إلا بإدخال العالم الاسلامي تحت تأثير أوروبا، ثم إن أفكاراً أوروبية مخالفة في جوهرها للأفكار التي كانت سائدة قبل ذلك وجدت لها مكاناً خفياً في مراكز العالم الاسلامي ونبتت في زعماء المسلمين، وأحدثت عملية انحلال انتهت في ميدان السياسة بتكوين ممالك صغرى مشربة بالروح الأوروبية تعترف بالاسلام ديناً لها بل تعترف في بعض الاحيان أنه أكبر الأديان شأنه ولكنها لا تزيد على ذلك، وأصبحت الأمة الإسلامية التي تنسأ على القوميات على وشك التمزق إلى قوميات تعز بقوميتها، ولا بد لأفراد هذه الأمة أن يفصحوا عما سيؤثرونه في المستقبل : الاسلام أم القومية، وهناك علامات تدل أنهم سيؤثرون الطرف الثاني في المستقبل القريب، ذلك أن الخلافة وهي رمز الوحدة الإسلامية - وإن كانت في بعض الاحيان غير جدية بذلك - قد ألغيت وأن الاسلام فوق ما يعوزه من سلطان رجال الدين تعوزه أيضاً الصحف الدولية التي تشبه الصحف الكاثوليكية والصحف التي تعمل البروتستانتية على إنشائها في بعض الجهات، وليس في العالم الاسلامي إدارة مركزية، ليس هناك هيئة تفكر في مطالب المسلمين تفكيراً منظماً، أما المحاولات التي عملت في

السنوات الأخيرة القليلة لا يجد وسيلة تبحث في شئون المسلمين
بحسباً منظماً فربما تسير إلى الفشل في المستقبل القريب على الأقل
لأن الدول الإسلامية الناشئة حديثاً التي قامت على أسس علماني لم تخبر
حتى الآن القومية الأوروبية السياسية ولم تعرفها معرفة عملية تمكنها من رؤية
جانبا المظلم والآن فالتعليم على الأسلوب الأوروبي الجديد - وهو غريب
عن روح الإسلام غرابته عن روح المسيحية - يضع وهو صامت بذور
التحلال أكثر مما حدث .

هناك بعض الدلائل على تهقر العالم الإسلامي ، ونرى أوروبا من جانبا
تعاين أزمة روحية ، وليست أزمته عارضا موقتا البتة بل هي بعد كل شيء نتيجة
حتمية لفعل الفردية المسرفة التي سادت تطور أوروبا منذ تفورها من العالم
الإسلامي بعد الحروب الصليبية ، وربما تؤدي هذه الأزمة الروحية إلى إزالة
أعظم خطر يهدد العالم الإسلامي الآن وهو رغبة أوروبا في التوسع رغبة مطلقة
العنان تقوم على التوسع الإمبراطوري في ميدان السياسة وعلى النظام الرأسمالي في
ميدان الاقتصاد وعلى الفردية التي تتجاهل مصلحة المجموع في ميدان الثقافة ،
وربما ينتهي هذا أخيراً بتقليل سرعة تهقر الإسلام وفوق ذلك فإن توسع أوروبا
من جهة أخرى يثير في أوروبا وفي خارجها معارضة لحركة هذا التوسع
ولوسائله وللآراء الفلسفية التي هي السبب في أزمته الروحية ويميل فريق
ولاسيما بين المثقفين الذين عرفوا روح مدينة الغرب أحسن معرفة إلى
الاحتجاج عن قبولها - واعين أو غير واعين - ويميلون إلى محاربتها ، ومن ثم
فربما تنشأ بين الشعوب الشرقية قوى جديدة تعمل على إيقاف التهقر الحالي
في الإسلام بل على تحويله تقدما إلى الأمام إذا ظلت أوروبا سائرة في السبيل
الذي تسلكه الآن . ومن يستطيع أن ينكر إمكان مثل هذا التقدم إلى الأمام
على الأقل بعد أن تضرب له حركات كالأحادية مثلاً على ذلك بما لها من قوى

خلفية شديدة وشعور ديني عميق لامرأه فيه ، وبعد أن يرى أنها استطاعت إحداث بعض التأثير في بلاد كانت تعد أقصى حدود « دار الإسلام » ؟ .

ماذا سيكون موقفنا من الإسلام ومن كفاحه مع المضلات التي نشأت عن تسرب المبادئ المألوفة والسياسية والاقتصادية والثقافية إلى المسلمين ؟ وكيف سنقف إزاء ما ينتظر من تدهور الإسلام أو نهوضه ؟ وأي قيمة سنجعل للظواهر التي تشخص أماننا أثناء بحثنا ؟ كل ذلك يتوقف توقفا كبيرا على ما اخترنا لأنفسنا من وجهة نظر نسير عليها في حياتنا دون غيرها من الوجهات الكثيرة الموجودة ، ولعل من الخير الآن أن نزن الحقائق بميزان نزيه ، ومن واجب الباحث في الإسلام بحثا علميا أن يزيل من نفسه كل ما يعرقل الحكم النزيه وأن يعمل كل ما يعينه على إيجاد هذا الحكم ، وليس في حدود مهمتي أن أؤكد رأيي الخاص ، ولذلك فلن أقول هنا أكثر من هذا : ربما يكون من الطبيعي أن تصبح الفروق بين الإسلام والمسيحية أقل ظهورا - حتى من غير أن تنازل إحدى الديانتين عن خصائصها - كلما زاد عدد من يرى الهوة السحيقة التي تفصل بين هاتين الديانتين من جهة بما فيهما من تسليم وتضامن ومثل أعلى واحد واتجاه إلى الله - الأعظم وبين اللادينية الحديثة من جهة أخرى بما فيها من فردية ومن روح الشك وبشعارها : « الثروة والتقدم والرقى الدنيوى » .

ونلاحظ في اندونيسيا بالضرورة كل المظاهر والكفاح والتطورات الممكنة في المستقبل التي نلاحظها في سائر العالم الإسلامي رغم الفارق في الظروف المحلية والتطور التاريخي ، وروح التجديد في هذه البلاد المستعمرة وحركة الجامعة الاندونيسية القومية والتعليم على الطراز الأوروبي كل هذه تعمل ضد الإسلام وربما يضاف إلى هذه العوامل في المستقبل نشوء طائفة من العمال المنحطين قد تنشأ عن إزدحام السكان المتزايد ، وذلك إذا نظرنا إلى التجربة

التي وصلت اليها أوروبا وهي أن البؤساء المنبوذين في هذه الدنيا كثيراً ما تكون عاطفتهم الدينية ميتة . أما من جانب الإسلام فهناك عوامل قوية لا تزال تعمل باستمرار تلك هي : شعور الأميين من المسلمين شعوراً قوياً بالوحدة ومعارضة المثقفين منهم للتأثير الأوروبي . أما المبشرون المسيحيون فهم يعملون مع الإسلام ويعوقونه ، هم يعوقونه بسعيهم المستمر لانقاص المسلمين وهم يعملون معه بقدر ظهورهم في مظهر من الاخلاق القوية التي ستقدر على التضافر مع القوى الخلقية الأخرى وعلى تقويتها (١) . ومستقبل الإسلام في اندونيسيا رهين طريق ومدى مقاومة كل من الإسلام والقومية والتعليم الأوروبي والمبشرين المسيحيين صاحبه في المستقبل القريب ، ويتوقف كل من طريقة هذه المقاومة ومداهما توقفاً كبيراً على السياسة الاستعمارية الهولندية ، وفي هولنده كما في سائر أوروبا - قوى كثيرة عاملة ترمى إلى توجيه هذه السياسة في طريق آخر يختلف اختلافاً تاماً عن ذي قبل ، ولكن المستقبل يضم في خباياه ، ما سيكون من قوة تلك العوامل بعضها بالنسبة لبعض والآخر الذي سيحدثه كل منها في الآخر .

(١) لعله يريد أن يقول أن المبشرين يلقنون الناس كثيراً من الفضائل التي يصر عليها الإسلام وبهذا يستطيعون التضافر معه في هذه الناحية . (الترجم)

الفصل السادس

وجهة الاسلام

بقلم الأستاذ هـ. ا. ر. جب

«هل هناك عالم إسلامي؟» وبعبارة أخرى هل الأجناس الرئيسية التي تعتق الإسلام ترتبط معا برابطة مشتركة من الشعور والمصلحة والأفكار ارتباطا ناشئا عن دينهم وخصوصا به؟ إن السؤال جوهري وإلغاؤه يستدعي أجوبة متنوعة.

والذين قرؤوا أربعة الفصول السابقة لن يترددوا في الإجابة عن هذا السؤال، الذي وضعه في هذه العبارة منذ بضع سنين كاتب ذو خبرة إدارية طويلة في آسيا، بأن يقولوا نعم، فرغم كل النزعات الجديدة والآراء التي تسربت من أوروبا إلى المسلمين ورغم الانحلال السياسي وتفاوت الثقافة لا تزال تجمعهم «رابطة واحدة من الشعور والمصلحة والأفكار». هذه فيما يظهر قضية لا ريب فيها كما لا ريب في أن أساس الوحدة يتأخص في اعتناق دين واحد وفي الاشتراك في أصل واحد من الثقافة الدينية.

لكن رب قائل يقول — ويستطيع أن يدعم قوله ببراهين — إن الوحدة الاجتماعية في العالم الإسلامي، إن بقيت للآن فهي في الغالب ذكرى شيء زال منذ زمان قريب. وإن دخول الأفكار الجديدة وما يقترن بها من الأنظمة الجديدة لا يزال من الحداثة والمفاجأة في الهجوم بحيث لم يفلح في أن يصد التعاطف القديم بين معظم معتققي الإسلام أوفى أن يقضى على تأثيره بينهم قضاء مبرما. ولكن ربما يقال إن الأفكار الجديدة هي أقوى العوامل الفعالة

بين شعوب الإسلام وإن المستقبل لها وحدها إلا إذا طرأ عامل ليس في الحسبان وأبطل عملها ، في حين أن الرابطة الدينية القديمة ستضعف ضعفا مطرداً بعد أن تصبح عديمة النفع .

لهذا يجب أن يصاغ السؤال في عبارة أخرى لكي يبلغ صميم المعضلة : هل أواصر الوحدة قوية قوة كافية ؟ أو هل من الميسور تقويتها حتى تصون وحدة المجتمع الإسلامي وتسيطر على نزعة شعوبه وتطورها وحتى تميزهم جماعة لها ثقافتها الخاصة ؟ يجب أولاً أن نحذر من أن يضلنا حصر عبارة السؤال في دائرة ضيقة ، ذلك أن موطن النزاع ليس هو أن روابط الوحدة القديمة ستظل من غير أن يعتريها التغير سواءاً في شكل وحدة المبادئ أم في الخضوع لشرعية واحدة أم في اتخاذ تقاليد ثقافية واحدة ، بل الأمر على عكس ذلك ، وربما تنقلب الصور الظاهرية رأساً على عقب ، وربما تنشأ أنظمة جديدة تتلام مع آراء جديدة عن كنه الحكومة والمجتمع ، وربما تقوى أصول الثقافات في أقاليم مختلفة وربما تختلف يبعث التقاليد القديمة المختلفة أو بتأثير عوامل محلية ، وربما تباين الشعوب في تأكيدها لنواحي مختلفة من العقيدة الدينية ، وربما يختلف معنى الوحدة اختلافاً تاماً عما كان عليه في العصور الوسطى ، ولكن هذه جميعاً أمور ثانوية ، فأمّا الشيء الجوهرى فهو عما إذا كان المسلمون في آرائهم وأنظمتهم ومسلكتهم حيال المشاكل الجديدة وفي تطورهم المادى والروحى الصميم سيكشفون عن نزعة واحدة وسيستقون من منبع واحد وسيسيرون على ضوء الشعور بالواجب الذى يشعرون به جميعاً والغاية التى يطمحون لها جميعاً أو أن اشتداد وطأة الأفكار الجديدة والحاسجات الجديدة سيفرق بينهم على الدوام . وسوف أخيراً فى تحطيم بناء المجتمع الإسلامى .

نقل الآن إتنا لآستطيع أن نجيب اليوم إجابة واضحة لا لبس فيها ، ويحتمل كل الاحتمال ألا تقدر على ذلك حتى بعد زمان طويل ، قرب عامل

جديد ليس في حساباتنا يطرأ على غرة في أى وقت ويغير مجرى الحوادث تغييراً تاماً، والحق أننا يمكن أن نعتبر من المؤكد أن أكثر من عامل كهذا سيطراً على أن الجماعات في تطورها، يندر أن تسلك طريقاً مستقيماً حتى بعد أن تبلغ حالة من الاستقرار النسبي بعد فترة طويلة من التطور في اتجاه واضح، ويحتمل فوق هذا أن يحدث ارتباك وفوضى مفاجئة وانقلاب حينما تزعزع دعائم مجتمع وحينما يتحسس طريقة إلى الأمام لكي ينظم قواه من جديد، ونرى مثلاً مصغراً يبدو أمامنا في حالة تركيا منذ قيام الجمهورية. ومع أنه من التسرع في الحكم الزعم بأن ما وقع في تركيا إرهاب لا سيقع في كل البلاد الإسلامية الأخرى فلانستطيع أن نتكر أن هذه البلاد ربما تكون أيضاً مسرحاً لتطورات ليست في الحسبان. والأسطر القيمة التي كتبها الأستاذ «ماسينيون»، في مقدمة وصفه لتيارات الفكر في المغرب يجب أن تكفي في تحذير أكثر الباحثين ثقة بنفسه كيف تتمد الأرض من تحته وكيف تخدعه المظاهر الخارجية التي ينظر إليها.

وفوق هذا فما من مجتمع يعيش في عزلة تامة ولا سيما في هذه الأيام ذات الحركات العالمية والتي زادت المدنية الغربية فيها لإحكام الصلة بين أجزاء الجنس البشرى، وكما أن تأثير ثقافة أوروبا كان سبب الإزمة الحاضرة في العالم الإسلامي فسيؤثر هذا في تطوره المقبل لا بما سيحدث في المجتمع الأوروبي وحده من تطورات بل سيتأثر بتطور المجتمعات الأخرى كذلك، ولكي نأخذ على سبيل المثال حالة بعينة الوقوع فربما يحدث قبل أن يعد المجتمع الإسلامي نفسه الأعداد الكافية لمواجهة الإزمة، أن يوطد المجتمع الشيوعي الجديد في روسيا سيادته على آسيا الغربية وأن تعيد جماعة هندوكية توطيد مركزها في الهند وأخرى أندونيسية في أقصى الشرق أو قد تصير لواحد من هذه المجتمعات على التعاقب غلبة ثقافة تمكنها من تغيير مجرى التطور في البلاد الإسلامية تغييراً

أساسياً ، ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نعرض هنا لمثل هذه التخمينات ، وكل ما يمكننا عمله هو أن نتناول العالم الاسلامي كما هو متصور أولاً في مدى انتشار الأفكار الغربية الاجتماعية والسياسية التي تسربت اليه بالفعل وفيما لا تتشاور تأثيرها من علامات ثم ننظر بعد ذلك في مسلك الشعوب الاسلامية كل على حدة وفي مسلك العالم الاسلامي في مجلته حيال الضغط الاوروبي ثم نقيم آخر الامر ميزاناً يعين لنا الاتجاه العام الذي يظهر أن المجتمع الاسلامي سائر فيه الآن . وأظهر علامة تميز العالم الاسلامي في هذه العقود الاولى من القرن العشرين ليست هي صيرورته إلى الاخذ بمنازع الغرب ولكن رغبته في ذلك . ومن العسير أن تقع عين الراي على بلد اسلامي واحد يرفض مستحدثات الغرب رفضاً تاماً في كل ميادين الحياة والفكر ، فلم يبق من المسلمين زعيم مثل غاندي يدعو مواطنيه إلى محاربة المدنية « الشيطانية » ، بل الامر على عكس ذلك فرغم كثير من النقد لنواحي المدنية الغربية ورغم تشجيع خطابي بليخ على « المادية » الغربية ، يعلن كل زعيم أن غاية حزبه تنظيم البلاد اقتصادياً وسياسياً على الطراز الاوروبي ، وقد يزيد البعض على هذا أنه لابد أن يراعى فوارق التقاليد والتاريخ مراعاة مناسبة ، غير أن عرف الغرب يقبل معياراً في الواقع ، وحتى أولئك المحافظون الذين يلتمسون القدوة في ماضيهم ويستوحونه التشجيع ويذكرون شواهد من تاريخ الاسلام ليبينوا أن المبادئ والصفات التي ننشدها اليوم توجد فيها لهم من تليد هؤلاء أيضاً يتخبرون - دروا أو لم يدروا - الأمثلة التي توافق وجهة نظر الغرب ويغفلون كل ما يناقضها مناقضة شديدة .

ومهما عظم الاختلاف في مدى الاستغراب بين أقليم وآخر فإن كتاب أربعة الفصول السابقة أبانوا في وضوح أنه موجود فيها جميعاً ، ومن المهم لتحقيق الأغراض التي قصدنا من بحثنا الآن أن نبين الاطوار التي تراكت فيها

تأثيرات الغرب وأن نعين مكانها من بناء المجتمع الاسلامى .
فالطور الاول هو الاخذ بقشور الحياة الغربية ، وكان أصل البلاء هو
اتخاذ العدد والآلات الحربية الأوروبية — التى عمرت حتى الآن فى بعض
البلاد أكثر من قرن — وما اقترن به من النتائج التى أشرنا إليها فى المقدمة ،
وتلا هذا عادة — وإن لم يكن — دائما اتخاذ الملابس الغربية ، وفى بعض البلاد
اتخذت المساكن والآثاث والعادات والأخلاق وصيغ الكلام وكثير من
التفاصيل الأخرى الوثيقة الصلة بالسلوك ، وإن المسافر الذى ينزل فى
الاسكندرية أو بورسعيد ويسافر فى قاطرة فاخرة إلى القاهرة وينزل فى فندق
فى الحى التجارى أو فى طابق حديث أو « فلا » فى الضواحي الآهلة بالسكان
ويجد فى انتظاره كل ملاذ حياة المدن الأوروبية حتى الخيالة و « الجازباند »
والكتابة الكهربائية سيجد نفسه مدفوعا إلى التسليم بدعوى خديوى مصر منذ
أكثر من خمسين سنة أن مصر قد صارت قطعة من أوروبا ، وبالطبع نجد
ظروف الحياة فيما عدا هذه المراكز التى يلتقى فيها الناس من كل جنس أكثر
سداجة وربما يلتبس الشاعر هناك « الطابع الشرقى » الذى تلاحظ من المدن
الكبرى ، ولكنه مهما أوغل فى ذهابه فن الصعب عليه الاقلاص من برائن المدنية
الغربية المترامية التى صارت ترتع كما تشاء فى أقصى مساكن الإنسان وأبعدها
مثلا بفضل آخر عون من أعوانها وهى الآلة ذات الاحتراق الداخلى ، والسيارة
والطائرة ومضخة البترول تبوأ مكانها إلى جانب البندقية حتى فى صحراء
جزيرة العرب وفى وسط الصحراء الكبرى .

وإذا تسامل أحد عن قيمة هذا بالنسبة لموضوع بحثنا قلنا : إن مجرد الأخذ
بقشور مدنية الغرب سواء أكانت تتمثل فى دار « الأوبرا » أو فى ادخار شيخ
القرية « ملقعة وشوكة » من التيكل يصعب أن يدل بذاته على أكثر من رغبة
فى تقليد عادات الغرب والانتفاع بمخترعاته الجديدة ، لاشك أنه يتطلب بعض

الاعتراف بأن الغرب سبق الشرق في هذا المضمار ولكنه لا يدل حتماً على احترام الأفكار الغرب الاجتماعية والسياسية يساوى ذلك لاعتراف فضلنا عن أن نتخذ دليلًا صحيحًا على تشرب الروح التي ينطوى عليها هذا النموذج الذي يحتذونه ولعل فهم النموذج فهمًا صحيحًا يقل كلما كان التقليد طبق الأصل ، ومهما يكن من شيء فإن هذا التقليد لا يحمل في ثيابه ذلك المعنى الذي قرنه به علماء المسلمين المتمسكين بالقديم وهو إضعافه للتعليق بأهذاب الإسلام ، ولا شك أن ما له معناه أن هناك ظاهرة خارجية واحدة رفضها الناس جميعاً حتى في البلاد الإسلامية التي لها أطول تاريخ من الاستغراب معلنين في صراحة أنهم يرفضونها لأسباب دينية ، تلك الظاهرة هي القبعة ، ومهما أبست الأطراف فإن الرأس ظل مسلماً وحتى في تركيا سخط الناس على ما أرغموا عليه من لبس القبعة الأوروبية أكثر مما سخطوا من أى إجراء آخر اتخذته الحكومة الجمهورية ولم يذعنوا لهذا الأمر إلا لما بعثه فيهم من خوف . أما في الأفغان فإن إرغام الناس على لبس القبعة كان آخر أمر تافه كلف المصلح الطائش ما كان له من عرش .

وحينما ذهب الأخذ بظواهر المدنية الغربية إلى مدى بعيد كما يشاهد في القاهرة بدأ الطور الثاني من أطوار الاستغراب ليس هو مجرد التقليد بل هو تكيف مظاهر المدنية الغربية بما يلائم الحياة الشرقية ، ويكون التأثير هنا عميقاً بما يتناسب مع تعدد النواحي التي يشملها ويمس حياة جمهور الشعب مسافراً غاية القرب ، وإن أهمية التغيرات الاقتصادية التي حدثت في كل إقليم نالت حظها من العناية في كثير من الفصول السابقة فلا حاجة لذكر أثرها في كل إقليم مرة أخرى ولكن إذا ضربنا الآن صفحاً عن الآثار السياسية والاقتصادية التي أحدثتها هذه الحركات بقيت عندنا الناحية الاجتماعية الهامة التي يوشك ألا تكون قد نالت حظها من العناية . إن نمو الصناعة تحت الإشراف الأوروبي ونمو المدن القديمة المسورة حتى صارت مجتمعات متحضرة (في القاهرة أكثر من مليون نسمة وفي الإسكندرية ما يقرب من ستمائة ألف وفي

بغداد والجزائر ٢٥٠٠ ر ٢٥٠ ونحوى مدن شمال الهند وجاوة أيضا نسبة كبيرة من المسلمين) أبرزنا إلى عالم الوجود جيلا حضريا يتكون غالبا من الأجرام يخالف ما كان في نقابات الصناع وأصحاب المهن في مدن القرون الوسطى ، وإدخال الآلات والنقل الميكانيكى يوجدان أيضا في البلاد الإسلامية نوعا من العمال يشبه النوع الذى أوجداه في أوروبا وهو نوع سريع فى حركة فكره ويده ، يقظ لا يهدأ ، سهل التهييج لم ترسخ جذوره فى المجتمع ، ينزع إلى عدم الاكتراث بالعادات والأوضاع القديمة الدينية والاجتماعية ، وتلاحظ هذه النتائج — بخلاف مظاهر المدنية الغربية الأخرى — فى بلاد المغرب خاصة لأن النزعات الناشئة عن حركة العمال الأفريقيين إلى فرنسا — وهى الحركة التى وصفها الأستاذ ماسينيون — تعززت فيها بما نشأ عن التجنيد الإلجبارى فى الجيش .

وإلى جانب هذه الطبقة الدنيا من عمال المدن نرى فى كثير من البلاد ولا سيما مصر وجاوة طبقة مثما من العمال الزراعيين نشأت عن استعمال الوسائل الفنية الأوروبية فى الري والزراعة ، وأن تغير رى الحياض الذى كان يؤتى محصولا واحداً فى العام إلى رى دائم يسمح بثلاثة محاصيل فى السنة ثم إدخال القطن والمحاصيل الأخرى عملا على إثراء ملاك الأرض وإفقار الزراع حتى نزلوا إلى مستوى الأجرام ، والاشقة الاجتماعية بين مالك الأرض (الذى كثيراً ما يكون بعيداً عن أرضه) وبين الزراع أعظم بكثير مما كانت عليه منذ قرن وإن لم يحز أن نبالغ فى ذلك ، وقد ذكر الأستاذ وهرج ، تطورا كهذا فى جاوة فى العلاقات بين الزراع ، والأرستوقراطية ، الجاوية وهو مثال رائع على تشابه التطور فى بلدين إسلاميين متباينين بتأثير عوامل واحدة . وليس الزارع الحر الذى يملك أطيانه فى حالة أحسن كثيراً فى معظم البلاد الشرقية لأنه على الدوام متورط فى الديون بسبب المرايين فى القوى .

ومن ثم كانت هذه الطبقات التي أحست أكثر من غيرها بما نجم عن التدخل الأوروبي. من نتائج متلفة هي دون غيرها أكثر استعداداً للتأثر بجميع صنوف الدعاية فلا عجب أن نجدهم اليوم أدوات قريبة المنال لأيدي دعاة القومية وربما يصبحون أدوات قريبة المنال أيضاً لأيدي دعاة الجهاد، هؤلاء العمال مع ذلك يلعبون في الحقيقة دوراً سلبياً - وإن حاول زعماء الحركات تحقيق غاياتهم عن طريقهم وإن كانوا سيحاولون ذلك في المستقبل .

وإن نزوع أصحاب العمل نزوعاً متزايداً لممارسة وسائل الصناعة الأوروبية والمبادئ الاقتصادية على حسابهم الخاص أهم كثيراً مما تقدم في العمل على إشراك الروح الغربية ومن أروع الأمثلة في السنوات الحديثة بنك مصر في مصر وفروعه في سوريا وإنشاء الجمعيات الرأسمالية التجارية والصناعية في الهند وجاوة وتنظيم الصناعات التركية في عهد الجمهورية، هذه الحركة الاقتصادية لا تزال في دور الطفولة ولا نستطيع التكهن بالمدى الذي ستبلغه .

ورغم أن النتائج الاقتصادية للاستغراب ذهبت مدى بعيداً نجد أن الأخذ بوسائل الغرب الفنية في تنظيم الحكومة والأدارة يتبوأ مكاناً أسمى في عين الجمهور، وليس هذا في البلاد التي تحت الإشراف المباشر أو غير المباشر لأوروبا فحسب حيث يمكن أن يكون هذا قضية مسلمة ولكنه أيضاً - كما رأينا - في معظم البلاد الإسلامية المستقلة حيث أعيد تنظيم المصالح والنظم الإدارية على الأسلوب الأوروبي شيئاً فشيئاً حتى يمكن القول بأنها قد استغربت تماماً . وأشرنا إلى أن هذا كان في الواقع أول أغراض المصلحين الأولين في تركيا وحيثما أخفقوا أفلح خلقهم في استثمار خططهم بل في السير بها إلى غايات أكثر تطرفاً . وكل حكومة إسلامية اليوم - ماعداً الأفغان واليمن التي هي أكثر حكومات الإسلام تشبهاً بمنازع القرون الوسطى - لها دواوينها البيروقراطية ، في ظل وزراء مسئولين ، في القضاء والشئون الخارجية والتعليم بل في الأمن العام والرى .

والأشغال العمومية والأعمال الصحية والطبية وما شاكلها .
وبما هو أكثر دلالة على الاستغراب في الإدارة إنشاء المجالس البلدية ومجالس
الأقاليم على أساس تمثيلي لالما أثبتت لها التجربة من قيمة من حيث هي ميدان تمرين
لإدارة الدولة فحسب بل لأنها ظاهرة جديدة كل الجدة في تنظيم الدولة
الإسلامية . ونكاد لا نرى حاجة شديدة للأطباء في الكلام عن الرغبة الملحة التي
دعت إلى المطالبة بهذه الأنظمة التمثيلية ولا الحاس الذي به أدخلت ولا عن فائدتها
في إرضاء الشعور الوطني المنطوي على احترام النفس . إن الحكومة التياية تعتبر في
الدور الحاضر من أدوار التطور السياسي العلامة الظاهرة الدالة على كمال الأمة ،
وإن ما في تصرفات النظام التمثيلي من اضطراب في معظم البلاد الإسلامية
لا ينقص من قيمه المبدأ الذي تقوم عليه . وقد نبذت نظرية الحكم الاستبدادي
نهائيا وحلت محلها نظرية سيادة الأمة وفي هذا دليل على بلوغ الذروة
في الأخذ بظواهر المدنية الغربية وهي الذروة التي لم تبلغ إلا منذ عهد حديث
جدا . على أن المصلحين الأولين في مصر وتركيا لم يكونوا ديمقراطيين ألبتة ،
ولكى يفهم النظام التمثيلي حق الفهم كان لابد من انتظار الترية السيانية التي
تعين على تقديره ، ومرت ما يقرب من قرن بعد تسرب التأثيرات الأوروبية قبل
أن يظهر هذا التقدير عاملا فعالا في الحياة السياسية للمسلمين .
وإن حداثة عهد هذا النظام السياسي تدل على أن دعائمه لا بد أن تكون أقل
استقراراً وأصوله أقل امتزاجاً بمقولات الأمة من المظاهر الخارجية لمدينة الغرب
هذه المظاهر التي تستر الحياة التقليدية للشرق ، وحتى لو قلنا إن هناك أقلية صغيرة
من المثقفين ثقافة أوروبية أدركت مهمته الحقيقية فالتنا لا نستطيع أن نعد الأنظمة
الدستورية للحياة السياسية في تركيا ومصر وفارس وغيرها سوى أشياء غريبة
عن حياتها الحقيقية أعنى أنها تطبيق آلي للنظم الغربية في ميدان الحكومة على
مثال تطبيق الآلات في الصناعة والتنظيم « البيروقراطي » في الإدارة سواء بسواء .

وهناك نقاد راحوا يؤكدون أن النظام التمثيلي لا يعدو هذا : إنه غريب في أصوله عن الشرق ، ولن ترسخ دعائمه فيه ، والحق أن المؤرخ مضطر إلى التسليم بأن تقاليد الحكومة في العالم الاسلامي ليست من طراز ينزع إلى تنمية صفات لا بد منها لنجاح الأنظمة الديمقراطية ، ولكن إنكار أن تلك الصفات يمكن أن تنمو إذا تغيرت الظروف رأى لا يستند إلى أساس من العقل يثبت فيه الإنسان من التاريخ إلى الكهانة ، أما الجدال المرتكن إلى « المميزات الجنسية » حتى لو فرضنا أن لها قيمة علمية في هذا الميدان - فمسير جداً أن نحكم به على مجتمع يضم على الأقل سبعة أجناس متميزة كل التمايز .

وعلى أي حال فالمسألة التي تعيننا مباشرة هي أنه رغم أن هذه الأشياء من أروع الأمثلة على شدة وطأة تأثير أوروبا على العالم الاسلامي فإن مستقبل الاستغراب والدور الذي سيلعبه في العالم الاسلامي ليس رهين واحد أياً كان من هذه المظاهر الخارجية المنقولة ؛ لأن الصور الظاهرية ثانوية ، وهي ثانوية هنا أكثر منها في الأمور المادية ، وكلما كان التقليد في المظاهر أكل كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلدين أقل لأن فهم الروح والاصول التي تنطوى عليها المظاهر الخارجية فيها كاملاً لا بد أن يصحبه إدراك التعديلات التي تتطلبها الظروف المحلية ، ويمكن أن يزول من العالم الاسلامي كثير من الأنظمة الغريبة التي نراها فيه الآن ولن يكون بعد ذلك أقل خطراً من الاستغراب ، بل ربما كان أوفر حظاً ، وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح الذي نسبر به غور التأثير الذي أحدثته الثقافة الغربية في العالم الاسلامي يجب أن ننفذ إلى لباب الأمور وأن ننفذ أولاً إلى الأفكار والحركات التي تقوم على تشرب الأفكار الغربية تشرباً يبعث على الابتكار بعد استعداد داخلي قوى ، كل ما عدا هذا فهو سطحي ، ومهما شق الأمر فلا بد أن نبذل الجهد في أن نبين تلك العناصر التي تكون حقاً صرح ثقافة جديدة من مجموعة العناصر المنقولة التي تراكت في العالم

الاسلامى والتي كثيرا ما تكون قشور زائفة .

والتعليم أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على الاستغراب والحق أنه العامل الوحيد إن فهمنا من كلمة التعليم كل ما تدل عليه ، ولانستطيع الحكم على مدى الاستغراب في العالم الاسلامى إلا بمقدار دراسته للفكر الغربى والمبادئ والنظم الغربية ، ولكن هذا التعليم ذو أنواع كثيرة وتقوم به جهات متعددة ، وبالطبع لا بد أن هناك بالفعل قليلا من التعليم على الاسلوب الاوروبى ، فى المدرسة وفى الكلية الفنية وفى الجامعة وعلى هذا التعليم يتوقف كل ما عداه . رأينا مراحل دخول هذا التعليم فى بلاد الاسلام المختلفة ورأينا الاثر الذى أحدثه فى عقول الزعماء العلمانيين وقليل من الزعماء الدينيين فى العالم الاسلامى ، ولكن إذا سلمنا بما يقال عادة من أن ٩٠ فى المائة من المسلمين أميون (وإن كان فى هذا التقدير بحس بالنظر إلى الجيل الناشئ وإلى سرعة نشر التعليم الاوروبى فى كل البلاد الاسلامية ، وتبيننا أحدث الأرقام أن أكثر من خمسمائة ألف طفل يتعلمون الآن فى المدارس الأولية فى مصر) وإذا لم يكن بد من التسليم أيضاً بأن نصف المتعلمين على الأقل تلقوا العلم على الاسلوب القديم وحده فإن الثلثة الباقية من المتعلمين على النسق الاوروبى قليلة جداً حتى أنها لا تكفى - رغم مكاتها الفائلة - فى تحليل النزوع إلى الروح الغربية نزوعاً عاماً نكاد نشاهده فى كل أصقاع العالم الاسلامى ، ثم إن انتشار التعليم سيعت بزيادة فى الظروف الحاضرة على توسيع تيار الاستغراب وتعميقه ولا سيما لاقرانه بالعوامل التعليمية الأخرى التى تدفع الشعوب الاسلامية فى نفس الطريق .

ونستطيع أن نعد من هذه العوامل ، ما ينشأ عن مجرد وجود المظاهر الخارجية لمدنية الغرب مما ذكرناه فى الفقرات السابقة ، وقد أشرت فيما تقدم إلى الاثر الذى أحدثه اتخاذ وسائل الصناعة الاوروبية فى هذه الناحية وبالمثل سيكون من أثر إدارة البلاد على الاسلوب الاوروبى قبول الرعية للنظام الاوروبى حتماً

بمطالبتهم به وليس بين البلاد الإسلامية الحديثة مثلاً من تستطيع الاستغناء عن القيام بالأعمال الطيبة وتسهيل نشر التعليم ، وستكون الأنظمة التمثيلية كذلك الخطوة الأولى في تربية الناخبين تربية سياسية ومن الأمور المسلم بها أن الأنظمة نفسها ليست أكثر من خطوة أولى ، هي لا ترشد الناس إلى الوسائل التي تؤدي إلى حسن الإدارة والإشراف على الأعمال السياسية فلا بد لهذه الخطوة الجديدة - التي لولاها لما كانت المظاهر الخارجية سوى قشور سطحية - أن تقوم على تكوين رأى عام مثقف لا على نشر التعليم الأولى والثانوى فحسب ، وتكوين هذا الرأى العام هو الميدان الخاص بالصحافة وهي عامل تعليمى آخر يدرجه الغرب .

إن نمو الصحافة السريع وشيوعها في البلاد الإسلامية سجلت له مزايا كما سجلت له مساوئ ، فهو من جهة أفتح فلاحاً لاريب في إيجاد جرائم الشعور السياسى بين جمهور الشعب ، وكان أكبر عامل على رفع المستوى العقلى العام ، والصحافة في الغرب المتعلم بما تعمل أحياناً على تخدير الرأى العام أما في الشرق الأسمى فهي تعمل على تنبيه الأمة ، ولا بد أن نضع في مقابل هذه المزايا ما يقع أحياناً من إساءة استعمال تأثيرها العظيم وما يشوبها من نقائص ذاتية تعزى إلى حداثة نموها وعدم استقرارها ، ومع هذا فالمطبعة أكبر من كل ما أعطته أوروبا للعالم الإسلامى في عظم نفوذها وقلبها لوجهة نظر المفكرين ، وعدد الصحف التي تصدر بكل اللغات في العالم الإسلامى يزيد الآن على الألف وهو آخذ في الازدياد ، وذكر الأستاذ « كامبهاير » مختلف الشئون التي تتمثل في الصحافة المصرية التي تقبوا المكان الأسمى في العالم الأدبى الإسلامى ولا سيما منذ الحرب ، غير أن هناك مراكز أخرى ليست وراء القاهرة بكثير ؛ وهذا العدد الهائل من الصحف التي تظهر وتختفى بسرعة وبكثرة والتي هي دون كل ما عداها أصدق مرآة للأفكار والنزعات الجارية لن يستطيع الا حاطة به

إلا معهد منظم ، وحتى معهد الشرق الايطالى Istituto per l'Oriente الذى يرجع اليه الفضل فى نشر بحوث قيمة لاغنى عنها لمن يريد تعرف شئون المسلمين الجارية فى مجلة شهرية هى الشرق الحديث 'Oriente Moderno' هذا المعهد لا يشمل ضمن المصادر التى يستقى منها ، صحف آسيا الوسطى والصحف الهندية والاندونيسية .

ونستطيع أن نقين بعض المميزات العامة التى لها علاقة بالمسألة التى نحن بصددھا . إن المشرفين على تحرير الصحف اليومية هم من أرقى الطبقات رأياً فى بلادهم . ولذلك نجد الروح الاوروبية تسيطر على نزعة معظم تلك الصحف ، هم زعماء الحركات الدستورية وكبار النقاد للادارة الداخلية وللحكومات الاوروبية . فى البلاد الاسلامية ، هم يأخذون بأوفر حظ من تكوين الرأى العام فيما يختص بالشئون المحلية وفوق هذا يحيطون بالجمهور علماً بالحوادث والآراء التى تقع فى أورربا وما يكون لها من صدى فى الشرق بما ينشرون من أخبار ومقالات تعلل الحركات السياسية والاقتصاد وبما ينقلونه عن الصحف الاوروبية ، ويبدون فوق هذا اهتماماً عظيماً بشئون سائر البلاد الشرقية أكثر مما تبديه الصحف الاوروبية فى الواقع ، وبذلك يغذون شعور التعاطف الذى تبعثه وحدة أمانى البلاد الشرقية ومواجهتها مشاكل واحدة . فالصحافة الاسلامية عامل تثقيفى لا من الوجهة القومية فحسب ولكن من الوجهة الدولية أيضاً ، ويساعد على هذا انتشار الصحافة العربية خاصة فى كل البلاد الاسلامية الاخرى . ونستطيع أن نقين بعض الفوارق بين الصحافة فى البلاد المختلفة فيما يختص بتيارات الفكر العامة وبقوة سلطان النزعة الدينية على هذه الصحف ، فأما الصحافة التركية فهى - بالطبع - علمانية وقومية إلى الحد الأقصى (ولا تجرؤ على أن تكون غير ذلك لأن الحكومة تراقبها أشد المراقبة) وأما الصحافة المصرية فهى رغم روحها الثورية أكثر جرياً مع التطور وتتجلى فيها تنوع فى الرأى

مستحب غير أنها في المجلة علمانية النزعة ، وصحافة البلاد العربية في غرب آسيا أكثر خضوعاً لسلطان الدين من صحافة مصر وتنزع إلى « الجامعة العربية » ، نزوعاً قوياً في حين أن الصحافة الإسلامية في الهند يسودها الشعور الديني . وتنعكس منها نزعة قوية إلى الإصرار على الفوارق الدينية التي لا تزال تمتاز بها الحياة السياسية في الهند .

ويشد أزر الصحف اليومية عدد وافر من المجلات الأسبوعية والشهرية التي تعنى غالباً بشئون خاصة بها تراوح ما بين علوم الكلام الإسلامية والأدب العام إلى شئون المسرح والسينما ، وتؤثر هذه المجلات أيضاً تأثيراً كبيراً ما يجاوز البلاد التي تصدر فيها ، فمجلة « المنار » ، بزعمها الأصلاحية ذاتة في العالم الإسلامي كله وتلعب دوراً هاماً في إصلاح الأفكار الدينية كما بينه الأستاذ « برج » حين وصف تأثيرها في أندونيسيا ، وسنزيد الكلام عن هذا فيما بعد أما المجلات الأدبية الحديثة في بلاد الإسلام فلها نفس الصبغة العلمانية التي للصحف اليومية وهي تعمل بازدياد على إحياء الثقافة الأدبية ووضع أصول النزعات العقلية الجديدة ، أما الحركة النسائية فلها صحفها الخاصة ويدير النساء بعضها ، وهناك صحف للكشافة وصحف علمية تنشرها الجامعات المختلفة ومعاهد التربية وصحف لسائر صنوف الجمعيات .

كانت النتيجة الخالصة لهذه الحركة التعليمية أنها حررت ، بقدر ما كان لها من تأثير ، نزعة الشعوب الإسلامية من ساطعان الدين دون أن تحس الشعوب بذلك غالباً . وهذا وحده تقريباً هو جوهر كل نزعة غربية فعالة في العالم الإسلامي وهو وثيقنا المعيار الذي نقيس به قوة الرأي الحديث والرأي المحافظ أحدهما بالنسبة للآخر . إن الإسلام من حيث هو دين قد فقد التمايل من قوته ، وأما من حيث هو المسيطر على الحياة الاجتماعية فإنه آخذ في النزول عن عرشه ، ذلك أن إلى جانبه قوى جديدة يصدر عنها سلطان يناقض تقاليد الإسلام وأوامره الاجتماعية .

في بعض الأحيان ولكنه رغم هذا - يشق طريقه بالقوة غير مبال بتلك
الأمور ولكي نصف الموقف في أبسط العبارات نقول أن ما حصل هو
هذا : إلى عهد قريب لم يكن للرجل العادي بين الرعايا المسلمين ما آرب أو أعمال
سياسية ولم يكن له أدب قريب المثال إلا الأدب الديني ، ولم تكن له أعياد
ولا حياة اجتماعية إلا مقترنة بالدين ، وإن رأى شيئاً عن العالم الخارجي لم يكن
ليراه إلا من خلال المنظار الديني ، فكان الدين عنده كل شيء ، أما الآن فقد اتسع
مدى مصالحه في كل البلاد الراقية ولم يعد نشاطه مقيداً بالدين ، وضعت المسائل
السياسية تحت نظره وقرأ أو قرىء له عدد من المقالات في موضوعات متنوعة
للعلاقة لها بالدين وربما لا تعرض لوجهة النظر الدينية مطلقاً ، كما أن الحكم عليها
قد يكون مقيداً بمبدأ مختلف عن مبادئ الدين كل الاختلاف ، هو يجد أن
الرجوع إلى المحاكم الشرعية لا يغنيه شيئاً في كثير من مصاعب حياته ومشاكلها
بل يجد نفسه خاضعاً لقانون مدني قد لا يعلم له مصدره صحيحاً يستمد سلطانه
منه ، ولكن لا شك أن هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ولا من السنة ،
ولم يعد الدين هو الرابطة الاجتماعية الوحيدة أو على الأقل الكبرى بينه وبين
إخوانه ، إذ أن مهام أخرى لا تمت إلى الدين بصلة ترغمه على الالتفات إليها
وهكذا نرى سلطان الإسلام قد انقصت عراه عن حياته الاجتماعية وهذا
السلطان ينحسر شيئاً فشيئاً حتى يقتصر على دائرة صغيرة من الأعمال ، حدث
كثير من هذا في غفلة من الناس ولم يقطن إلى إدراكه إلا عدد قليل من المتعلمين ولم
يعمد إلى تحقيقه إلا عدد أقل من ذلك ، ولكن التيار سار جارفاً لا يلو على
شيء وحيثما رسخت قدمه لم يعد رده ممكناً ويظهر من المستحيل الآن ولا سيما
إذا راعينا ازدياد المطالبة بالتعليم والازدياد في اتخاذ الأنظمة الغربية أن تنعكس
الآية وأن يعود الإسلام إلى استناره بالسلطة الاجتماعية والسياسية استثنائاً
لا ينازع فيه .

وإذا جعلنا هذا مقياساً نسبر به غور الاستغراب فالى أى حد تمكن هذا بالفعل فى العالم الإسلامى ؟ يتضح من الفصول السابقة أن سير العالم الإسلامى فى هذا الطريق متفاوت جداً وأن كل الأوطار تقريباً تمثل فيه اليوم . فلهيات الحاكمة فى تركيا مثلاً تسوق الناس فى طريق الاستغراب فى أشد أشكاله قطرفاً ، ونرى من جهة أخرى أن قدمه لم ترسخ بعد فى جزيرة العرب ، أما فى بلاد المغرب فتراه لم يجاوز الطور الأول إلا قليلاً ، وأما فى تونس فيظهر أنه ذهب إلى أبعد حد ، أما فى مصر فهو يسير بخطوات سريعة ولكنه يتقدم أبطواراً تدريجية غير عنيفة ، ويظهر أن العراق وسوريا ترسمان خطى مصر . وأن فارس تحذو حذو تركيا ولكن فى كثير من الاعتدال ، أما الأفغان فأنها بعد التجربة الطائشة التى أتاها أمان الله تهمرت - ولو مؤقتاً - إلى الأخذ بمنازع العصور الوسطى على حين أن جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية قد أدالت دولة الدين نهائياً بضغط من موسكو ، أما فى الهند فإن المسألة الطائفية عملت على جعل عقول المسلمين متركزة على دينهم ، ولا نخال حتى من غير هذا أن جمهور المسلمين فى الهند سيأخذون بوجهة نظر الغرب ولو إلى درجة صغيرة ، أما أندونيسيا فيتجلى فيها عدد كبير من التيارات المتعارضة حتى يصعب أن نصدر أى حكم عام عليها ، وإذا استثنينا الأقلية فيكون من التسرع أن نقطع بفسوخ أصول الاستغراب فيها ، أما المسلمون فى أفريقية فأنهم لا يزالون فى طور السذاجة النسبية .

وربما كانت أسلم نتيجة تقرر ها هي أن نقول إن هناك طبقتين رئيسيتين : طبقة عليا تشمل أفراداً من القادة ولكنها تشمل أيضاً أكبر مراكز الفكر الإسلامى تأثيراً وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية ظهوراً قوياً : وطبقة دنيا تشمل جمهور لرأى الإسلامى الذى لا يفصح عن نفسه وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقاً إلى حد ما وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب إلا فى جزيرة العرب ،

وما دام الزعماء هم الذين يعتد بهم - ولا سيما زعماء الجيل الناشئ ، استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذهم نياً بوجهة نظر لاسلطان للدين عليها إلا إذا طرأ عامل جديد وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى .

ولكن قد يتساءل البعض هنا : لم لم تقل شيئاً عن القومية في العالم الإسلامي ؟ ليس من المسلم به حقاً أن القومية أروع دليل وأظهره من كل الوجوه على الاستغراب ؟ الجواب إلى حد كبير رهين المعنى الدقيق الذي نفهمه من كلمة «قومية» فإذا كان معناها ما صرنا نفهمه اليوم من أنها القومية التي تقوم على الكفاح في السياسة والاقتصاد والتي بقصر جهودها على المصالح الخاصة بطائفة واحدة تنسى المصالح العامة للجماعة التي تنتمي إليها تلك الطائفة فحينئذ - ولحسن الحظ - لانستطيع أن نقين إلا قدراً ضئيلاً منها حتى الآن في العالم الإسلامي ، هي موجودة إلى حد ما في تركيا وتسيطر الآن - على الأقل - على مجرى السياسة التركية بموأتى بعد الحرب وقت ظهر فيه أن نزعة القومية هذه تشيع في البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً ولكنها انتهت أو لحقها الفناء ، على أن لتركيا مكانة بارزة في نظر معظم الباحثين الغربيين عن الإسلام ولها في الزعامة وراثته قديمة حتى ليعدهم لها في كثير من الأحيان نموذجاً لما يحدث أو سيحدث في البلاد الأخرى من العالم الإسلامي ، ويعزز هذا الرأي أن الحركات والأمانى القومية توجد من غير شك في تلك البلاد أيضاً ، غير أننا قد نجد بعد الفحص الدقيق أن المثل العليا والغايات الأولى لهذه الحركات القومية تتكشف عن روح مختلف كل الاختلاف عما عند الجمهوريين الأتراك ، روح أقل تطرفاً وأكثر رحمة ، وقد يكون مستحيلاً أن نقين حتى الآن العناصر التي تكون القومية الإسلامية ، هي تشمل أو تجتذب لنفسها - كما أبان الاستاذ برج - أنواعاً كثيرة من النشاط وجهتها غايات متباينة كل التباين ، هي مكافحة أعنى أن غايتها

الأولى محاربة التدخل الأوروبي واسترداد الحرية من يد الأشراف الأوروبي ولكن هذا المظهر الكفاحي موجه ضد أوروبا وحدها، وإذا تسعى هذه القومية إلى أغراضها تلتبس أقوى الوسائل تأثيراً في إيقاظ الشعور بالوحدة بين كافة أعضاء كل مجتمع، والظروف التاريخية التي لخصناها في المقدمة جعلت هم القومية أول الأمر محصوراً في كل بلد على حدة غير أن هذا كان أول الأمر فحسب، فالبلاد الإسلامية عدا تركيا وأندونيسيا إلى حد ما لا تقسى ولا تهمل المصالح والغايات المشتركة التي تربط الواحدة منها بالأخرى، وحتى مصر ورغم حلول المعضلة المحلية فيها كما في غيرها في المحل الأول نرى من أعظم مفاخر الناس حتى المتطرفين منهم أن مصر زعيمة العالم العربي الإسلامي، أما نزعات الانفصال قاصرة غالباً على ميدان الحكومة.

ويمكن أخيراً أن نعلل الفرق بين القومية التي من الطراز الأوروبي كما تمثل في تركيا وبين هذه القومية الإسلامية المعدلة بأنه علامة على قوة أو ضعف كليهما على التوالي، ذلك أن البلاد التي تحس في نفسها القدرة على صيانة استقلالها بمجهودها الذاتية وعلى أن تنهض على قدميها أكثر عرضة للوقوع فريسة في مخالب النوع الخطر من القومية، أما البلاد التي تحس بضعف سياسي أو اقتصادي فهي تتطلع لقوة خارجية تشد أزرها، هي في هذه الحالة قوة الاحتفاظ بالوحدة الإسلامية. ولن يرينا إلا المستقبل إن كان هذا التعليل صحيحاً في الواقع أو أن فكرة الوحدة الإسلامية خيال يقف المسلمون منها بين رجاء في تحقيقها سلاحاً لهم جميعاً وبين يأس منها كما يئسرون من الخيال، وسنزيد الكلام عن هذا في جملة فيما بعد ولنقبل هذا الرأي الآن ليحدد لنا الفكرة الجارية عن القومية في معظم البلاد الإسلامية، وإذن فلنعرف القومية الإسلامية مؤقلاً بأنها الجهد لإعادة تنظيم الجماعة الإسلامية على أساس فكرة الممالك المستقلة وهي ثمرة تسرب الأفكار الغربية السياسية من جهة وثمره العداء للسيادة الغربية السياسية والاقتصادية

من جهة أخرى. القومية الإسلامية شعور وطني وليست عصبية بين الشعوب، ونكاد نجد دليلاً فيما عدا تركيا وفارس على أنها ستواصل السير في طريق القومية الغريبة المملوكة ولا نستطيع القول - حتى الآن - إن الشعور القومي ظاهرة قد استخذه سائدة في أي بلد إسلامي ، هو يحمل معه رائحة دخيلة ، وكان الشعور الإسلامي ينزع على الدوام إلى هدم الفوارق الجنسية حتى ليصعب التصديق أن هذه الفوارق ستسمل الآن إقامتها من جديد .

ولكن هناك شرذمة من المفكرين في بعض البلاد استهواهم التعصب الجنسي ، وهذا أيضاً أقوى ما يكون في تركيا حيث نجد أن فكرة الجامعة التركية التي قبل الحرب قوت أثناء الحرب وكانت سبباً في كثير من الحركات التالية في الحكومة الجمهورية ، وبلاد المغرب - كما ألبان الأستاذ ماسينيون - زعمائها الذين يريدون سيادة الجنس البربري ، وليست حركة الجامعة العربية في غرب آسيا برية من مثل هذه العناصر برامة تامة ، وكان من النتائج العجيبة لتأثير مدينة الغرب أنها غدت هذه النزعات بما يشتمل من مدينيات قديمة كانت مزدهرة من قبل في البلاد التي احتلتها شعوب الإسلام ، وإن طيف الحضارة الحيثية يبعث اقتنائاً قوياً في بعض الزعماء الأتراك ، وشجع كشف مقبرة «توت عنخ آمون» بعض الدوائر الأدبية في مصر على إحياء الحضارة الفرعونية ، وهي حركة لم تمت بعد ، وحدثت مثل هذه النتائج أيضاً في أندونيسيا بسبب العثور على الحضارة الهندوكية - الجاوية ، وربما تحدث الحضارة السومرية أو البابلية تأثيراً كهذا في العراق كما فعل ذلك - لاريب - العثور على الحضارات الفارسية القديمة في فارس غير أنه لا يجهل - على الأقل - أن يكون لهذه «الاطياف» في معظم شعوب العالم الإسلامي أثر يقارن بالآثر الذي أحدثه إحياء التراث الأثيني في اليونان أوائل القرن الماضي ، وأكبر قيمة لها فيما يبدو لنا - حتى الآن - أنها ستكون وسيلة لتقوية شعور المسلمين ضد أوروبا رغم أنها ربما تكون

في المستقبل عنصرا مغذيا للحياة القومية ،

الآن وقد رأينا إلى أي حد تغلغلت عوامل الشكيف الأوروپية في العالم الإسلامي وأوجدت روحا جديدا ونزعة فكرية جديدة بين بعض شعوبه ، آن لنا أن ننظر في الناحية الثانية من المسألة . ما أثر هذا في الإسلام ؟ وكيف تغير مسلك المسلمين إزاء ثقافتهم الدينية الموروثة ؟ وإلى أي حد لا يزالون يقدرّون الإسلام عنصرا في حياتهم القومية ونياباتهم من صلات ؟ وما مبلغ استعداد الفكر الإسلامي لمواجهة الظروف الجديدة ؟ سبقت إجابة جزئية عن بعض هذه الأسئلة ولكننا سنتناولها بالبحث هنا مرة أخرى في مجموعها ولو كان في ذلك شيء من التكرار .

في مقدمة بحثنا في الاستغراب قررنا بشكل عام أن العالم الإسلامي يرغب في ذلك ، ويجب أن نقرر في مطلع هذا الجزء من بحثنا حكما عاما آخر أكثر إطلاقا وليس أقل خطرا : لا يزال المسلمون متمسكين بدينهم تمسكا شديداً ومقتنعين اقتناعا تاماً بأنه خير الأديان ، أما كون أفراد مبعضين من المسلمين ولا سيما بين الطبقات العليا فترى العزيمة في دينهم ومهملين لأوامره بل معلنين أنهم ملحدون فهي مسألة قليلة الشأن مثل مسألة أن بين الذين يسمون أنفسهم مسلمين جماعة لا يزيد دينهم عن مجموعة من الخرافات الساذجة . إن قوى الإسلام الحيوية من حيث هو عقيدة وقاعدة للحياة ونظام خلقى لا تزال بنجوة من الفساد ومضت الساعة الحرجة التي كانت تهدد الإسلام في آخر القرن الماضي ، وأكبر الفضل يرجع للشيخ محمد عبده وتلاميذه ، وكان من أثر جهوده التي فرغ لها حياته — مثل سر سيد أحمد خان — أن أزال العوائق التي كانت تشل حركة الإسلام وتجذب القهقري وأن أطلق الهمم الفتية من عقالها لتعمل على التوفيق بين الإسلام وأنظمتها وبين الحياة الجديدة في بلاد الإسلام ، على أن الإسلام لم يعد شيئا يؤخذ من غير تمحيص ولكنه في

هذا العصر وما يلابسه من ضيق ومن انحلال في النظام الاجتماعي القديم صار شيئاً لا بد أن يجاهد من أجله ، وفي هذا باعث قوى للناس على أن يزيد تقديرهم لقيمته ، لقد كان الإسلام على الدوام ديناً يملأ شعور معتقيه وهم اليوم أكثر شعوراً به منهم في أى عهد سابق .

ورغم تصدع الوحدة القديمة للمجتمع الإسلامى تحت ضغط القوى والافكار الجديدة من الغرب ، ورغم فقدان الإسلام حقوقه التشريعية في ميدان السياسة ، فلا يزال المثل الأعلى على القديم للوحدة الإسلامية حافظاً سلطانه على عقول شعوب الإسلام ، وعلى يمد هذا المثل الأعلى على من الوهن قوى على الدوام . وازدادا تمكنا في شعور الناس أثناء القرن الماضى ، وقيام الناس فى وجه التدخل الأوروبى والضغط الاقتصادى من جهة ، والدعاية النشيطة للجامعة الإسلامية من جهة أخرى تلك الدعاية التى قامت بها تركيا بين ١٨٧٨ و ١٩١٠ وانتشار ثمرات الأقلام من مصر ومراكز أخرى كل هذه عملت على جعل الرابطة المشتركة بين المسلمين أشد قوة ، على حين أن رقى وسائل المواصلات المتتعة فى أوروبا عمل على جعل تلك الرابطة حقيقة واقعة أكثر من ذى قبل . ووجود هذه الرابطة - كما هو الأمر فى معظم الأنظمة الإسلامية - جدير أن يفوت نظر الباحثين الذين يحكمون على قوة الحركات بتنظيمها الظاهرى ، ولن يستطيع إدراك جوهر تلك القوى التى تفعل فعلها من وراء ستار إلا من من يعلم أن هذا الجوهر رهين إرادة تعشق مثلاً أعلى لارهين المظاهر ، وحسبنا أن نجد فيما كان من أمر الخلافة العثمانية دليلاً قوياً على هذا ، فإن الباحثين الأوربيين ما فتئوا يعدونها العروة الوثقى فى الوحدة الإسلامية ويعدون هدم الجمهورية التركية لهاضبة قاضية ، والحق أن الخلافة العثمانية ما كانت تعدو رمزا للوحدة ناقصاً جداً ، ولم تثل اعتراف المسلمين حتى من هذه الناحية ، ولتنظر مثلاً إلى اخفاقها الذريع حين حاولت إعلان الجهاد فى ١٩١٤ .

الا تنكر أن إلغاءها أحدث فرعاً بين المحافظين من أهل السنة، غير أنه لم يؤمن
نابذة من قوة الوحدة التي كانت الخلافة رمزاً لها بين الشعوب الإسلامية؛ بل
هو على العكس أزال سبباً قد يبعث على الشقاق ويفضي إلى الانقسام ولا
سيما أن الخلافة التركية كانت تمثل فكرة الوحدة في صورة «أوتوقراطية» من بقايا
العهد القديم أصبحت لا تتلاءم مع المثل العليا الجديدة للشعوب الإسلامية،
ولم يكن شيء أكثر وقوعاً في الوقت المناسب تماماً من أن يحتفى هذا الشيخ
الذي يمثل النظام القديم ويفسح المجال لأفكار جديدة تتلاءم مع الموقف
الجديد في العالم الإسلامي (١).

أما الوحدة الاجتماعية في شعوب الإسلام فيمكن أن نعدها - كما رأينا -
شيئاً من مخلفات الماضي يعيش في عصر غير عصره، ولكن هل من المؤكد
تماماً أن المثل الأعلى القديم للوحدة صفر من كل ما ينال إعجاب الأجيال
الحديثة التي تلقت العلم على الأسلوب الأوروبي ويعت فيه حماساً لحفاظها
عليه؟ لا ريب أن مصالحهم - إن لم يكن ميولهم الشخصية - ستؤكد لهم أن في
بقاء تلك الوحدة مزايا يعتدون بها في دفاعهم وينتفعون بها في بنائهم مدنياتهم،
وإن المسلمين وهم يقفون وجهاً لوجه أمام ما يروعه من قوة لاوروبا ما تزال
قائمة - وإن مزقها الشقاق أحزاباً متناحرة - إنهم يشعرون بضعفهم وهم آحاد
لأن الشعوب المنفرقة التي تكون العالم الإسلامي ضعيفة عتداً، بل إن أقواها
وهم مسلمو الهند الذين يبلغون سبعين مليوناً هم في الحقيقة من أضعف تلك
الشعوب لما يواجهونه في بلادهم من قوة هائلة مصدرها القومية الهندوكية؛

(١) إن وحدة الرياسة في الإسلام - وهو جوهر الخلافة - نظام في الحكم
مزايًا عظيمة، ولا سيما أن نظام الخلافة جامع لمحاسن الحكم الجمهوري لقيامه على
الانتخاب والحكم الملكي لما فيه من ثبات واستقرار - فلا يبق في رأي إلا إحياء
منصب الخلافة الذي هو روح الإسلام ومظهره بما يلائم مع حالة العالم الإسلامي
الحاضرة وظروفه الجديدة.

وخطر التفرق ظاهر لهذه الشعوب جميعا وهو ليس خطراً بالمعنى الحرفي،
فحسب ولكنه خطر يتهدد منابع الحياة الثقافية للمسلمين، وقد ألغنا فيما سبق
إلى أن شعور المسلمين بالوحدة سلاح يدافعون به عن أنفسهم ولن يبنذوه
مستخفين به لأنه يسبغ القوة المعنوية على الوحدات المتفرقة. زد على
ذلك أن نجاح مسلمي الهند في تنظيم الشعور العام دفاعاً عن تركيا أراهم الفائدة
العملية التي تجني من تعبئة جهود تتجلى فيها روح العطف، ونحن وإن كنا نسلم
أن هذا السلاح الجديد ما يزال في أول أطواره (وهذا ربما يحل مافعله الزعماء
الأتراك بعض التعديل إذ انصرفوا الانصراف كله عن حلفائهم المسلمين وقبلوا
معونة روسيا السوفيتية بدلاً منهم) فسرى أن السعي لتقويته من أهم الحركات
في العالم الإسلامي اليوم.

ويقرن بهذا السعي ازدياد في إداك المسلمين مظهراً آخر من مظاهر الوحدة
الإسلامية، ففى حين أن الحركات القومية التي تتبعنا تطورها ثمرة لمحنة المسلمين.
مبدأ سيادة الدولة كما يفهمه الأوروبيون نجد شعوب الإسلام لم تخط حتى
الآن إلا الخطوة الأولى في سبيل إيجاد القوميات المنفصلة. لم ينشأ المسلمون
- كما نشأ نازيون أحضان النظم القومية، وعقولهم لا تزال بنجوة من سلطانها فهم.
لذلك يستطيعون أن يحكموا عليها حكماً لا عاباة فيه وأن يصوغوا مثاهم العليا.
ويسيروا في سياستهم بما يتلاءم مع ذلك. على أن ازديادهم خبرة بأوروبا
ومعرفة بتاريخها آتاهم معرفة تامة بما يكون للقومية الغربية من نتائج مهلكة.
حينما تسرف حتى تضع مصلحة الفرد فوق مصلحة المجموع، ونرى في نواحي
مختلفة من المجتمع الإسلامي سخطاً من نظام يضع - على حد تعبير الأستاذ
برج - المصلحة الخاصة فوق المصلحة العامة، وإن ثورة المسلمين على مبادئ
الحضارة الأوروبية التي تعارض قواعد الأخلاق ستدفع المثقفين منهم
حتماً إلى أن يزدادوا إصراراً على الدعوة إلى الأخلاق الإسلامية وأن يصروا
خاصة على مبدأ الأخاء الإنساني الذي هو أساس الأخلاق الاجتماعية في الإسلام.

وعلى هذا فالنزعة إلى تأكيد الرابطة الاجتماعية بين شعوب الإسلام تأكيداً مكرراً نزعة آخذة في القوة - كما يبدو للعيان - على أسس أخلاقية ، ولا سيما مع تزايد النفوذ السياسي للطبقة الوسطى التي أثرت فيها على الدوام تعاليم الإسلام الخلقية تأثيراً أقوى مما كان لها في الارستوقراطية الحربية القديمة ، وكلما زادت روح الديمقراطية في القوميات المقبلة زاد سلطان مبادئ الإسلام على العلاقات السياسية . وأخيراً فربما يكون من أثر الفكر الغربي أن يسوق الناس هنا أيضاً إلى السير في هذا الاتجاه نفسه ، فالنزعات الجديدة في أوروبا ترمى - بمحاربتها للقومية المسرفة التي تقوم على الكفاح والتي أشتدت في عشر السنين الأخيرة إلى اتحاد الدول لتكون جماعة كبرى وإلى نبذ مبادئ القومية المتطرفة ، وهذه النزعات لن تتحقق في أن تحدث في الفكر الإسلامي تأثيراً مماثلاً لما أحدثته في الفكر الأوروبي ، وستفصح في شد أزr المجاهدين في توثيق أو اصر الوحدة الإسلامية ، ويساعد هؤلاء المجاهدين عامل آخر وهو أنه ليس بين شعوب الإسلام منافسة اقتصادية كتلك التي أرهقت من حد الخصومات القومية في أوروبا ، وليس أمامنا ما يرجح أن منافسة كهذه ستنشأ في المستقبل القريب وتفسد ما بين شعوب الإسلام من علاقات .

غير أن عاملاً واحداً ربما يدخل فيعوق تحقيق الوحدة الإسلامية تحقيقاً كاملاً ، هو تفاوت الثقافة في البلاد الإسلامية . رأينا أن في الأماكن أن نميز تمييزاً دقيقاً تلك البلاد التي بدأت في إصلاح حكوماتها على الأسلوب الأوروبي من تلك التي لا تزال مغلقة في الجوهر للأنظمة الموروثة ، بل نجد في الطائفة الأولى فوارق كبيرة في مبلغ الأخذ بأنظمة الغرب . وربما تستمر هذه الفوارق غير أنها ليست عقبة كأداء في سبيل الوحدة ، لأن الأساس الذي تشترك فيه البلاد الإسلامية سيقى وسيبقى نقطة يلتقى عندها الجميع ، هذا الأساس سيكون الأفكار الأوروبية على غرار واحد تقريباً حتى في أكثر البلاد

الإسلامية تقدماً وأكثرها تأخراً، وبذلك سيميز الجماعة الإسلامية عن
الأوروبية أو الهندوكية أو جماعة الشرق الأقصى . ربما تظل الفوارق
في اتخاذ نظم الغرب مسائل فرعية في الجملة وهذه المشكلة ناحية دينية سنسهب
في الكلام عنها بعد قليل .

والآن نعود إلى الموضوع الذي نحن بصدده فنقول إن عاطفة الوحدة قد
بقيت ولم تقتصر على هذا بل هي تدل دلالة محسوسة على وجودها بطريقة
مطرده رائحة ، فلا تمر حادثة تمس حياة العالم الإسلامي من غير تعليق حماسي
جاد في صحافة تذيب في نصف آسيا وأفريقية ، وعندما تأخذ هذه الحوادث
شكلاً خطيراً سواداً في مراکش أو ليبيا أو فلسطين أو الهند أو اندونيسيا تأتي
قرارات الاحتجاج من كل فج وكأها متشابهة في اللهجة بل في العبارة ، وليس
عهدنا بعيداً بالجزء الأكبر من العالم الإسلامي حينما كان يخيل لمن يراه أنه
في سبات عميق حتى حسبه البعض قد فقد الحياة ، فأما اليوم فإن حادثة صغيرة
مثل قتل (الشهيد) عمر المختار تهز ما بين مراکش وجاوة كأنها صدمة كهربائية
وتولد تياراً من السخط المتهب . حقا إن ذلك الشعور المتولد يخمد سريعا
ولكن تراكم أثر تلك الصدمات (التي أشار الاستاذ كامبفاير إلى أحدثها)
سيجعل رد الفعل أكثر قوة وسيزيد العالم الإسلامي شعوراً بوجوده .

هذا ولم تفقد كل الأنظمة القديمة التي غدت الوحدة قوتها في العصر الحديث
ورغم فقدان الشريعة ما كان لها من استئثار بالتشريع ، ورغم أن الثقافات المحلية
بدأت تزحزح الثقافة المشتركة ، ورغم أن الفوارق في العادات الاجتماعية
أصبحت أكثر ظهوراً وأن التعليم الديني القديم أصبح قاصراً على طائفة متضائلة
من الشعب فلا تزال المظاهر الدينية والعبادات باقية . أما الذي يزعم أن
القرآن قد قل حظه من الدراسة الآن أو أن نظمه الذي يظل صدها يتردد في
النفوس قد فقد غلبته على عقول الرجال فلن يجد ما يؤيد زعمه الكاذب ،

ولا تزال العبادات الإسلامية متبعا للرضا والاطمئنان حتى عند من يهملون في أدائها، وقد قوطعت الطرق الصوفية في تركيا كما قل تأثيرها في مصر وآسيا الغربية ولكن الباحثين الثقات يؤكدون أن نجمها فيما عدا هذه البلاد أخذ في الصعود. ومن أكبر مميزات الإسلام الحديث شعور الولاء لذات محمد (عليه الصلاة والسلام) والحاسة التي يبعثها بين كل الطبقات. قال حديثا واحد من أعظم المعبرين عن الفكر الغربي في مصر مشيراً إلى بعض المؤلفات الأوروية عن تاريخ الجماعة الإسلامية الأولى: «يقولون إنني ملحد، ولكنني حين أقرأ ما يكتبه لا... عن محمد أملي غيظاً حتى لا أشعر أنني أقوى إسلاماً ممن ينتقدوني»، والمظنون أن الكتاب الذين ينكرون قوة الإسلام الحيوية في تركيا لو اختبروا الناس على هذا النحو لوجدوا ما يدعوهم إلى تغيير آرائهم، أما في الدائرة الدينية المنظمة فلا يظهر نقص في تموين الأوقاف التي يذهب دخلها إلى الجمعيات الخيرية والمستشفيات والمكتبات ودور الأيتام والمؤسسات الأخرى التي تؤدي خدمة دينية واجتماعية. ولكن أعظم فروض الإسلام تأثيراً في تغذية روح الوحدة الإسلامية هو الحج، ولا يمكن لمسلم أخذت روحه حظاً في تعظيم عبادة يشارك فيها عشرات الألوف من أخوانه المؤمنين من كل جنس وطائفة (ففي مكة تهباً أشد العداوات الطائفية حدة وإن بدا تعصب أحياناً) أن ينسى تلك اللذة العليا التي ذاقها وما تميّط عنه اللثام من قوة باطنة لديه ومن انتشاره العظيم في الآفاق، وكل من رجع من الحج يشهد لدى جماعته بالوحدة العامة التي ترفع على القوميات الصغيرة ويصير مركزاً تشع منه حماسة دينية لمثل الإسلام العليا التي تسمو على القومية. لا تسكر أن حوادث عشرات السنين الأخيرة انقضت عند الحاجة في السنوات الأخيرة، ولكن من القسر استنباط أن هذا النقص المؤقت دليل على نزعة دائمة.

ولكن الحاسة الدينية وحدها لا تستطيع مهما اشتدت صيانة الوحدة فضلاً

عن أن تعيد بناء وحدة حطمتها عوامل هدامة قوية ، ويشعر زعماء الإسلام بهذا أيضاً ، وقد يدموا يلتمسون الأسباب لتقوية روح الوحدة قبل أن يدركها الموت بأن أوجدوا أنظمة جديدة تستثمر أنظمة المجتمع الإسلامي الموروثة وتقويها ، وأشرنا في المقدمة إلى أن من أكبر مطالب النظام القديم أنه أفنى القدرة على العمل المنظم شيئاً فشيئاً في كل ناحية ماعدا الناحية الحربية ، ولكن أشرنا إلى أن التعليم على الأسلوب الأوروبي كان من أثره تقوية الباعث على تكوين هيئات منظمة تسعى وراء غايات معينة ، وبالطبع كان أبرز هذه الجمعيات ما أنشئ لأغراض سياسية ولم يمض زمن طويل حتى أخذ المهتمون بالشئون الدينية يدركون المزايا التي تجنى من العمل المنظم ولكن نظراً لأن الإسلام كما يفهمه أهل السنة ليس فيه هيئة كهنوتية فإن الطبقة التي تقابل رجال الكنيسة في المسيحية لم تنظم في شكل رئاسة دينية ولا يلوح من المحتمل أنها ستصير هيئة كهنوتية في المستقبل ، غير أن كبار علماء الدين أظهروا في عقود السنين الأخيرة في بلاد شتى ميلاً إلى تكوين جمعيات تنافح عن ميراث الإسلام وإلى إنشاء معاهد دينية بل إلى مضاعفة الجهود في تبليغ دعوة الإسلام لمن لا يدينون به ولمن لا يعرفون من أصوله إلا الاسم ، وكان مسلموا الهند هم الطلائع في هذا الميدان وفي الهند الآن « ندوة العلماء » وجمعية « علماء الحديث » وجمعيات أخرى كثيرة ذكرها الكولونيل ديفر ، وحركة الأحمدية التي ذكرت مراراً في الفصول السابقة هي في جل أمرها حركة من هذا الطراز نفسه وأصبحت بنيتها تدريجياً لمزايعها الأولى وما فيها من زيغ وحزبية جمعية دعاية إسلامية في جوهرها - وإن كان علماء أهل السنة ما يزالون يرمقونها بعين الريبة ، واليها يرجع الفضل في إثناء أسلوب من الجدل يدافعون به عن الإسلام وهو ، وإن لم يتمكن بعد من اتقان فن الجدل الغربي جدير بالاعتبار ولا سيما في الشرق وفي إفريقيا .
وأنه لطبعي جداً أن تكون هذه الجمعيات الدينية أنشط في الهند وأندونيسيا

منها في البلاد الإسلامية الوسطى ، ذلك أن العنصر غير الإسلامي في هذه البلاد قليل العدد، أما هناك فالإسلام يواجه حركة تبشير تقوم بها الجمعيات الهندوكية والمسيحية . والجمعيات الإسلامية تواصل في الواقع - وفي ظروف جديدة وفي صورة جديدة - سياسية تبليغ الإسلام الأولي حيال المجتمعات الشرقية القديمة ، وإنه ليدل على نشاطها في هذه الناحية أنها نجحت سريعا في تكيف نشاطها بما يلائم الظروف الجديدة، أما في إفريقيا فتكاد لا توجد علامات على مثل هذه الجمعيات فطبيقات التجار التي كان عليها أكبر العبء في الاضطلاع بادخال الناس في الإسلام قل شأنها وهيبتها حتى لنجد الإسلام في بلاد كثيرة واقفا أو متقهقرا ، ويعول في تقدمه على الجماعات الصوفية القديمة أو على جمعيات تبليغ الإسلام الآتية من الهند والتي كونت جماعة إسلامية قوية في جنوب أفريقية . ولم تحل حتى اليوم مشكلة تحويل النشاط الحربي القديم في الدعوة إلى الإسلام عند أقوام كالغولا إلى جمعيات تبلغ دعوة الإسلام بطريقة سلمية ويظهر أن مستقبل الإسلام بين زنوج أفريقيا يتوقف على حل هذه المشكلة .

وأعظم من ذلك خطر أسلانيا في البلاد الوسطى - الجمعيات الإسلامية - إلا حدث عهدا والتي يسود فيها العنصر العلماني لأنها تؤثر في دائرة أوسع كثيرا ، وتعنى بالتعاليم الخلقية للإسلام أكثر مما تعنى بالفقهية وتحليل الاستاذ كامبهاير لجمعية الشبان المسلمين تحليلا كاملا يجعل تلخيصنا لوسائلها وغايتها تكرارا لا طائل فيه لأن الجمعيات الأخرى « كجمعية الهداية الإسلامية » في البلاد الناطقة بالضاد والجمعيات الهندوسية التي وصفها الاستاذ برج تنهج طريقا عظيم الشبه بطريق جمعية الشبان المسلمين ، وإن عناية هذه الجمعيات بشئون الجامعة الإسلامية والصيغة الدولية لكثير منها وما تحافظ عليه فيما بينها من علاقات كل ذلك يدل على أنها لابد أن تلعب دورا حاسما في تقوية عاطفة الوحدة الإسلامية بل ربما لعبت دورا في تمهيد السبيل إلى اتحاد الشعوب

الإسلامية اتحاداً أكثر نظاماً في المستقبل .

واتخذت بالفعل الخطوة الأولى في هذا السبيل ، ففي طول ثلاثة عشر قرناً ونصف من تاريخ الإسلام يصعب أن نشير حتى سنوات قليلة إلى حالة واحدة اجتمع فيها ممثلون من جميع أصقاع العالم الإسلامي ليتشاوروا في مشاكل تغنيهم جميعاً وليقرروا اتباع طريق واحد في العمل ، ولكن منذ ١٩٠٠ (١) نرى فكرة عقد المؤتمرات الإسلامية تشق طريقها إلى الأمام شيئاً فشيئاً . ومنذ ١٩٢٦ عقدت بالفعل ثلاثة مؤتمرات اثنان في مكة والقاهرة في تلك السنة والثالث في ديسمبر ١٩٣١ في القدس ، وكانت أغراض ونتائج كل من هذه المؤتمرات متباينة تبايناً عظيماً . ولم يكن التباين في تكوين كل منها أقل شأنًا فؤتمر الخلافة في القاهرة - وقد وصف الاستاذ كامبفائر أهم ما فيه - اجتمع على غرض نظري بعض الشيء هو تقرير مستقبل الخلافة . أما هيئته فكانت فيها أغلبية ساحقة من رجال الدين وكانت نتائجها سلبية (كما كان ينتظر) أما اللجان الدائمة التي وضع نظامها مقدماً فالظاهر أنها لم تبرز إلى عالم الوجود . كان في الأمر حظ من الجدل قليل جداً وكانت وسائل البحث من الطراز العتيق الذي لا يتلاءم مع حاضر العالم الإسلامي . أما المؤتمر الثاني في مكة فكان له غرض ملموس أكثر تحديداً هو تقرير مكانة الحجاز وحرمة . ونظراً لأنه في الفترة التي بين المؤتمرات نودي بالسلطان (الآن الملك) عبد العزيز بن سعود ملكاً على الحجاز وجدت الوفود نفسها أمام أمر واقع وانقلبت أعمال المؤتمر مبارزة دبلوماسية ، بين ممثلي نجد والحجاز الذين كانوا ينفون أن ينالوا معاضدة مالية وأدبية ومادية لحكومتهم وبين سائر الممثلين الذين سلكوا مسلكاً فيه شيء من النقد - إن لم نقل التذمر - من أحوال بلاد الحجاز الدينية والإدارية ولا سيما الصحية . وعبثاً حاول الملك أن يتدخل ، أرسل للأعضاء

(١) الاجتماع الذي عقد بمكة في ١٨٩٨ ورأى أبوابه مغلقة لا يمكن أن نسميه مؤتمراً .

رسالة تشف عن تقرير خفي ويتأخص مضمونها في هذه العبارة : «أما تركنا :
نسير وحدنا والوقوف منا موقف الناقد العاذل فذلك لا يليق بالأخوة الإسلامية
التي تربطنا جميعاً» (٢) ورفض الممثلون الأجنب أن يسمحو حتى بمناقشة الرسالة ،
وإخفاق ابن سعود في بلوغ غرضه يتضح من أن المؤتمر الذي كان لابد أن يجتمع
منوياً في مكة أثناء الحج طبقاً للبادة الثالثة من قانونه ظل معطلا حتى كتابة هذا السطور .
غير أننا نخطئ إذ نستببط أن مؤتمر مكة قد فشل ، فهيمته كانت تمثل العالم
الإسلامي أكثر مما كان يمثل مؤتمر القاهرة (زيادة على نجد والحجاز فان تركيا
والإفغان والسودان والروسيا مثلت في مكة ولم تكن في القاهرة ومن جهة
أخرى فان العراق وبولنده والمغرب وجنوب أفريقية مثلت في القاهرة ولم
تكن في مكة) ولم يكن ذلك قاصراً على الناحية الجغرافية ولكن كان فيه طائفة
طائفة كبيرة من الأعضاء العلمانيين وإن كان رجال الدين هم الأغلبية . وفي
معظم المسائل التي تناولها البحث أمكن التوفيق بين وجهات نظر مختلفة لتصير
قواعد عملية يسير عليها الجميع . وإذا كانت عوائق أخرى حالت دون العمل
فليس من اليسير إجماع الأعضاء على وجهة نظر واحدة وتعبير الرأي الإسلامي
عن نفسه وحصوله على نوع من المصادقة والتقرير في مؤتمر يمثل شعوبه . أما
عن الغرضين الأول والثاني اللذين أعلننا في القانون الأساسي - وهما هيئة الفرص
للاتصال بين الشعوب الإسلامية وفحص وتحسين أحوالها الدينية والحلقية
والاجتماعية والاقتصادية فيمكن القول بأنهم خطوا الخطوة الأولى على الأقل
لأنهم سيكتفون من اتباع نظام المؤتمرات بعد أن عملوا به أول مرة .
على أن سؤالاً يتبادر إلى ذهن القارئ الأوروبي عن هذه المؤتمرات
وعن مآلها . من ذا الذي تخوله مكاته أن يستدعي مثل ذلك المؤتمر ؟ ومن ذا

(٢) خلاصة ماجرى في مؤتمر مكة موجودة في «صحيفة موجزة بأعمال مؤتمر
العالم الإسلامي الأول» طبعها محمد علي حسن صاحب جريدة ومطبعة الشرق بإسكندرية .

الذى يعين الوفود؟ ومن يمثلون؟ يظهر أن هذه المؤتمرات - كما يبدو لنا - تعوزها الطريقة المنظمة . يأتى الممثلون ليمثلوا بلاداً هم عنها مبعدون سياسيون وعلى أى حال قليل منهم من يحمل اتداباً رسمياً ، وليس من السهل أن تكون الأجابة واضحة لدى من لم يدرك خصائص الأنظمة الإسلامية وما فى طبيعتها من مرونة ومن أنها تستند إلى الإرادة ، وبالاختصار فإن رأى العام أساس هذا النظام كله ، فليس لكل إنسان أن يستدعى مؤتمراً ، إنما يفعل ذلك من يعترف بالرأى العام (كما يقوده زعماءه ومنشؤه) بأنهم يتبوءون مكاناً من الزعامة الطبيعية مثلهم مثل الوفود والأعضاء ، كل منهم له مقام معلوم ومقدار من النفوذ معلوم ومكانة سياسية معلومة ، وفى حين أن هناك أعضاء لا يمثلون إلا أنفسهم فقد يكون هناك ممثلون غير رسميين ، - وقد يكونون منفيين - يمثلون أحياناً الرأى العام أفريق على الأقل من أبناء وطنهم تمثيلاً أصدق من الممثلين الرسميين الذين تغل أيديهم وألسنتهم القيود التى تفرضها الاعتبارات السياسية ، تجلى هذا فى مؤتمر مكة خاصة حينما انسحب الممثلون الأتراك وغيرهم كثيراً ليتجنبوا إحراج حكوماتهم ، على أن حكومات البلاد الإسلامية ليست جميعاً مؤيدة لفكرة المؤتمرات ، ومن الأسباب التى عملت من غير شك على إحباط مؤتمرات مكة اشتراط أن كل مملكة يجب أن تدفع سنوياً اكتباف قدره ثلثمائة جنيه عن كل ممثل نظير امتياز التمثيل ، وأى شرط كهذا - وهو ينزع لأن يجعل المؤتمر شبه عصبة أمم إسلامية - سابق لأوانه بكثير . إن وظيفة المؤتمرات فى الظروف الحاضرة هى توحيد الرأى العام الإسلامى ولهذا الغرض فالشرط الجوهرى هو أن زعماء الرأى العام فى كل بلاد يجب أن يسمح لهم بحضور المؤتمر والتعبير عن آرائهم من غير قيود رسمية ، ثم لينحاولوا قيادة الرأى العام فى بلادهم فى الطريق الذى اتفقت عليه كلمة المؤتمر .

من هذه الوجوه امتاز مؤتمر القدس فى ١٩٣١ على سابقه بتقديم واضح

وجهت الدعوة أول الأمر - وجهها هذه المرة مفتى القدس الذي تقدم بهذا وملاً المكان الذي أخلاه الملك ابن سعود - لا إلى حكومات البلاد الإسلامية المختلفة فحسب - كما جرت العادة - ولكن إلى الجمعيات الإسلامية كذلك وقد امتنعت كل الحكومات أن ترسل ممثليها أول الأمر وذلك فيما يظهر بسبب إشاعة مبتسرة مغزاها أن في نية المؤتمر إثارة مسألة الخلافة ، وقد كذبت الإشاعة تكذيباً قاطعاً . ومن بين أمراء الإسلام المتربعين في الحكم بجدالاتهم الشيعي في اليمن هو الأمير الوحيد الذي أوفد إلى المؤتمر مندوباً رسمياً - وإن كانت الحكومة المصرية قد رضيت أن ترسل ممثلاً شبه رسمياً ، وأهم ظاهرة في هذا المؤتمر من جهة أخرى حضور ممثلين مفوضين من كل الجمعيات المنظمة تقريباً في مصر وآسيا الغربية بما في ذلك حزب الوفد المصري وجمعية الشبان المسلمين في مصر وفروع أخرى منها وجمعية الهداية الإسلامية في فلسطين وسوريا والعراق وكذلك جمعية الخلافة ، بالهند وهي التي عملت مادياً على انعقاد المؤتمر . وكان من أثر ذلك أن ازداد بروز العنصر العلواني في المؤتمر حتى صار أكمل تمثيلاً للرأى الإسلامى الحديث ، وحضر المؤتمر ممثلون « غير رسميين » من المغرب وروسيا وجاوه بل من كشمير إلى عدد كبير من البلاد الأخرى التي سبق ذكرها ، وأثناء انعقاد المؤتمر أيده ملك العراق وأمير شرق الأردن والملك ابن سعود - بعد أن هدأت مخاوفهم - برسائل يعثوا بها حتى لقد أوفد الأخير ممثلاً رسمياً ولكنه وصل متأخراً فلم يدرك المؤتمر .

ومن أروع الظواهر التي تجلت في المؤتمر اشتراك الشيعيين فيه بدرجة كبيرة ، فزيادة على الوفد اليمني أرسل علماء الشيعة في العراق ممثلاً مفوضاً ، وحضر ممثلان شيعيان من فارس ، وبعث مفتى الشيعة بسوريا رسالة أعرب فيها عن عطفه على المؤتمر (كما فعلت ذلك جمعية الطلبة المراكشيين في باريس) أما الطائفة الشيعية الوحيدة ذات الشأن التي لم تمثل في المؤتمر فهي الجماعة الشيعية

في الهند ، ورغم أن ممثلي اليمن كانوا حاضرين في مكة أيضا فيمكن القول إن الشيعية صرحوا في مؤتمر القدس لأول مرة عن تضامنهم مع العالم الإسلامي السنّي (وحتى لهذا وحده سيكون المؤتمر جديراً بالذكر) ذلك أنه لم يجتمع أهل السنة والشيعية قط في التاريخ الإسلامي للبحث في معضلات مشتركة ، وفي حين أن هذا الأمر يمكن أن يتخذ دليلاً على ضعف الفوارق الدينية في الحياة السياسية من جهة فهو ليس أقل دلالة من جهة أخرى على ازدياد المسلمين إدراكاً لمصالحهم المشتركة في العصر الحديث .

وزيادة على الغرض الذي كان يرمى إليه الجميع وهو الاحتفاظ بصلات دولية بين شعوب الإسلام نظر المؤتمر في عدة أغراض عملية يسعى لتحقيقها مباشرة أهمها حماية الحرم الشريف من اعتداءات كان يتوقع حدوثها ، وإنشاء جامعة إسلامية في القدس (ثم إنشاء جامعات أخرى في بلاد أخرى) وتنظيم الدعاية الإسلامية ، ويرمى المؤتمر من وراء هذا كله إلى الحصول على تأييد العالم الإسلامي لمسلمي فلسطين تأييداً مادياً وأدياً ضد الصهيونية ، ورغم حركة ظهرت في فلسطين ذاتها ضد منظمي المؤتمر مما كان عائقاً لنجاحه فهو لا ريب قد أصاب من النجاح حظاً عظيماً جداً ، ورسم للعمل خططاً واضحة تتبع في المستقبل القريب . فتقرر مثلاً أن يعقد المؤتمر كل سنتين - وإن لم يكن ذلك في القدس حتماً - وأنشئ مكتب مركزي لا دارة حركة الدعاية الإسلامية وأنشئت مكاتب فرعية في البلاد المختلفة تكتب تقارير كل ستة شهور إلى المكتب المركزي الذي يقوم بنشر تقارير سنوية (١) ورسم مشروع جمع الاكتسابات للجامعة الجديدة ، والدفاع عن الحرم الشريف ، وفي هذه الاثناء تنفذ الاجراءات الاولى الفنية لتأسيس الجامعة استعداداً لرفع تقرير عنها إلى المؤتمر الثاني ، وأقر الممثلون فيما أقروا إنشاء بنك زراعي عربي في فلسطين وإنشاء

(١) أنشئ المكتب الرئيسي ورئيسه فارسي شيعي من سلالة عربية .

يجمع على يضم العرب جميعا ويكون مركزه في مصر . بقى أن نرى مدى النتائج العملية لهذه القرارات والتأييد الذي ستلقاه من العالم الإسلامي عامة ونرى خاصة إن كان عقد مؤتمر إسلامي كل سنتين بايجان دائمة سيكون ممكنا تنفيذه في الظروف الحاضرة ، غير أنه ما دامت المقترحات الحالية معتدلة وعملية معاً وما دام تنفيذها موكولا إلى هيئات ثمانية منظمة لا إلى حكومة تضعها في سلة المهملات في إحدى الدواوين فيحتمل كل الاحتمال أن تكون لها نتائج عملية من نوع ما . وإذا كان الأمر كذلك استطعنا تأكيد أن حركة المؤتمرات ستزداد قوة على الدوام وأن عملها للاحتفاظ بوحدة الثقافة سيكون له أهمية حاسمة ،

رأى القارىء أن المؤتمرات وضعت أغراضاً ثقافية في المكان الأول . وأنها تنكبت عن كل تدخل مباشر في الشؤون السياسية ، وقد منع الملك ابن سعود منعاً فعلياً بمثل مؤتمركم من التدخل في السياسة الدولية وما بين بعض الشعوب الإسلامية وبين حكوماتها من خلاف ، وزاد على ذلك أن هذا من المصالح الموضعية الخاصة بتلك الشعوب ، ومع ذلك لم يمكن تجنب المشاغل السياسية تجنباً تاماً ، وحتى في مؤتمر الخلافة في القاهرة أصدر قرار احتجاج على إطلاق القنابل على دمشق ، وفي مؤتمر مكة أدخل احتجاج ضد إلحاق العقبة ومعان بشرق الأردن تحت احتجاج من الممثلين المصريين والأتراك والأفغانين ، بل كان مؤتمر القدس أوثق صلة بالسياسة بما اتخذ من قرارات ضد الصهيونية وإن كانت قراراته بصدد سكة حديد الحجاز (التي نظر فيها أيضاً في مكة) لم تتعد حدود المصالح الثقافية للمسلمين لأن تلك السكة وقف ديني إسلامي ، لا ينازع في ذلك أحد . وإن رغبة منظمي المؤتمر عن أن يجعلوا هذا برنامجاً سياسياً أيما كان تجلت في أنهم حينما كان المؤتمر ينتهزون فرصة حضور كثير من الممثلين لا عادة تأكيد البرنامج السياسي الكامل للجامعة العربية في لهجة جادة غاية الجهد أبوا أن يكون ذلك في المؤتمر العام بل تم في اجتماع خاص قائم بذاته

منفصل تماماً عن المؤتمر وقاصر على مثلى البلاد العربية . وليس محتملاً على الأقل أن تظل المؤتمرات المقبلة - إذا عقدت - بنجوة من التدخل في السياسة ، بل الأمر على العكس ، فالتواحي السياسية لكثير من المعضلات التي تواجهها شعوب الإسلام ستدخل بالضرورة شيئاً فشيئاً في المباحثات .

في نظرنا العاجلة إلى الآثار التي أحدثها الغرب في الشعوب الإسلامية وفي نظرنا إلى شعور الوحدة الإسلامية وكيف كان مسلكه حيال تلك المؤثرات . وصاننا نقطة يمكن أن نقرر عندها الآن نتيجة نهائية : رغم تنافر ما يزال قائماً في بعض الدوائر بين الأفكار القديمة والأفكار الغربية الدخيلة فإن النزعة العامة كما يتضح تهب من نهج التوفيق بينها على أساس فكرة سامية هي تكوين أسرة من الأمم الإسلامية التي تكون مستقلة في تنظيمها في ظل حكومات أهلية ، ولكنها تكون جميعاً شاعرة بحفظها من ميراث الثقافة الإسلامية التي تشترك فيهمع غيرها ، وتكون بفضل هذه الرابطة المشتركة في الشعور والمصلحة محتفظة بشبه اتحاد يجمعها ، اتحاد إسلامي شامل يسعى وراء الخير العام لأعصبة أمم إسلامية تحاول فض النزاع بين أعضائها . .

وحتى إذا زعمنا أن العالم الإسلامي يمكنه أخيراً أن يجد في هذا النظام وسيلة يستثمر بها موارد القوة الهائلة التي تملكها شعوبه أحسن ما يكون . الاستثمار فإن المؤتمرات وما شاكلها لن تؤدي ألبتة إلى بلوغ هذه الآمال ، ولا نستطيع القول إنها ستبلغ غايتها حتى بعد مدة طويلة من الزمن ، ولكن ينبغي ألا نبالغ في تقدير طول هذه المدة لأن هناك ظاهرة كثيراً ما يهملها الباحثون في حركات المجتمع الإسلامي مهما كان نوعها وهي أنها تتضح بسرعة مذهشة حتى أن وجودها - كما أشار الأستاذ ماسينيون - ينذر أن يخطر على بال أحد قبل أن يندلع لحيها ويروع العالم ، والمسألة الكبرى هي مسألة الزعامة فحينما يجد الإسلام « صلاح الدين » الجديد ، رجالاً يجمع بين الحنكة السياسية العظيمة وبين

شعور برسالة الدينية يبلع أعماق نفسه فان ما عدا ذلك يتحل من تلقاء نفسه .
بقى أن نمس برفق بعض المشاكل الحاضرة التي نشأت عن تضافر هذه
التيارات الفكرية ، وأولى هذه المشاكل تتعلق بمكافة الرعايا غير المسلمين في
القوميات المقبلة إن كانت المبادئ الإسلامية ستظل أساسها ، هل سنرى تكراراً
مكبراً لتبادل الرعايا الذي حدث بين تركيا واليونان وما كان فيه من عنف
وسخف ؟ لا ، اللهم إلا إذا تدخلت أوروبا بتعالمات واهية كالتى ساعدت دعاة
القومية الأتراك على بلوغ غايتهم . أما في مصر وآسيا الغربية فمشكلة الأقليات
غير الإسلامية سهلة إلى حد ما فبعد أن نبذت الأفكار القديمة التي كانت تنظم
العلاقات السياسية بين المسلمين وغير المسلمين - وقد نبذت اليوم في كل مكان
عدا جزيرة العرب (هذه لا يكاد يوجد فيها غير المسلمين) - صارت العقيدة
الدينية مسألة شخصية لها اختصاص قضائي مستقل لا يؤثر على المكافة المدنية ،
وزالت نهائياً العقبات التي كانت قائمة في سبيل تكوين قوميات متجانسة ، ذلك
أنه ليست هناك شقة ثقافية بين المسلمين والشرقيين من المسيحيين واليهود كما
بين الأغريق المحدثين وبين الأتراك أو بين مسلمي الهند والهندوك . ومن
الوجهة التاريخية يتصل الإسلام في ناحيته الاجتماعية اتصالاً وثيقاً باليهودية
والكنائس المسيحية الشرقية وقد ساهم كل من اليهود والمسيحيين الشرقيين في
العصور الوسطى بنصيب هام أضافه إلى الثقافة الإسلامية وقد اندمجوا في هذه
الثقافة أندماجاً تاماً كما أن تطورهم الحديث سار مقارناً لتطور المجتمع الإسلامي
وتعرضوا كما تعرض هذا المجتمع لمؤثرات واحدة . وأكبر آية على هذا ، الدور
الذي قام به المسيحيون الشرقيون في تطور الأدب العربي الحديث .

وأفصح ازدياد الشعور القومي في البلاد الناطقة بالضاد فلاحاً كبيراً في
إيجاد علاقة منظمة بين المسلمين وغير المسلمين ، ففى كل جمعية سياسية
أو ثقافية في مصر من الوزارة إلى جمعيات الأحرار يتعاون المسلمون والأقباط .

(ما عدا - طبعا - الجمعيات التي خصصت لأغراض طائفية بحتة) ونرى هذه الظاهرة نفسها في الحياة العامة في فلسطين وشرق الأردن وفي الجزء الأكبر من سوريا وفي علاقات اليهود ومعظم مسيحي العراق مع السكان المسلمين والحكومة الإسلامية وفي علاقة المجوس في فارس مع أبناء وطنهم المسلمين. ولسانتكر بعض الشواذ، فالمارونيون في فلسطين والجاليات الأرمنية في سوريا طائفتان لا تندجان وقد لا تقبلان اندماجا، كما أن المسيحيين الآشوريين في قلق على علاقاتهم مع أغلبية المسلمين في العراق. والموقف في سوريا والعراق معقد لوجود فوارق طائفية في الصفوف الإسلامية، ولكن الفكرة الإجمالية التي تبقى بعد نظرة في الأسباب التي يمكن أن تحول دون الوحدة في آسيا الغربية هي أن الحركة الفكرية تسعى سعيًا حثيثًا في التغلب عليها جميعا ما عدا التي أحتدمت بسبب وجود خصومات قوية لأسباب نصف جنسية ونصف اجتماعية بصرف النظر عن العقيدة الدينية. وربما كان السنيون الأكثر حرجا في سبيل تنظيم دولة قومية في العراق مثلهم مثل مهاجري اليهود في سبيل تكوين قومية سورية فلسطينية.

ومهما كان لا بد من مواجهة هذه المصاعب أخيرا فلا تنكر أن النزعات السائدة تسير بقوة في سبيل الاحتفاظ بأساس إسلامي للقوميات الجديدة وقد أجابت الأقليات غير الإسلامية على تسامح المسلمين إزاءها بأن قبلت وأيدت مبدأ اعتراف الدولة بالإسلام ديناً رسمياً. ونجد الشعور القومي العربي في البلاد الناطقة بالضاد من آسيا الغربية قد استهواه من غير شك المثل الأعلى للوحدة العربية الإسلامية وما تنطوى عليه من إحياء لشعور الفخر القومي بما كان للحركة الإسلامية من ماضٍ مجيد. وكانت الصحف المسيحية أكثر حماسة من الصحف الإسلامية في المناداة بفكرة الجامعة العربية، وإن صحيفة إنغريفة لأورثودوكسية هي التي افتتحت مقالا رئيسيا عن مؤتمر القدس بهذه العبارة:

حمرجاً بمن جالسوا ليضعوا بحكم سليم الأساس لأعادة أيام عمر ، باني "مجد
الاسلام على أثر سيده محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ، (١) وربما كان
أهم من ذلك أن المؤتمر الاغريق الاورثودكسي الذي تصادف أن كان
منعقدا أيام انعقاد المؤتمر الاسلامي في فلسطين أرسل وفداً يحمل تحياته
للمؤتمر الاسلامي .

ونستطيع أن نفهم لماذا كانت البواعث القومية في تركيا وفارس على الاحتفاظ
بالاسلام أساساً للدولة أقل شدة منها بين العرب ، ولكن يظهر أن فارس على
الأقل - تشعر بأن الثقافة الاسلامية الثالثة أساس حياتها كأمة متحدة ، وحتى
في تركيا اللادينية الملحدة ، هل هناك أي قوة روحية في الاسلام تساوي قوة الاسلام؟
وإذا كان حكام تركيا الحاليون قد أدالوا دولة الاسلام فانهم يبدوون عناية
خشبة بالحماسة لحماية العناصر الاسلامية في حياتهم الاجتماعية من أن تشوبها
تعاليم دينية أخرى ، ومادامت رأس الجمهورية التركية تحمل على الأقل الكلمة
الاسلامية ، غازي ، فالقول بأن تركيا لم تعد دولة إسلامية تناقض بين - فيما
يظهر - ومن جهة أخرى فان تطبيق فكرة القومية الاسلامية في حالات معتدة
خاية التعقد كافي الهند وأندونيسيا أمر لن يكشف عن مدى إمكانه إلا المستقبل ،
وربما يضطر الاسلام في البلاد التي لم يفلح فيها في التغلغل في البناء الاجتماعي
بثقافته ومثله العليا الخاصة إلى الرضا بانقراض مساحته كما اضطرت في شبه
جزيرة البلقان من قبل تاركا المجال للمجتمعات الاخرى التي برهنت على أنها أقوى
من تندمج فيه ، وهذا بما يفيد الاسلام أيضاً إذ تظل له قوته على التماسك والاتحاد
وكانت وجهة النظر العلمانية التي هي أساس فكرة القوميات أكبر عامل في
إحداث هذا التغيير في العلاقة بين الدين والبولية ، وعسير أن نجد في أي مكان
من آسيا الغربية عدا جزيرة العرب أي معاضدة قوية للنظرية القديمة التي كانت

(١) ليس هذا نقلا عن الأصل ، بل تعريب الترجمة الإنجليزية (المترجم)

حتى سنوات قليلة تتمثل في الخلافة العثمانية ، ولكن هذا التغير في الرأي عن مكان الدين من الدولة وهو التغير الذي نشأ عن الأخذ بالسياسة الغربية في نأحيها النظرية والعملية يحدث صدعا واسعا في الأفكار الإسلامية الموروثة ، ولاستطيع أن نمضى دون التعرض لمسألة ما إذا كانت هذه المؤثرات نفسها التي أثرت في الفكر الإسلامى فى هذا الميدان أثرت أو ستؤثر فى المستقبل فى الناحية الدينية البحتة ، ولهذا أيضا علاقة ظاهرة بمعضلة العالم الإسلامى كلها . وإذا كان التمسك بالدين سيظل عاملا من عوامل الوحدة فبين أنه لكن تظل الرابطة قوية لا بد أن تحتفظ البلاد الإسلامية بنزعة دينية واحدة تقريبا ، وإذا تطورت هذه النزعة تحت ضغط الأفكار الجديدة وجب أن يكون تطورها على غرار واحد فى جميع البلاد ، وإلا فربما أصبح الدين كما أوشك أن يكون فى أوربا — عاملا يعمل على الانقسام أكثر مما يعمل على الوحدة ، وربما انقسم الإسلام إلى كثير من « الأديان القومية » ، ومهما بدا هذا الرأى غريبا فهو ليس عسير التصور ولا غير مستبوق ، فمنذ أربعة قرون كان لمذهب الشيعة فى فارس كل صفات الديانة القومية وتوشك الوهاية فى جزيرة العرب أن تكون ديانة قومية ثالثة تنافس عقيدة الإباضية فى عمان والزيدية فى اليمن .

نرجع إذن إلى السؤال الذى طرحناه فى أول هذا الكتاب : أى وجهة يقصدها الإسلام من حيث هودين؟ وبعبارة أوضح كيف تأثر التفكير الإسلامى بالتغيرات التى أحدثتها الثقافة الغربية؟ إنه لسؤال شاق ومكان زلق تزل فيه قدم غير المسلم فى حين أن المسلم نفسه لا يقطع بصحة جواب يفوه به ، ولكنه سؤا لا مناص منه . أول ما نلاحظ أن الجماهير الإسلامية العظيمة لم تتأثر فيما يظهر بالمؤثرات الدينية الغربية وأن الرأى الفقهى الإسلامى فى مجلته لا يزال متمسكا بماورثه ولكن هذا ليس الحق كله ، الحق أن التعاليم والنزعة الدينية حتى عند أشد معتقئ الإسلام محافظة عليه كانت تتطور ببطء فى القرن الماضى على حين غفلة من

رجال الدين ومن غيرهم ، لم يدخل أى عنصر جدير بالذكر ولكن بتأكيد بعض المسائل وانتباز بعضها إلى المحل الثانى يتحرك ميزان العقيدة والتعاليم الخلقية ، ويتحرك فى اتجاه يجعلها أقرب إلى الأخلاق الغربية والتعاليم الحديثة كما تمثل فى التعاليم الجارية فى الكنيسة المسيحية .

ولكن هنا أيضاً يجب أن ننظر إلى الزعماء لا إلى الجماهير إن أردنا إصدار حكم على النزعات الحاضرة فى الفكر الدينى ، والحق أن الزعماء قد ذهبوا إلى أبعد من هذا ، والحق أن معظمهم مهما تكن أفكارهم حديثة يعارضون فى إثارة المسائل الدينية على الجماهير لأنهم يعتقدون بحق أنها ستصرفهم عما يعدونه واجباً أكثر إلحاحاً ، وأنها قد تبعث الاضطرابات والانقسامات فى كل إقليم وفيما بين الشعوب الإسلامية فى مجموعها فى وقت واحد ، ولكن يوجد رغم هذا فى كل بلد إسلامى - مع الاستثناء الدائم لجزيرة العرب والأفغان وأجزاء من إفريقيا الوسطى - حركات معينة تختلف فى قوتها وحدتها وترمى إلى تفسير جديد أو إلى إعادة النظر فى المبادئ الدينية للإسلام ، وقد عملت مدرسة الشيخ محمد عبده بفروعها صراحة منذ زمان طويل من أجل هذه الغاية . وقد أتى بعض الأفراد بأفكار أكثر تطرفاً ولا سيما فى الهند ، ولكن صغار المفكرين خاصة هم الذين يقومون بالأصلاجات الكبرى من وراء حجاب ، وهناك ظاهرة تسترعى النظر فى هذه الحركات وهى أن المنهاج الواحد فى الإصلاح الوهابى بما فيه من رجوع مسرف إلى مذاهب السلف وفى المسلك الذى يتجه المجددون المنطرفون ، كلاهما يرفض ما تكس من تعاليم العصور الوسطى التى كانت تنذر بخلق حياة الإسلام وينادى بالرجوع إلى مبادئ السلف ، وربما يبين أن للوهابية دوراً حاسماً تلعبه فى تجديد الفكر الدينى ، وربما تسد الثغرة التى تهدد الآن بالافتتاح بين المحافظين والمجددين وذلك بتأثيرها الذى تحدثه فى طوائف آخذة فى الازدياد فى داخل نطاق الجزاء المحافظ من الفكر الإسلامى .

وفي الوقت نفسه لا تحمل هذه المعارضة التي تصطبغ بصبغة « الاحتجاج » (١) مشكلة تأويل تعاليم الإسلام بما يتناسب مع روح العصر لأن من العسير أن يسير المسلمون خطوات هامة في هذا التأويل إلا إذا تغيرت وسائل التعليم الديني وأصوله تغيراً تاماً ، فإذا نبذت فلسفة العصور الوسطى التي تقيد بها علم الكلام الإسلامي حتى الآن كان التوفيق بين مبادئه الأولى وبين قواعد الإيمان الحديث أقل صعوبة مما يظهر .

ولقد أشرنا مراراً إلى أن الموقف الذي يواجهه علم الكلام الإسلامي اليوم شبيه بالموقف الذي نشأ منذ أكثر من ألف عام حينما واجه الميراث الأجنبي وكان النصر الحاسم حليف المحافظين في ذلك الكفاح الذي أتيب « علم الكلام » الإسلامي الجليل ويتسائل البعض : ألا يمكن أن يحدث مرة أخرى أن الروح المحافظ إذ يكيف ما يجده في الفكر الحديث من عناصر تلائم أغراضه سيكون أقوى من أن يسمح للأفكار الجديدة المتطرفة أن توطد نفسها في الجزمالات كبر من العالم الإسلامي ؟ إن هذا الرأي يغفل الفرق الجوهرى بين الموقفين ففي الوقت الأول كان نجم الإسلام آنذاً في الصعود وكان الصراع مقصوراً على دائرة صغيرة من المتكلمين ، أما الآن فهو يقف موقف المدافع ولا بد له من التغلب على كتلة قوية متزايدة من الرأى العلماني الذي حرر نفسه من سلطان العلماء ، والآن ففي حين أن سواد الرأى العام الإسلامي لا يزال في الهندسة قوى المحافظة نجد الأفكار الحديثة قد صارت من القوة في مصر - بصرف النظر عن تركيا - بحيث لا يمكن اقتلاعها من غير تعريض بناء المجتمع الإسلامي كله للخطر .

(١) يريد أنها تشبه ثورة البروتستانت على الكنيسة ومعنى البروتستانت المحتج وكان البروتستانت يربطون ألا تستأثر الكنيسة بتأويل الكتاب المقدس (المترجم)

وعلى هذا فرغم أننا لا نستطيع أن نخرج من حسابنا إمكان انقسام العالم الإسلامي آخر الأمر فهناك عدة عوامل قد تدخل وتمنع العالم الإسلامي من أن يحتذى تماماً ذلك المثل السيئ الذي ضربه الإصلاح الديني في أوروبا وما جلبه ذلك الإصلاح من تكبات ، أحد هذه العوامل عدم وجود كهنوت في الإسلام وما يترتب على ذلك من قوة تنالها الطائفة العلمانية المثقفة ، وفي الصراع الأخير بين زعماء الرأي العام العلمانيين وبين الشيوخ المتعلمين تعليماً دينياً كان النصر الأكبر لحليف الأولين الذين آثروا في الجملة من جانبهم - أن يتبعوا سياسة تطورية معتدلة بدلاً من أن يحتذوا المثل الذي ضربته تركيا ومافيها من تغير متطرف عنيف . وإن عدم وجود سلطة واحدة على العقيدة ينشأ عنه أيضاً نزعة إسلامية أخرى تنهج منهج التوفيق ، وهي النزعة التي يقبلها الجميع وتتيح الاختلاف في الرأي وتخرج من أن تخرج من زمرة المسلمين أحداً إلا من يسعى إلى ذلك بحماسة وتعصبه الطائفي الضيق . وقد وجدت الفوارق دائماً بين جمهور المسلمين من أهل السنة وليست هي فوارق تافهة في المذاهب أو العبادات فحسب ولكنها فوارق جوهرية كالتى ميزت متكلمي أهل السنة عن كبار شيوخ الطريقة الصوفية ، ولكنها رغم قرون من الجدل لم تؤد إلى انقسام .

وهناك عامل ثالث هو قوة شعور العالم الإسلامي بالأهمية العظمى للوحدة الدينية أمام أوروبا والهندوك ، وقد لطف هذا العامل فيما مضى من حدة الشعور الطائفي حتى بين طوائف توارثت خطة العداء منذ ألف عام ، وقد رأينا مظهر تضامن الشيعة من العرب والفرس مع أهل السنة بإديا في مؤتمر القدس ، وكل الباحثين في الحركات السياسية الحديثة في الشرق يعرفون الدور الذي لعبه الشيعة في الإسلام في الهند ، لا عامة الشيعة المعتدلين أمثال المرحوم سيد أمير علي فحسب بل الشيعة المتطرف أغاخان . ويظهر أن سعة التسامح الإسلامي

تزداد من كل جهة وربما توقع أن تمتد أكثر من ذلك حينما يصبح الدين
بمغناه الضيق لا يلعب دور المسيطر على الحياة السياسية القومية في الشعوب
الإسلامية . وقد يكون هناك خطر ما يزال قائماً وهو أن الدين سيصبح من
الضعف بحيث يفقد سلطانه نهائياً ولكننا رأينا أن هذا الخطر أقل تهديداً
الآن بما كان منذ عشرين سنة ، ونرجو فوق ذلك أن يتمخض تفاعل القوى
الدينية المختلفة الفعالة الآن في العالم الإسلامي عن حياة دينية عميقة شاملة .
ولا بد أن تسأل أخيراً عن مكانة المجتمع الإسلامي بوجه عام ، ولا
سيما عما عسى أن يكون له من علاقات مع المجتمعات البشرية الأخرى في وضع
العالم المستقبل . ألمع الاستاذ « برج » إلى أن انحياز الشعوب الإسلامية إلى
أجناب الشرق أو جانب الغرب يتوقف توقفاً كلياً على مسلك أوروبا وإزاء العالم
الإسلامي والشرق عامة . وفي الوقت نفسه لا يستطيع العالم الإسلامي أن
يعيش إن أنكر الأصول التي قام عليها . وقد رأينا أن الإسلام في أصوله
ينتمي إلى المجتمع الغربي الكبير (١) ويكون جزءاً جوهرياً فيه ، هو المكمل
والموازن للمدنية الأوروبية يتغذى من الينابيع التي أغنت منها ويستشوق الهواء
الذي تستنشقهُ وإذا نظرنا نظرة تاريخية شاملة رأينا أن ما يحدث الآن بين أوروبا
والعالم الإسلامي هو إعادة توحيد المدينة الغربية التي انفصلت انفصالاً غير
طبيعي أيام النهضة الأوروبية والتي تعيد الآن تأكيد وحدتها بقوة جارفة .
وبالبحث في التاريخ رغم شعوره الخفيف بنقائص التشبيه لا يتالك نفسه من تذكر
وقتين سابقين (وإن لم يكونا أسبق ما يكون) حدثت فيهما عملية تفاعل منتج
بين نصفى العالم الغربي استمرت قروناً كثيرة ، وكان من مجد الإمبراطورية
الرومانية وعظمتها أنها وحدث هذين النصفين تحت لوائها وأن من تلك الوحدة
تولدت العوامل الروحية التي سيطرت على مجرى التاريخ الغربي من ذلك الحين ،
وفي منتصف الطريق بين عصرنا وبين ذلك العصر حدثت أول مخاطرة عقاية

(١) أنظر الصفحتين الثالثة والرابعة من الفصل الأول .

عظيمة للإسلام حينما أدمج في نفسه الميراث الأجنبي وجعله يزدهر من جديد حتى كان من هذا الازدهار بدور نمت منها النهضة الأوروبية .

ولا يمكن أن يقف التيار عند ذلك ، إنه مستمر أمام أعيننا في صورة أوسع وأعظم وإن خفى ذلك عن أنظارنا بسبب المعارضة التي يوجهها العالم الإسلامي في مجلته لتقدم أوروبا تقدماً مدهشاً في الناحية الفنية وربما تكون النتيجة كما كانت من قبل - هي أننا لابد أن ننظر حتى بعيد المجتمع الإسلامي توازن المدينة الغربية المختل الآن بسبب رجحان أحد جانبيها . وربما يتبين أخيراً أن حصن الامبراطورية العثمانية كان فيه خلاص العالم الإسلامي وأنها بعزلها له حالت دون مشاركة في نمو القومية الأوروبية المسرعة وحالت دون أن ينقسم إلى ولايات كما أصاب البلقان وكما حدث تركيا ذاتها وكان ذلك من ميراثها السياسي البيزنطي أكثر مما كان من ميراثها الإسلامي . وعلى كل حال فالعالم الإسلامي يقف جنباً لجنب مع أوروبا متميزاً عن المجتمعات الشرقية الصميعة في الهند والشرق الأقصى ، وفكرة «رابطة شرقية عامة» من العالم الإسلامي والهند والصين واليابان هي النتيجة الخيالية الناشئة عن الحق على سيادة أوروبا السياسية والاقتصادية المؤقتة ، ولكي يصل العالم الإسلامي إلى أتم رقي في حياته الثقافية والاقتصادية لا يستطيع أن يستغنى عن التعاون مع المجتمع الأوروبي ، ولكي تصل أوروبا أيضاً إلى أتم رقي في حياتها الثقافية ولا سيما في حياتها الروحية لا تستطيع أن تستغنى عن القوى والكفايات التي توجد في المجتمع الإسلامي ولن يستطيع أحد الفريقين أن يسترد ويستثمر قواه الكاملة إلا بعد أن يستعيدا ذلك التعاون الذي تمتع به الشرق والغرب في ظل الامبراطورية الرومانية .

ولا يزال الإسلام في داخل العالم الغربي يسلك سبيلاً وسطاً بين المتناقضات الشديدة ، وهو على معارضته لفوضى القومية الأوروبية وللنظام العسكري

لروسيا الشيوعية لم يقع بعد فريسة لهجمات الحياة الاقتصادية المائعة التي تمتاز بها أوروبا الحاضرة وروسيا الحاضرة كذلك؛ وقد لخص الاستاذ ماسينيون الأخلاق الاجتماعية في الإسلام تلخيصاً يدعو إلى الإعجاب حيث قال : « للإسلام الفضل في أنه يمثل لنا فكرة عادلة عما يقوم به كل فرد من أبناء الوطن بدفع عشر ريع الأرض للخزينة العامة، إنه يشن الغارة على المبادلة المطلقة ورأسمالية البنوك وقروض الدولة والضرائب غير المباشرة على الأشياء التي لها أهمية جوهرية، ثم هو يؤكد حقوق الأب والزوج والملكية الفردية ورأس المال التجاري، ونراه هنا يقف مرة أخرى في مكان وسط بين الرأسمالية والبرجوازية، (١) وبين الشيوعية البولشفية ».

ولكن الإسلام لا تزال له رسالة يؤديها من أجل قضية الانسانية . هو يقف رغم كل شيء أقرب الى الشرق الحقيقي من أوروبا اليه ، وله ماض مجيد من تفاهم الاجناس وتعاونها ولا يوجد مجتمع آخر سجل له من النجاح في أن يجمع كثيراً من اجناس الانسان المختلفة مع التسوية بينهم في المكانة والعمل . وتهيئة الفرصة كما سجل للإسلام ، والجماعات الاسلامية العظيمة في افريقية والهند وإندونيسيا والجماعات الاسلامية الصغيرة في الصين أيضاً والجماعة الصغرى في اليابان كلها تبين أن الإسلام لا تزال له القوة على أن يتألف العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها بسبب الجنس والتقليد . وإذا لم يكن بد من أن يحل التعاون محل الشقاق بين المجتمعات العظيمة في الشرق والغرب فان وساطة الإسلام شرط لا بد منه لأن في يده إلى حد كبير حل المعضلة التي تواجه أوروبا في علاقاتها مع الشرق ، وإن اتحدوا زاد الامل زيادة لاحد لها في بلوغ نتيجة سلمية ، أما إن قذفت أوروبا بالإسلام بين أذرع خصومها ورفضت التعاون معه فلا بد أن تكون النتيجة ناكبة للجانيين .

(١) طبقة البرجوازية هي طبقة أصحاب المصانع ويستبدون بالعمل استبداداً قاتلاً

فم — رس

- الاسلام : خصائصه : ٨ - ١١٤٩ -
١٥٤١٢ ١٧٤ ١٤٧٤ ٢٤٧٤ - ٨
انتشاره : ١٢٩٤ ١٧٤ ١٢٩٤ -
١٦٢ - ٣
تكوينه السياسي : ٢٨ - ٣٠
نظريته السياسية : - ١٨ ٢٦ - ٢٧
١٢٩ - ٣٠
معضلة الاجناس فيه : ٢٤٨٤ ٢٢٢٤ ٢٠٠
حركات الاصلاح : ٣٢ - ٤٨٤ ٣٩ -
٥٠ - ٥٩٤ ٦١ - ٦٥٤ ٧٦٤ ٨٤٤
٩٢ - ١٠٥٤ ١١٩٤ ١٢٤٤ ١٥١٤ -
١٧٢ ١٨٦٤ ١٩٤٤ - ٢٤٣٤٥
المحافظون والاصلاح : ٤٦٤ ٤٢٤ ٣٨٤
٦٥٤ ١٢٥٤ ١٧٤٤ - ٢٠٧٤ ٦
الشريعة : ٣٣٤ ٥١٤ ٦٣٤ ٦٥٤ ٨١٤
٩٢٤ ١٠٣٤ ١٣٠٤ ١٤٧٤ ١٧٥٤ -
٢١٨٤ ٢٢٨٤ ٢٣١٤
الطرق الصوفية ، ١٤٤ ٦١٤ ٨٤٤ ١٠٤٤
١١٣ - ٢٢٩٤
علم الكلام ، ٩٤ ١١٤ ٤٨٤ ١٣٠٤
١٤٧٤ ١٦٠٤ ١٤١٤ ٦ -
طريقة الدفاع الجديدة ، ٤٨٤ ٥٥٤ ٥٩٤
٦٦٤ ٦١٤ ٨٩٤ ١٢٦٤ ١٣٥٤ ١٩٥٤ -
٢٢٠٤ ، أنظر أيضاً الأحدية ، أوروبا ،
فرنساء المبشرون المسلمون ، القومية ،
الجامعة الإسلامية ، الاستغراب
وحدة المدينة الإسلامية ١٠ - ١٥٤ ٢٧٤ - ٨
- تفاوتها ، ٣٩٤ - ٤٢٤ ٤٠٤ ١١٥٤
٢٢٧٤ ٢١٩٤
مشروع عصبة أمم إسلامية ، ٨٤٤ -
٢٣٨٤ ٢٣٤٤
القرآن : ٨٤٤ ٦٠٤ ٧٦٤ ٨٥٤ ٢٢٨٤
المسلمون : مسلكهم إزاء أوروبا ، ١٧٤ -
٢٥٤ ٣٩٤ - ٤١٤ ٥١٤ ٥٨٤ ١٠٠٤
١٠٢ ١٢٧٤ ١٣٦٤ ١٦٩٤ - ٧٠٤
١٧٨٤ ١٩٠٤ ٢٠١٤ ٢٢٠٤
مسلكهم إزاء الهندوكية ، ١٨٤ ١٠٧٤
١١٤ ١٤٢٤ ١٤٥٤ - ١٥٠٤ ١٦٣٤
١٧٢ - ٣٤ ٢٣٩٤
خصائص الحركات الإسلامية ٥٤ - ٥٥٤
١٨٤٤ ٢٣٨٤
زعماؤهم ، ٤٢٤ ٤٥٤ ٦٤ ٩٨٤ - ١٠٠٤
١١٢ ١٧١٤ ١٨٣٤ ٢٣٤٤ ٢٣٨٤
نحوهم السياسي ، ٢٥٤ ٢٩٤ ٣٥٤
وحديثهم ، ٢٧٤ ٣١٤ ٤٠٤ ٥٢٤ - ٣٤
٧٨٤ ٨٤٤ ١٠١٤ ١٣٩٤ ١٥٠٤
١٦١ - ٢٠٤ ١٨٤٤ ٢٠٤ ٢١٦٤
٢٢٤ - ٣٢٤ ٢٣٦٤ ٢٣٨٤
إحصائهم وتوزيعهم ، ٨٤٤ ٩٤٤ في الهند
١٠٨ - ١١١٤ ١١٣٤
العرب : ١٨٤ ٥٧٤ ٦٢٤ - ٣٤ ١٢٩٤
١٦٨ - ٩٤ أنظر أيضاً قومية
جزيرة العرب ٤٢٤ ٩٦٤ ١١٢٤ ١٦٧٤
٢١٩٤ ٢٤١٤ ٢٤٢٤

- اللغة العربية والكتابة العربية : ١٤
١٠٤٠٩٩٨٥٠٨١٠٦٩٠٦٦
الجيش : دوره السياسي ٤٣ - ٤٥
الحلقة : ٢٦ - ٨ - ٨٥٠٨٧ - ٩١
٢٣٢٠٠٠
- الأزم : ٨٩٠٨٨٠٤٩٠٤٥٠
البربر : فصل ٢ - قانونهم ٨١
الأحدية : ١٣٥ - ٢٠١٠٩ - ٢٣٠
المؤتمرات الإسلامية : ١٤٢٠٨٨٠٦٤
١٨٥٠٢٠١٠٢٣٢٠٣٧ في الهند
١٥٠٠١٤٦٠١٢١٠٦٤
الاجتهاد والتقليد : ٤٨ - ٩ - ١٣٠
١٧٥٠١٧٣
الملك ابن سعود : ٨٨٠٩٦٠٢٣٢
٢٣٧٠٢٣٥
الملك الحسين بن علي : ٨٨٠٨٩
٩٨٠٩٥
الهندوكية : ١٣٠١٨٠٣١٠٥٣
فصل ٤ : ١٧٢٠١٩٣٠٢٠٧
١٤٧٠٢٢٥
الثقافة الهندوكية الجاوية : فصل ٥٠٢٢٢
الحج : ١٤٠٥٥٠٥٥٠٦٩٠١٠٩٠١٦١
٢٢٩٠١٦٨
القومية : ٥٠ - ٣ - ٥٨٠٦٢٠٧٢٠٩٦
١٣٠٠١٥٠٠١٧١٠١٨٢ -
١٩٧٠١٩٩٠٢١١٠٢٢٠ - ٣
٢٤٧٠٢٢٦
مية البربر : ٦٢٠٢٢٢
هو
- قومية أندونيسيا : ١٥٩٠١٧٦ -
١٩٣٠١٩١٠١٨٧
القومية العربية : ٥٢٠٦٣٠٦٧٠٧٩
٢٣٧٠٢٢٢٠٢١٧٠٩٧
الجامعة الإسلامية : ٢٩ - ٣٤٠٤٢
٨٨٠٨٤٠٥٢٠٥٠٠٤٨٠٤٦
٢٤٠٠٣٨ - ٢٣٤٠١٠١ - ٩٦٠٨٩
الامبراطورية العثمانية : ١٨٠٢١٠٢٩
٢٤٧٠٢٧٠٣١
التعليم : ٣٤٠٣٥ - ٨٠٤٣٠٠٤٧
١٢٠٠١٠٣٠٩٧٠٩٣٠٦٦٠٦٣
١٦١٠١٤٩٠١٣٤ - ١٣١٠٢٢ -
١٦٥٠١٨٧٠١٨٦٠١٨١٠١٦٥
٢٣٦٠٢١٧٠٢١٤٠٢٠١٠١٩٤٠١٩٣
أوروبا : تجارتها ٢١ - ٢٤٠٩٧٠١٧٧
التوسع والاستعمار : ٢١٠٢٣٠٢٧٠
١٧٩٠١٧٨٠١٧٦٠١٥٣٠١٠٠ -
٢٠١٠١٨٠
علاقتها بالاسلام : ١١٠٢٠١٠٢٠ -
٨ - ٢٤٦
عدم استقرار أساس سيادتها : ١٧١٠٥٥
أرجحتها ٣٢٠١٧٠٠٢٢٤
أنظر أيضا : الاستغراب . المسلمون
الاستغراب : ٤٤ - ٣٨٠٣٩٠٤٦
٤٩٦٠٦٧ - ٦٥٠٦٢٠٥٧٠٥٣
٤١٢٧٠١٢٠٠١١٢٠١٠٥ - ١٠٣
٤٢٠٠٠١٩١ - ١٨٧٠١٧٤٠١٧١
٢٢٨٠٢٢٠ - ٢٠٧٠

سياستها في مراکش : ٦٢ ، ٨١	سر سيد أحمد خان : ٤٧ ، ١١٩ ، ١٢٥
سياستها في سوريا : ٩٧	١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٢٣
مشروع اتفاقها مع الإسلام : ٦١ ، ٦٥	سيد أمير علي : ١٢٦ ، ٢٤٥
الدعاية الإسلامية فيها : ٥٨ - ٥٩ ، ٦٠	شركة إسلام : ١٨١ ، ١٨٤ ، ٦
الشيخ محمد عبده ٤٨ - ٥٠ ، ٩٥ ، ١٠٥	١٨٧ ، ١٩٨
١٧٣ ، ٢٢٢	عبد الحميد سعيد بك ٧٠ - ٧١
سر محمد أقبال : ١٢٨ - ١٣١ ، ١٤٣	علي عبد الرازق : ٨٩ - ٩٠ ، ٩٤
١٥٠ - ٥١	غلام أحمد : أنظر الأحذية
دكتور محمد حسين هيكل ٩٤	فرنسا : الطلبة والعمال المسلمون فيها :
(تمت)	٢١٠ ، ٥٦

الخطا والصواب

ص	سطر	الخطأ	الصواب
٢٠	١٨	أن	آن
٢٦	٢٣	هو الأَمصار	هو في الأمصار
١٢٦	١	أخص	خاص
١٢٦	١٩	الذي	الذين
١٢٧	٣	خدا نجش	خذا نجش
١٢٩	٢٠	وجوهم	وجوهم
١٣٥	٤	علاقات	العلاقات